الطبعة الثالثة

قصص القرآن

للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

جمعها ورتبها
فايز بن سياف السريع




قصص القرآن
للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

ⓒ شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٣ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العتيبي، فايز بن سياف بن فايز السريح
قصص القرآن للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي
فايز بن سياف بن فايز السريح العتيبي ط٣ - الرياض، ١٤٤٣ هـ
٣٢٠ ص؛ ١٧ x ٢٤ سم
ردمك: ٦-٥٧-٨٣٤٤-٦٠٣-٩٧٨
١ - قصص القرآن ٢- قصص الأنبياء أ - العنوان
ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٤٣/٤٤٩٩

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٤٤٩٩
ردمك: ٦-٥٧-٨٣٤٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م



شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع
ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤١٦١٣٩ ـ ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩
فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨
البريد الإلكتروني: daralhadarah@hotmail.com



للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

جمعها ورتبها

فايز بن سياف السريح




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمدُ لله الصادقِ في قِيلِه، العظيمِ في تنزيله، الهادي إليه بنوره ودليله، وصلاةً وسلامًا زاكِيَيْنِ عاطِرَيْنِ على نبي الله وخليله، ومَن تَبِعَه بإحسان، واسْتَنَّ بسُنَّته، واقتفى بسبيله.

وبعد: فإن من عادات النفوس، وجِبِلِّيات الفِطَر؛ أن تشرئب لسماع القصص والأخبار، وأن تنشط لمرأى الأطلال والآثار، وأن تُفِيدَ من ذلك القلوبُ الحية العِظَةَ والاعتبار، ولذا كان من أعظم أَضْرُب الخطاب القرآني، وأَجَلِّ أنواع المعاني القرآنية ما كان القرآن يُوصِله عن طريقِ القصصِ والأخبار.

لقد جاء القرآن قاصًا ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وأمر الله نبيه ﷺ ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقصَّ الله على نبيه ﷺ ممتنًا ومُعَلِّمًا ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وأخبر الله ﷻ أن ما قُصَّ في هذا القرآن هو أحسن القصص، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

ولما كانت القصــة تقع في القلــوب موقعًا عظيمًا قال بعض الســلف: «القصص جندٌ من جنود الله»، أي: أنها تؤثــر في القلوب، وتَعِظُ النفوس بما لا يحصل من التوجيه المباشر الذي لم يكن واقعًا.

فإن أردت صادق الخبر، وصِدْقَ العبارة، وجمال الـمُعتبَر، فاجعل القرآن نافذتك على أطلال الديار، لتنظرْ في حضاراتٍ بائــدة، وأُمم وقرونٍ هامدة، خلَّد القرآن أفعالها، وسطر على مرِّ الزمان ما جرى لها، فكان ذِكْرُ القرآن لها عبرة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ولما كان الأمر كذلك نشــطت هِمَّتي لجمع متفرِّقات في هذا الباب، في ســفرٍ لطيــفٍ، وحِمْــل خفيف، فعمــدتُ إلــى ما ذكــره الشــيخ العلامة عبد الرحمٰن بن ســعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تيســير اللطيف المنان» و«تيسير الكريم الرحمٰن» من تعليقاته على قصص القرآن، فوفَّقــت بينها، وجمعتُ ما تفرَّق منها، ومزجت بينها، وشرحت ما أجمله هنا بما فصَّله هناك؛ ليكون ذلك في سردٍ بَيِّن لا يجدُ القارئ فيه غموضًا أو عُسْرًا.

كما أني عمدتُ إلى ما ذكره العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «أصول في التفســير»؛ حيث ذكر مبحثًا خاصًا متعلقًا بالقصص القرآني، فجعلته كالمقدمة لِمَا جمعت في هذا الكتاب، فجمعت في جَمْعِي هذا بين الشيخ وتلميذه؛ سائلًا الله أن يجمعني بهما، ومن يقرأ أسْطُرِي هذه في الفردوس الأعلى من الجنة.

والله ولي التوفيق، وصلى الله وســلَّم وبارَك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

❋ ❋ ❋

محمد آدم نوح زكريا

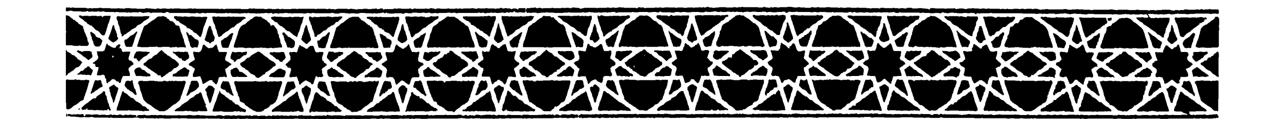
عيسى موسى إبراهيم

يونس إسماعيل

مقدِّمة

في علم القصص







القصص(١)

القَصَص والقَصُّ **لغةً**: تتبُّع الأثر.

وفي **الاصطلاح**: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضها بعضًا.

وقصص القرآن **أصدق القصص**؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

وأحسن القصص؛ لقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]، وذلك لاشـتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصص؛ لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وهي ثلاثة أقسام:

- **قسم** عن الأنبياء والرُّسُل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

- **وقسم** عن أفراد وطوائف جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم؛ كقصة مريم، ولقمان، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وغير ذلك.

- **وقسم** عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ؛ كقصة غزوة بدر، وأُحُد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

---

(١) هذا المبحث منقول من كتاب (أصول في التفسير) لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى (ص٥٩ ـ ٦١)، من إصدارات مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.

وللقصص في القرآن حِكَم كثيرة عظيمة، منها:

١ ـ بيان حكمة الله تعالى فيما تضمَّنَتْه هذه القصص؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: ٤ ـ ٥].

٢ ـ بيان عدله تعالى بعقوبة المكذِّبين؛ لقوله تعالى عن المكذِّبين: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ١٠١].

٣ ـ بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ۝ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ [القمر: ٣٤ ـ ٣٥].

٤ ـ تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذِّبين له؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [فاطر: ٢٥ ـ ٢٦].

٥ ـ ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه؛ إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار مَن أُمِروا بالجهاد؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

٦ ـ تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠].

٧ ـ إثبات رسالة النبي ﷺ؛ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [إبراهيم: ٩].

تكرار القصص

من القصص القرآنية ما لا يأتــي إلا مرة واحدة، مثــل: قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكررًا حســب ما تدعــو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هــذا المتكرِّر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقِصَر، واللين والشدة، وذِكْر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر.

ومن الحِكْمة في هذا التكرار:

١ ـ بيان أهمية تلك القصة؛ لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢ ـ توكيد تلك القصة؛ لتثبت في قلوب الناس.

٣ ـ مراعاة الزمن وحال المخاطَبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبًا فيما أتى من القصص في السور المكية، والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤ ـ بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.

٥ ـ ظهور صِدْق القرآن، وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقُض.



تمهيـد

قد قصَّ الله علينا في كتابه قصصًا طيبة مــن أخبار أنبيائه، ووصفها بأنها أحسن القصص، وهذا الوصف من الله العظيم يدل على أنها أصدقها وأبلغها وأنفعها للعبــاد؛ فمن أهم منافع هــذه القصص أن بها يتــم ويكمل الإيمان بالأنبياء صلى الله عليهم وســلم، فإننا وإن كنا مؤمنيــن بجميع الأنبياء على وجه العموم والإجمــال، فالإيمان التفصيلي المســتفاد مــن قصصهم، وما وصفهم الله به مــن الصدق الكامــل والأوصــاف الكاملة التــي هي أعلى الأوصاف، وما لهم من الفضل والفواضل والإحسان على جميع نوع الإنسان، بل وصل إحسانهم إلى جميع الحيوانات بما أبدوه للمكلَّفين في الاعتناء بها والقيام بحقها، فهــذا الإيمان التفصيلي بالأنبياء يصل بــه العبد إلى الإيمان الكامل، وهو من موادِّ زيادة الإيمان.

فمن ذلك: أن في قصصهم تقرير الإيمان بالله وتوحيده، وإخلاص العمل له، والإيمان باليوم الآخر، وبيان حُسن التوحيد ووجوبه، وقُبح الشرك، وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة.

وفي قصصهم أيضًا: عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين في مقام التوحيد والقيام بالعبودية، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التام، وفي

مقام الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات، واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى، لا يطلبون من الخلق أجرًا، ولا جزاءً، ولا شكورًا إلا الأمور النافعة للخلق.

وفيها أيضًا: عبرة لاتفاقهم على دين واحد وأصول واحدة، ودعوة إلى كل خُلُق جميل، وعمل صالح وإصلاح، وزَجْرهم عن كل ما يُضادُّ ذلك.

وفيها أيضًا: من الفوائد الفقهية والأحكام الشـرعية والأسـرار الحكمية شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها.

وفيها أيضًـا: من الوعظ والتذكيـر، والترغيب والترهيـب، والفَرَج بعد الشدة، وتيسير الأمور بعد تعسُّرها، وحُسن العواقب المشاهَدة في هذه الدار، وحُسن الثناء والمحبة في قلوب الخلق، ما فيه زادٌ للمتقين، وسرور للعابدين، وسَلْوة للمَحزونين، ومواعظ للمؤمنين، فليس المقصود من قصصهم أن تكون فقط سَمَرًا، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيرًا وعِبَرًا.





قصة آدم أبي البشر عليه السلام

لما اقتضت الحكمة الشاملة والعلم المحيط من الله والرحمة السابغة خَلْقَ آدم أبي البشــر الذين فضَّلهم الله على كثير ممن خلق تفضيــلًا؛ أعلم الملائكة وقــال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقــرة: ٣٠] يخلُــف مــن كان قبلهم من المخلوقات التي لا يعلمها إلا هــو. ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وهــذا منهم تعظيم لربهم، وإجلال له عــن أنه ربما يخلق مخلوقًا يشبه أخلاق المخلوقات الأُوَل، أو أن الله تعالى أخبرهم بخَلْق آدم، وبما يكون من مجرمي ذريته، قال الله لملائكته: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فإنه محيط علمه بكل شــيء، وبمــا يترتَّب على هذا المخلــوق من المصالح والمنافع التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

فعرَّفهم تعالى بنفســه بكمال علمه، وأنه يجب الاعتراف لله بسعة العلم، والحكمة التي من جملتها أنه لا يخلق شــيئًا عبثًا، ولا لغير حكمة، ثم بَيَّن لهم على وجــه التفصيل، فخَلَقه بيده تشــريفًا له على جميــع المخلوقات، وقبض قبضة من جميع الأرض ســهلها وحَزْنهــا[1]، وطَيِّبها وخبيثها، ليكون النسل على هذه الطبائع، فكان ترابًا أولًا، ثم ألقى عليه الماء فصار طينًا، ثم

(١) الـحَزْن من الأرض: الشَّدِيد الوعر.

لما طالت مدة بقاء الماء على الطين تغيَّر ذلك الطين، فصار حَمَأً مسنونًا[1]؛ طِينًا أسود، ثم أَيْبَسَه بعدما صوَّره، فصار كالفخار الذي له صلصلة، وفي هذه الأطوار هو جسـد بلا روح، فلما تكامَل خَلْق جسده نفخ فيه الروح، فانقلب ذلك الجسـد الذي كان جمـادًا حيوانًا له عظام ولحـم، وأعصاب وعروق، وروح هي حقيقة الإنسـان، وأعدَّه الله لكل علم وخير، ثـم أتمَّ عليه النعمة، فعلَّمه أسماء الأشياء كلها.

والعلم التامُّ يسـتدعي الكمال التام، وكمال الأخـلاق، فأراد الله أن يُرِي الملائكة كمال هذا المخلوق، فعرض هذه المسـميات على الملائكة، وقال لهم: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

في مضمون كلامكم الأول الذي مقتضاه أنَّ تَرْك خَلْقِه أَوْلَى، هذا بحسب ما بَدَا لهم في تلك الحـال، فعجزت الملائكة عليهم السلام عن معرفة أسـماء هذه المسـميات، وقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقـرة: ٣٢]، قـال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ [البقرة: ٣٣] شاهدت الملائكة من كمال هذا المخلوق وعِلْمه ما لم يكن لهم في حساب، وعرفوا بذلك على وجه التفصيل والمشـاهدة كمالَ حكمة الله، وعظَّموا آدم غاية التعظيم، فـأراد الله أن يُظْهِر هذا التعظيم والاحتـرام لآدم من الملائكة ظاهرًا وباطنًا، فقال للملائكة: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ [البقرة: ٣٤] احترامًا له وتوقيرًا وتبجيلًا، وعبادةً منكم لربكم، وطاعةً ومحبَّـةً وذُلًّا؛ فبادَروا كلهم أجمعون، فسـجدوا، وكان إبليس بينهم، وقد وَجَّه إليه الأمر بالسجود معهم، وكان من غير عنصر الملائكة؛ كان من الجن المخلوقين من نار السَّمُوم[2]، وكان مُبْطِنًا للكفر بالله، والحسد لهذا الإنسـان الذي فَضَّله الله هذا التفضيل؛ فحمله كِبْرُه

---

(١) أي: طينًا أسود متغيِّرًا.

(٢) السموم: نار تكون بين السماء والأرض، وهي النَّار التي تكون منها الصَّواعق.

وكفره على الامتناع عن السجود لآدم كفرًا بالله واستكبارًا، ولم يَكْفِه الامتناع حتى باح بالاعتراض على ربه، والقَدْح في حِكْمته، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهذا القياس من أفسد الأقيسة؛ فإنه باطلٌ من عدة أوجه:

منها: أنه في مقابلة أمرِ الله له بالسجود، والقياس إذا عارَض النصَّ، فإنه قياسٌ باطل؛ لأنَّ المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأتِ فيه نصٌّ يقارِب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعًا لها، فأمَّا قياس يعارضها، ويلزم من اعتباره إلغاءُ النصوص؛ فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

ومنها: أنَّ قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾؛ بمجرَّدها كافية لنقص إبليس الخبيث؛ فإنَّه برهن على نَقْصِه بإعجابه بنفسه وتكبُّره، والقول على الله بلا علم، وأيُّ نقص أعظم من هذا؟!

ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب؛ فإنَّ مادة الطين فيها الخشوعُ والسكونُ والرزانةُ، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات على اختلاف أجناسه وأنواعه، وأما النار ففيها الخِفَّة والطَّيْش والإحراق.

فقال الله له: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، فكان هذا الكفر والاستكبار والإباء منه وشدة النفار هو السبب الوحيد أن يكون مطرودًا ملعونًا، فقال الله له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] فلم يخضع الخبيث لربه، ولم يَتُبْ إليه، بل بارَزَه بالعداوة، وصَمَّم التصميم التام على عداوة آدم وذريته، ووَطَّن نفسه لَمَّا علم أنه حتم عليه الشقاء الأبدي أن يدعو الذرية بقوله وفعله وجنوده إلى أن

يكونوا من حزبــه الذين كُتِبَتْ لهــم دار البَوار[1]، فقــال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، فيتفرَّغ لإعطاء العداوات حقَّها في آدم وذريته.

ولما كانت حكمــة الله اقتضت أن يكون الآدمي مركَّبــا من طبائع متباينة، وأخلاق طيبة أو خبيثة، وكان لا بد من تمييز هــذه الأخلاق وتصفيتها بتقدير أسبابها من الابتلاء والامتحان الذي من أعظمه تمكينُ هذا العدو من دعوتهم إلى كل شرٍّ، أجابه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧ ـ ٣٨]، فقال لربه مُعْلِنًــا معصيته، وعداوتــه آدم وذريته: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧]، قال إبليس هذه المقالة ظنًّا منه؛ لأنه عرف ما جُبِل عليه الآدمي.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، فمكَّنه الله من الأمر الذي يريده إبليس في آدم وذريتــه، فقال الله له: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسـراء: ٦٣ ـ ٦٤] أي: إن قــدرت فاجعلهم منحرفين في تربيــة أولادهم إلى التربية الضــارَّة؛ في صرف أموالهم المصارف الضارَّة، وفي الكسب الضارّ، وأيضًا شارِكْ منهم مَن إذا تناول طعامًا أو شرابًا أو نكاحًا ولم يذكر اسم الله على ذلك في الأموال والأولاد، وعِدْهُم، أي: مُرْهُــمْ أن يُكَذِّبوا بالبعــث والجــزاء، وأن لا يُقْدِموا على خيــر، وخَوِّفْهم من أوليائك، وخَوِّفْهم عند الإنفاق النافع بالفحشــاء والبخــل، وهذا من الله لحِكَم عظيمة وأســرار، وإنك أيها العدو المبين لا تُبْقِ من مقدورك في إغوائهم شيئًا، فالخبيث منهم يظهر خبثه، ويتَّضح شَرُّه، والله لا يعبأ به، ولا يبالي به.

---

(١) أي: دار الهلاك.

وأما خواصُّ الذرية مــن الأنبياء، وأتباعهم مــن الصدّيقين والأصفياء، وطبقات الأولياء والمؤمنين، فــإن الله تعالى لم يجعل لهــذا العدو عليهم تسلُّطًا، بل أقام عليهم ســورًا منيعًا، وهو حمايته وكفايته، وزَوَّدَهم بسلاح لا يمكن لعدوهم مقاومته بكمال الإيمان بالله، وقوة توكُّلهم عليه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحــل: ٩٩]، ومــع ذلك فأعانهــم على مقاومة هــذا العدو المبين بأمــور كثيرة؛ أنــزل عليهم كُتُبَه المحتويــة على العلــوم النافعة، والمواعــظ المؤثِّرة، والترغيــب في فِعْل الخيرات، والترهيب من فعل الشرور، وأرسل إليهم الرسل مبشرين مَن آمَن بالله وأطاعه بالثواب العاجل، ومنذرين مَن كَفَــر وكذَّب وتولى بالعقوبات المتنوعة، وضَمِن لمن اتبع هُداه الذي أنزل به كتبه وأرســل به رســله أن لا يَضِلَّ في الدنيا، ولا يشــقى في الآخرة، وأنه لا خــوف عليه، ولا حزن يعتريه؛ وأرشدهم في كتبه، وعلى ألسنة رُسُلِه إلى الأمور التي بها يحتمون من هذا العدو المبيــن، وبَيَّنَ لهم ما يدعو إليه هذا الشــيطان، وطُرُقَه التي يصطاد بها الخليقة.

وكما بيَّنها لهم ووضَّحها فقد أرشدهم إلى الطرق التي ينجون بها من شرِّه وفتنته، وأعانهم على ذلك إعانةً قدرية خارجة عــن قدرتهم؛ لأنهم لما بذلوا المجهود، واستعانوا بالمعبود، سهَّل لهم كل طريق يوصل إلى المقصود.

ثم إن الله تعالى أتــمَّ نعمته على آدم، فخلق منه زوجته حواء من جنســه وعلى شــكله؛ ليَسْــكُن إليها، وتتم المقاصد المتعددة من الزواج والالتئام، وتَنْبَثَّ[1] الذرية بذلك، وقال له ولزوجته: إن الشيطان عدو لكما، فاحذراه غاية الحذر، فلا يُخْرِجَنَّكما من الجنة التي أسكنكما الله إياها، وأباحَ لكُما أن تأكلَا من جميع ثمارها، وأن تتمتَّعَا بجميع لذَّاتها، إلا شجرة معينة في هذه الجنة،

---

(١) أي: تنتشر.

فحرَّمها عليهما، فقال: ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩]، وقال الله لآدم في تمتيعه بهذه الجنة: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩]، فمكثا في الجنة ما شاء الله على هذا الوصف الذي ذكره الله، وعَدُوُّهما يراقبهما ويراصدهما، وينظر الفرصة فيهما، فلما رأى سرور آدم بهذه الجنة، ورغبتَه العظيمة في دوامها، جاءه بطريق لطيف في صورة الصديق الناصح، فقال: يا آدم، هل أَدُلُّك على شجرة إذا أكلت منها خُلِّدت في هذه الجنة، ودام لك الملك الذي لا يَبْلَى؟

فلم يَزَلْ يوسوس ويُزَيِّن ويُسَوِّل، ويَعِد ويُمَنِّي، ويُلقي عليهما من النصائح الظاهرة، وهي أكبر الغش حتى غرَّهما، فأكلَا من الشجرة التي نهاهما الله عنها وحرَّمها عليهما، فلما أكلَا منها بدت لهما سوآتهما بعدما كانا مستورَين، وطفقَا يخصفان على أنفسهما من أوراق تلك الجنة، أي: يلزقان على أبدانهما العارية؛ ليكون بدل اللباس، وسُقِط في أيديهما[1]، وظهرت في الحال عقوبة معصيتهما، وناداهما ربهما: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فأوقع الله في قلبَيْهما التوبة التامة، والإنابة الصادقة، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٣٧] وقالا: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] فتاب الله عليهما، ومحا الذنب الذي أصابَا، ولكن الأمر الذي حذَّرهما الله منه ـ وهو الخروج من هذه الجنة إن تناولَا منها ـ تحتَّم ومضى، فخرجَا منها إلى الأرض التي حُشِيَ خيرها بِشَرِّها، وسرورُها بكَدَرِها.

وأخبرهما الله أنه لا بد أن يبتليهما وذريتهما، وأنَّ مَن آمن وعمل صالحًا كانت عاقبته خيرًا من حالته الأولى، ومن كذَّب وتولى فآخر أمره الشقاء

---

(١) أي: نَدِمَا على ما فَرَط منهما.

الأبـدي والعذاب السـرمدي، وحـذَّر الله الذرية منه فقـال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وأبدلهم الله بذلك اللباس الذي نزعه الشـيطان من الأبوَين بلباس يواري السوآت، ويحصل به الجمال الظاهر في الحياة، ولباس أعلى من ذلك، وهو لباس التقوى، الذي هو لباس القلب والروح بالإيمان والإخـلاص والإنابة، والتحلِّي بـكل خُلُق جميل، والتخلي عن كل خُلُق رذيل، ثم بَثَّ الله من آدم وزوجه رجالًا كثيرًا ونسـاءً، ونَشَرَهم في الأرض، واستخلفهم فيها؛ لينظر كيف يعملون.

❋ ❋ ❋

فوائد مستنبَطة من هذه القصة

فمنها: أن هذه القصــة العظيمة ذكرهــا الله في كتابه فــي مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شــك، وهي من أعظم القصــص التي اتَّفقت عليها الرسل، ونزلت بها الكتب السماوية، واعتقدها جميع أتباع الأنبياء من الأوَّلين والآخرين، حتــى نبغت في هذه الأزمان المتأخِّرة فرقــة خبيثة زنادقة أنكروا جميع ما جاءت به الرســل، وأنكروا وجود الباري، ولم يُثْبِتُوا من العلوم إلا العلوم الطبيعية التي وصلت إليها معارفهم القاصرة.

فبناءً على هذا المذهب الذي هو أبعد المذاهب عن الحقيقة شرعًا وعقلًا أنكروا آدم وحواء، وما ذكره الله ورسوله عنهما، وزعموا أن هذا الإنسان كان حيوانًا قردًا، أو شبيهًا بالقرد، حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة، وهؤلاء اغترُّوا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة، خصوصًا ما جاءتهم به الرسل، وصدق عليهم قوله تعالــى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣]، وهؤلاء أمْرُهم ظاهر لجميع المسلمين، ولجميع الـمُثْبِتين وجودَ الباري، يعلمون أنهم أضلُّ الطوائف، ولكن تسرَّب على بعض المسلمين من هذا المذهب الدهري[1] بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول؛ إذ فسَّرت طائفة من العصريين سجود الملائكة لآدم أن معناه تســخير هذا العالم للآدميين، وأن المــواد الأرضية والمعدنيــة ونحوها قد ســخَّرها الله للآدمي، وأن هذا هو معنى سجود الملائكة، ولا يستريب مؤمن بالله واليوم الآخر أن هذا مستمَدٌّ من ذلك الرأي الأَفِن[2]، وأنه تحريف لكتاب

(١) المذهب الدهري: هو مذهب قائل ببقاء الدهر ولا يؤمن بالحياة الأخرى.

(٢) أي: الأحمق.

الله، لا فرق بينه وبين تحريف الباطنية والقرامطة[1]، وأنه إذا أُوِّلَت هذه القصة إلى هذا التأويل توجَّه نظير هذا التحريف لغيرها من قصص القرآن، وانقلب القرآن ـ بعدما كان تبيانًا لكل شـيء وهدى ورحمة ـ رموزًا يمكن كل عدو للإسلام أن يفعل بها هذا الفعل، فيبطل بذلك القرآن، وتعود هدايته إضلالًا، ورحمته نقمة، سبحانك هذا بهتان عظيم.

والمؤمن في هـذا الموضع يكفيه لإبطـال هذا القـول الخبيث أن يتلو ما قَصَّه الله علينا من قصة آدم وسجود الملائكة؛ فيعلم أن هذا منافٍ لما قصد الله ورسوله غاية المنافاة، وإنْ زخرفه أصحابُه، ولَوَوْا له العبارات، ونسبوه إلى بعض مَن يُحْسِن بهم الظن، فالمؤمن لا يترك إيمانه، ولا كتاب ربه لمثل هذه الترويجات المغرَّرة، أو المغرور أصحابها.

ومنها: أنَّ مَنْ مَـنَّ الله عليه بالعلم عليه أن يعتـرف بنعمة الله عليه، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسـل: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾، وأن يتوقى التكلُّـم بما لا يعلم؛ فـإن العلم أعظم الـمِنَن، وشُـكْر هـذه النعمة الاعترافُ لله بهـا، والثناء عليه بتعليمهـا، وتعليم الجُهَّـال، والوقوف على ما علِمه العبد، والسكوت عما لم يعلمه.

ومنها: أن الله جعل هذه القصة لنا معتبَرًا، وأن الحسـد والكِبْر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد، فكِبْر إبليس وحسده لآدم صيَّره إلى ما ترى، وحرص آدم وزوجه حملهما على تناوُل الشجرة، ولولا تدارُك رحمة الله لهما لأَوْدَت بهما إلى الهـلاك، ولكن رحمة الله تُكمل الناقص، وتجبر الكسـير، وتنجي الهالك، وترفع الساقط.

---

(١) الباطنية: هم القائلون بأن لكل ظاهر باطنًا، ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم ألقاب كثيرة: الباطنية، والقرامطة، والمزدكية، وغيرها.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا وقع فـي ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان من قلبٍ خالص، وإنابة صادقة، فما قَصَّ الله علينا صفةَ توبتهمـا إلا لنقتدي بهما، فنفـوز بالسـعادة، وننجو من الهَلَكـة، وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعُّدنا، وعزمه الأكيد على إغوائنا بكل طريق؛ إلا لنستعِدَّ لهذا العدو الذي تظاهَر بهذه العداوة البليغة المتأصِّلة، والله يحب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه؛ من تجنُّب طرقه وخطواته، وفِعْل الأسـباب التي يُخْشَـى منهـا الوقوع في شـباكه، ومِن عمـل الحصون مـن الأوراد الصحيحة، والأذكار القلبية، والتعوذات المتنوعة، ومن السلاح الـمُهْلِك له؛ من صدق الإيمان، وقوة التوكُّل على الله، ومراغمته في أعمال الخير، ومقاومة وساوســه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلـب كل وقت بما يضادُّها، ويُبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة.

ومنها: أن فيها دلالة لمذهب أهل السـنة والجماعـة المثبِتين لله ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسـنى والصفات كلها، لا فرق بين صفات الذات، ولا بين صفات الأفعال.

ومنها: إثبات اليدَين لله كما هو في قصة آدم صريحًا: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، فله يدان حقيقةً، وكما أن ذاته لا تشـبهها الذوات فصفاته تعالى لا تشـبهها الصفات.

ومنها: إثبات الكلام لله تعالى؛ وأنه لم يَزَلْ متكلِّمًا؛ يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم.

ومنهـا: أن العبـد إذا خَفِيَـتْ عليه حكمـة الله في بعـض المخلوقات والمأمورات فالوجب عليه التسليم، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة.

ومنها: اعتناء الله بشـأن الملائكة، وإحسـانه بهـم؛ بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم على ما لم يعلموه.

ومنها: فضيلة العلم من وجوه:

ـ أن الله تعرَّف لملائكته بعلمه وحكمته.

ـ أن الله عرَّفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد.

ـ أن الله أمرهم بالسجود لآدم؛ إكرامًا له لما بَانَ فضل علمه.

ومنها: أن الامتحان للغير إذا عجزوا عما امتُحِنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداء.

ومنها: الاعتبار بحال أبوَيِ الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وأفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العِبَر[1].

---

(١) ومن فوائد قصة آدم عليه السلام:
ـ سؤال مَن لا يعلم غيرَه ممن يعلَم.
ـ عدم انتهار السائل، وإجابته، أو صرفه بلطف.
ـ فضيلة الاعتراف بالعجز والقصور.
ـ جواز العتاب على مَن ادَّعَى دعوى هو غير مُهَيَّأ لها.
ـ التنبيه إلى أن من المعاصي ما يكون كفرًا، أو يقود إلى الكفر.
ـ كرامة آدم عليه السلام وذريته على ربهم تعالى.
ـ شؤم المعصية، وآثارها في تحويل النعمة إلى نقمة.
ـ وجوب التوبة من الذنب، وهي الاستغفار بعد الاعتراف بالذنب وتَرْكه، والندم على فِعْله.
ـ استجابة الله لشرِّ خَلْقه، وهو إبليس، فمن الجائز أن يستجيب الله دعاء الكافر لحكمة يريدها الله تعالى.
ـ ضَعْف المرأة وقلة عزمها؛ فقد أكلتْ قبل آدم، فسهَّلَتْ عليه المعصية.
ـ أن كثيرًا مِن شُبَه أهل الباطل لا يُخاض معهم في حَلِّها، بل جوابهم العقوبة.
ـ معاقبة العاصي بضِدِّ قَصْده.
ـ عِلْم إبليس بالبعث، وذِكْره في ذلك الموطن.
ـ أن طول العمر قد يكون نقمة على صاحبه.
ـ أن الاحتجاج بالقَدَر على فِعْل المعاصي من طرائق إبليس.
ـ أن القوة على فِعْل القبيح والتمدُّح بذلك من فِعْل إبليس.

- أن الفاسق قد يُعطَى من الذكاء ما يصير به من أهل الفراسة.
- أن ظهور العورة مستقبَح شرعًا وعقلًا.
- تكليم الله لآدم وحواء.
- أن الاعتراف بالذنب من أسباب السلامة والنجاة.
- مَضرَّة المعصية ولو تاب فاعِلُها منها.
- عدم الاغترار بالعلم؛ فإن إبليس كان من أعلم الخلق، فكان من أمره ما كان.
- معرفة قَدْرِ الإخلاص عند الله، وحمايته لأهله؛ لقوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.
- أن زخرفة القول قد تُظهِر الباطل في صورة الحق؛ فإن إبليس زخرف قوله بأنواع، منها: تسمية الشجرة بشجرة الخُلْد، وتأكيد قوله بأنه من الناصحين.
- عِلْم الملائكة عليهم السلام بالبعث قبل خَلْق بني آدم.
- أن الملائكة ذوو عقول، وجهُه أن الله تعالى وجَّــه إليهم الخطاب وأجابوا، ولا يمكن أن يوجَّه الخطاب إلا لمن يعقله، ولا يمكن أن يجيبه إلا من يعقل الكلام والجواب عليه.
- قيام الملائكة بعبادة الله عز وجل.
- كراهة الملائكة للإفساد في الأرض.
- أنَّ وَصْفَ الإنسانِ نفسَه بما فيه من الخير لا بأس به.

قصة ابنَيْ آدم

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١]

أي: قُصَّ على النـاس، وأَخْبِرْهُـم بالقضية التي جرت علـى ابنَيْ آدم بالحقّ، تلاوةً يعتبر بها المعتبِرون، صدقًا لا كذبًا، وجِدًّا لا لَعِبًا، والظاهر أن ابنَيْ آدم هما ابنـاه لصُلْبه، كما يـدل عليه ظاهر الآية والسـياق، وهو قول جمهور المفسـرين، أي: اتْلُ عليهم نبأهما في حـال تقريبهما للقربان الذي أدَّاهما إلى الحال المذكورة.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: أخرج كلٌّ منهما شـيئًا من ماله لقصد التقرُّب إلى الله، ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ بأن علم ذلك بخبرٍ من السماء، أو بالعادة السـابقة في الأمم؛ أنَّ علامـة تقبُّل الله لقربان أن تنـزِلَ نارٌ من السماء فتحرقه.

﴿قَالَ﴾ الابنُ الذي لم يُتقبَّل منه للآخر حسدًا وبغيًا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، فقال له الآخر ـ مترفِّقًا له في ذلك ـ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فأيُّ ذنبٍ لي وجناية توجِبُ لك أن تقتلني إلا أني اتَّقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبةٌ عليَّ وعليك، وعلى كلِّ أحد؟! وأصحُّ الأقوال في تفسـير المتقين هنـا؛ أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملُهم خالصًا لوجه الله، متَّبعين فيه لسنَّة رسول الله ﷺ.

ثم قال له مخبرًا أنَّه لا يريد أن يتعرَّض لقتله، لا ابتداءً ولا مدافعةً، فقال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾، وليس ذلك جُبْنًا منِّي ولا عجـزًا، وإنَّما ذلك لأنـي ﴿أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، والخائف لله لا يُقْدِم على الذُّنوب، خصوصًـا الذنوب الكبار، وفي هذا تخويفٌ لمن يريد القتل، وأنَّه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه.

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾، أي: ترجع ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾، أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتـلًا أو تقتلني فإني أُوثِر أن تقتلني، فتبـوء بالوِزْرَيْن، ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، دلَّ هذا على أن القتل من كبائر الذُّنوب، وأنَّه موجِبٌ لدخول النار.

فلم يرتدِع ذلك الجاني ولم ينزجِر، ولم يَزَلْ يعزم نفسه ويجزمها، حتى طوَّعت له قتلَ أخيه الذي يقتضي الشـرع والطبع احترامه، ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ دنياهم وآخرتهم، وأصبح قد سـنَّ هذه السنة لكلِّ قاتل، «ومن سنَّ سُنةً سيئةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِل بها إلى يوم القيامة»[1]، ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تُقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطرٌ من دمها؛ لأنه أوَّلُ من سـنَّ القتل»[2]، فلما قتل أخاه لم يدرِ كيف يصنع به؛

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

لأنه أول ميت مات من بني آدم، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يثيرُها ليدفن غُرابًا آخر ميتًا. ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾، أي: بدنه؛ لأنَّ بدن الميت يكون عورةً، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة[1].

***

(١) فوائد من قصة ابنَيْ آدم:

- تعظيم حرمة الدماء، وقد كانت في الشرائع السالفة عظيمة، وازدادت في هذا الدين حُرْمةً، قال النبيﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفَيْهما فالقاتل والمقتول في النار**»، فقيل له: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بالُ المقتولِ؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قَتْل صاحبه**» متفق عليه.
- كون الرجل القاتل ابنًا لآدم مِن صُلْبه يُوحِي بإشارة هامة، فمع أنَّ آدم عليه السلام نبيٌ إلا أن ابنه اختار طريق الكفر والباطل، وقد يكون للأنبياء أولاد كافرون ـ كابن آدم وابن نوح ـ وهذا لا يَعِيب الآباء، بشرط أن يقوموا بواجبهم مع أولادهم بالدعوة والنصح والتذكير.
- وجوب رَدِّ الأمور المتنازَع عليها إلى الله تعالى، والقبول بحُكْمه، وهذا دليل على صِدْق الإيمان، وبهذا يُحَلُّ الخلاف، ويُؤْتَى بالحكم الصائب.
- بيان ثمرة التقوى، وأنها سبب لقبول الأعمال التي بها نجاة العبد في الدنيا والآخرة؛ فإن المعوَّل على القبول، وشرط القبول تقوى الله عز وجل.
- عِظَم الابتداع في دين الله، وأن من ابتدع بدعة تحمَّلَ وِزْرها، ووِزْرَ مَن عمل بها.
- بيان عقوبات المعاصي، وكيف أنها يُوَلِّد بعضها بعضًا، فتهاوُن ابن آدم في حدود الله وما اقترفه من معاصٍ كان سببًا في عدم قبول قُرْبانه، ثم كان عدم قبول قُرْبانه وقبول قربان أخيه سببًا في حَسَدِ أخيه، والإقدام على سَفْك دمه.
- أن القاتل يَبُوء بإثمَيْنِ: إثمُه هو لأنه قتل، وإثم القتيل فيما لو كان هو القاتل.
- أن الإنسان الذي يَتِيه ويطغى ويتجبَّر يقف أحيانًا عاجزًا عن حَلِّ بعض المشكلات السهلة اليسيرة.
- أن مَن أجاز لنفسه قَتْلَ إنسان بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا.
- مشروعية الدفن وبيان زمنه.
- خيرُ ابنَيْ آدم المقتولُ ظلمًا، وشرهما القاتل ظلمًا.
- أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه مُوجِب لدخول النار.



قصة نوح عليه السلام

مكث البشر بعد آدم قرونًا طويلة وهم أمة واحدة على الهدى، ثم اختلفوا، وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة، فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون، فحزنوا عليهم، فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوِّروا تماثيلهم[1]؛ ليتسلَّوْا بها وليتذكَّروا بها أحوالهم، فكان هذا مبتدأ الشر، فلما هلك الذين صوَّرُوهم لهذا المعنى جاء مَن بعدهم وقد اضمحل العلم، فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء وَدًّا وسُواعًا ويَغُوثَ ويَعُوق ونَسْرًا؛ قد كان أوَّلوكم يدعونهم ويستشفعون بهم، وبهم يُسْقَوْن الغيث وتزول الأمراض، فلم يَزَلْ بهم حتى انهمكوا في عبادتهم على رغم نُصْح الناصحين، ثم بعث الله فيهم نوحًا عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ورغَّبَهم في خير الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٢ ـ ٤] فلما بادأهم بالأمر بالإخلاص لله، وتسفيه آرائهم، وتخويفهم بعقوبات الدنيا والآخرة، قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، وطلبوا منه أن يطرد مَن كان معه من المؤمنين؛

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

استكبارًا منهم، واستنكافًا عن الحق وعلى الخلق، فبيَّن لهم أنه ليس به ضلال، وإنما به تزول الضلالة عن الخلق، وأنه رسول أمين على بينة من ربه وبراهين واضحة، وأن المؤمنين لا يحل طردهم، بل حقهم الإكرام والاحترام، وأنه لا يدعي لهم طورًا يزاحم فيه الرب، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١]، فلم يَزَلْ يدعوهم ليلًا ونهارًا، وسِرًّا وجَهْرًا، فلم يَزِدْهُم دعاؤه إلا فرارًا ونفورًا، وإعراضًا، وتواصيًا منهم على الإقامة على ما هم عليه من عبادة غير الله والتمسك بها، فقال نوح: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٣]، فلما رأى أن التذكير لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه، وأنه كلما جاء قرن كان أخبث مما قبله، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧]، فأجاب الله دعوته، وأمره أن يصنع الفُلْك برعاية منه وحُسْن نظر، وتعليم من الله له هذه الصنعة التي امتنَّ الله بها على العباد، وصار نوح له الفضل والابتداء بهذه الصناعة التي حصل بها من المنافع الدينية والدنيوية في جميع الأوقات ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، وأخبره الله بتحتُّم إغراقهم، وأنه لا يخاطب ربه فيهم فإنهم ظالمون، وجعل يصنع الفلك، وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه، فقال لهم: إن تسخروا منا اليوم فإنا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم. وأوحى الله إليه أنه إذا جاء ذلك الوقت وفار التنُّور[١]، أي: جعلت الأرض كلها تتفجَّر عيونًا من كل جانب حتى المواضع البعيدة عن النار عادةً، وأمره أن يحمل من البهائم من كلٍّ زوجَين اثنين؛ ذكر وأنثى، ليبقى نسلها؛ لأنه يتعذَّر حَمْلُها كلها، والحكمة تقتضي إبقاء هذه الحيوانات التي خلقها الله مسخَّرة لمصالح البشر،

(١) التنُّور: قيل: هو وجه الأرض، وقيل: مكان النار الذي يُخْبَز فيه.

ويحمل معه جميع مَن آمن مِن رجال ونساء، والحال أنه ما آمن معه إلا قليل، وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول بالهلاك، فلما أركب جميع من أُمِر بهم قال لهم: سموا الله كلما جَرَتْ وكلما رَسَتْ؛ لأن الأسباب مهما عظمت فهي من لطف الله، ولا تمام لها إلا بالله.

فحينئذ فجَّر الله الأرض عيونًا، وأمر السماء أن تصب الماء المنهمر الكثير، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض، وساحت على الأماكن المنخفضة، ثم ارتفعت شيئًا فشيئًا على كل المرتفعات حتى خفيت قمم الجبال الشاهقة، والسفينة تجري بهم في موج كالجبال تضرب يمينًا وشمالًا، وفي تلك الحال المزعجة رأى نوحٌ ابنه الكافر الذي كان على دين قومه وقد اعتزل أباه حتى في هذه الحال، فرآه مثل سائر قومه قد فرَّ هاربًا من المياه الجارفة، فناداه نوح مترفقًا فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، فتمادى به الغرور في تلك الحال التي تنقشع فيها الغياهب إلا عن القلوب المحجوبة، فقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٤٣]، لم يخطر ببالهم أن المياه سترتفع فوق رؤوس الجبال، فقال له نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] فلا يعصم جبل ولا حصن ولا غير ذلك إلا من رحم الله، ورحمته في تلك الحال متعيِّنة في ركوب السفينة مع نوح.

﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ﴾ [هود: ٤٣] فكان ذلك الابن من الـمُغْرَقين.

فأغرق الله جميع الكافرين، ونَجَّى نوحًا ومن معه أجمعين، وكان في ذلك آية على أن ما جاء به نوح من التوحيد والرسالة والبعث والدين حق، وأن مَن خالَفَه فإنه مُبْطِل، ودليل على الجزاء في الدنيا لأهل الإيمان بالنجاة والكرامة، ولأهل الكفر بالهلاك والإهانة.

فلما حصل هذا المقصود العظيم أمر الله السماء أن تُقْلِع عن الماء، والأرض أن تبلع ما فيها، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود: ٤٤] أي: نقص شيئًا فشيئًا،

واستوت السفينة بعد غَيْض[1] الماء على الجُودِيّ، وهو جبل شامخ معروف في نواحي الموصل.

وهذا دليل على أن جميع الجبال قد غمرتها المياه وجاوزها الطوفان، وحزن نوح على ابنه، فقال مناديًا ربه مترققًا متضرعًا يا رب: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥] أن أحمل معي أهلي وأنت أرحم الراحمين، فقال له ربه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] أي: الموعود بنجاتهم؛ لأن الله قيّد ذلك بقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦] أي: هذا الدعاء لابنك الذي على دين قومه بالنجاة.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]، وهذا عتاب منه لنوح، وتعليم له، وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي إنما حمله عليه الشفقة الأبوية، وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحامل له العلم والإخلاص في طلب رضا الله تعالى، فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۞ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٧ ـ ٤٨] فهبط، وبارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين؛ فكان أولاده يافث ملأ المشرق من الذرية، وحام ملأ المغرب من النسل، وسام ملأ ما بين ذلك، ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، ومكث بعد هلاكهم ما شاء الله، وكان من أولي العزم من المرسلين، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة، وهو أول الرسل إلى الناس، وهو الأب الثاني للبشر، صلى الله عليه وسلم تسليمًا.

* * *

---

(١) أي: نَقْصه وذهابه.

يستفاد من هذه القصة أمور

منها: أن جميع الرســل من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ متفقون على الدعوة إلــى التوحيد الخالــص، والنهي عن الشــرك، فنوحٌ وغيــره أول ما يقولون لقومهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ويكرّرون هذا الأصل بطرق كثيرة.

ومنها: آداب الدعــوة وتمامها، فإن نوحًــا دعا قومه ليلًا ونهارًا، وســرًّا وجهارًا، بكل وقت، وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة، وأنه رغَّبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب، وبالتمتيع بالأموال والبنين، وإدرار الأرزاق إذا آمنوا، وبالثواب الآجــل؛ وحذّرهم من ضــد ذلك، وصبر علــى هذا صبرًا عظيمًا، كغيره من الرســل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشــفقة، وبكل لفظ جاذب للقلوب، مُحَصِّل للمطلوب، وأقام الآيات، وبيَّن البراهين.

ومنها: أن الشُّــبَه التي قدح فيها أعداء الرسل برســالتهم من الأدلة على إبطال قول المكذبين، فإن الأقوال التي قالوها ولم يكن عندهم غيرها ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل، فقــول قوم نوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] تأمَّل جُمَلَها تجدها تمويهات دالة على أنهم مبطلون مكابرون للحقيقة.

فقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: ٢٧] فهل في كون الحق جاء على يد بشر شيء من الشبهة تدل على أنه ليس بحق؟

ومضمون هذا الكلام أن كل قول قاله البشر من أي مصدر يكون باطلًا، وهذا قَدْحٌ منهم في جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر، ومعلوم أن هذا

يُبطِل العلوم كلها، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدها بعضهم من بعض وهي متفاوتة؟ فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقَّاه الناس عن الرسل الذين علومهم عن وحي إلهي.

وكذلك قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] أي: نحن وأنتم بشر، وقد أجابت الرسل كلهم عن هذه المقالة فقالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، فمنَّ الله على الرسل، وخصَّهم بالوحي والرسالة، مع أن إنكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القَدْح في نعمة الله، فإن رحمة الله وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر؛ ليتمكن العباد من الأخذ عنهم، وتتيسَّر عليهم هذه النعمة، ويُسهِّل الله لهم طرقها، فهؤلاء المكذِّبون كفروا بأصل النعمة، وبالطريق المستقيم النافع الذي جاءتهم به.

وكذلك قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]، من المعلوم لكل أحد عاقل أن الحق يُعْرَف أنه حق بنفسه لا بمن تَبِعَه، وأن هذا القول الذي قالوه صدر عن كِبْر وتِيهٍ، والكِبْر أكبر مانع للعبد من معرفة الحق ومِن اتِّباعه.

وأيضًا قولهم: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]، إن أرادوا الفقر فالفقر ليس من العيوب، وإن أرادوا أراذلنا في الأخلاق فهذا كذب معلوم بالبديهة، وإنما الأراذل الذين قالوا هذه المقالة، فهل الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، والانقياد للحق، والسلامة من كل خصلة ذميمة، هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل؟ أم الرذيلة بضده من تَرْك أَفْرَض الفروض؛ توحيد الله، وشكره وحده، وامتلاء القلب من التكبُّر على الحق وعلى الخلق؟ هذا واللهِ أرذلُ الرذائل، ولكن القوم مباهتون، فما نقموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.

وقولهم: ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [هود: ٢٧] أي: مبادرةً منهم إلى الإيمان بك يا نوح، لم يشـاوروا ولم يتأنَّوْا ويتروَّوْا، لو فُرِض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق، فإن الحـق عليه من البراهين والنـور والجلالة والبهاء والصـدق والطمأنينة ما لا يحتاج إلى مشـاورة أحد باتِّباعه، وإنما التي تحتاج إلى مشـاورة هي الأمور الخفية، التي لا تُعْلَم حقيقتها ولا منفعتها، أما الإيمان الذي هو أجلى من الشـمس في نورها، وأحلى من كل شـيء، فما يتأخَّر عنه إلا كل متكبِّر جبَّار أمثال هؤلاء الطغاة البُغاة.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود: ٢٧]، هل في هذا الكلام شيء من الإنصاف بوجه؛ لأنهم يُخبرون عن أنفسهم، وكلامهم يحتمل أنه الذي في قلوبهم، ويحتمل أنهم يقولون ما لا يعتقدون، وعلى كلا الأمرَين فالحق يجب قبوله، سواء أقاله الفاضل أو المفضول، الحق أعلى من كل شيء.

وكذلك قولهم: ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧]، معلـوم أن الظن أَكْذَبُ الحديث، ثم لو قالوا: بل نَعْلَمُكم كاذبين، فهـذه كل مُبْطِل يقدر أن يقولها، ولكن بأي شيء استدللتم أنهم كاذبون؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى، فكيف وقد قابَلها الرسـل بالأدلة والبراهين المتنوعة التي لا تُبقِي ريبًا لأحد في بطلانها.

ومنها: أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم إخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهـم لله القاصرة، وفـي عبوديتهم المتعديـة لنفع الخلـق؛ كالدعوة، والتعليم، وتوابع ذلك، ولذلك يُبْدُون ذلك ويُعيدونه على أسماع قومهم، كل منهـم يقـول: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هـود: ٢٩]، ولهذا كان من أجَلِّ الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم مـن فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

ومنها: أن القدح في نيات المؤمنين وفيما منَّ الله عليهم به من الفضائل، والتألِّي على الله أنه لا يؤتيهم من فضله من مواريث أعداء الرسل، فلهذا قال نوح لقومه حين تألَّوْا على الله، وتوسَّلوا في ذَمِّ المؤمنين به بذلك، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١].

ومنها: أنه ينبغي الاستعانة بالله، وأن يُذْكَر اسمه عند الركوب والنزول، وفي جميع التقلُّبات والحركات، وحَمْد الله، والإكثار من ذِكْره عند النِّعَم، لا سيما النجاة من الكُرُبات والمشقَّات، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]، وقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وأنه ينبغي أيضًا الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة؛ كالمنازل في إقامات السفر وغيره، والمنازل المستقرة كالمساكن والدُّور؛ لقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وفي ذلك كله من استصحاب ذِكْر الله، ومن القوة على الحركات والسكنات، ومن قوة الثقة بالله، ومن نزول بركة الله التي هي خيرُ ما صَحِبَت العبدَ في أحواله كلها ما لا غنى للعبد عنه طرفة عين.

ومنها: أن تقوى الله والقيام بواجبات الإيمان من جملة الأسباب التي تُنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان ـ وإن كان لذلك أيضًا أسباب أُخَر ـ، وهي السبب الوحيد الذي ليس هناك سبب سواه في نَيْل خير الآخرة، والسلامة من عقابها.

ومنها: أن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هي للمؤمنين، وهم الرُّسُل وأتباعهم، وأما العقوبات الدنيوية العامة فإنها تختصُّ بالمجرمين،

ويتبعهم توابعهــم من ذريةٍ وحيوان، وإن لم يكن لهــا ذنوب؛ لأن الوقائع التي أوقع الله بأصناف المكذِّبين شملت الأطفال والبهائم، وأما ما يُذْكَر في بعض الإســرائيليات أن قوم نوح أو غيرهــم لمــا أراد الله إهلاكهم أعقم الأرحام حتى لا يتبعهم في العقوبة أطفالهم فهذا ليس له أصل، وهو منافٍ للأمر المعلوم، وذلك مصداق لقولــه تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥][1].

---

(١) ومن فوائد قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ:
- إن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ - واسمه عبد الغفار- أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن أشركوا بربهم وعبدوا غيره من الأوثان والآلهة الباطلة.
- أتباع الرسل هم الفقراء والضعفاء، وخَصُومُهم الأغنياء والأشراف والكُبَراء.
- احتقار أهل الكِبْر لمن دونهم، وفي الحديث: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناسِ» رواه مسلم.
- كُرْهُ الشيء يجعل صاحبه لا يراه، ولا يسمعه، ولا يفهم ما يقال له فيه.
- كراهية أخْذ الأجرة على الدعوة والتربية والتعليم الديني.
- وجوب احترام الضعفاء وإكرامهم، وحُرمة احتقارهم وازدرائهم.
- مشروعية الجدال لإحقاق الحق وإبطال الباطل بشرط الأسلوب الحسن.
- إرادة الله تعالى قبل كل إرادة، وما شاءه الله يكون، وما لم يَشَأْه لم يكن.
- لا ينفع نصح الناصحين ما لم يُرِد الله الخير للمنصوح له.
- كراهية الحزن والأسى والأسف على ما يقوم به أهل الباطل والشر والفساد.
- بيان تاريخ صُنْع السفن، وأنها بتعليم الله لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- بيان سُنَّة البشر في الاستهزاء والسخرية بأهل الحق ودعاته؛ لظُلْمةِ نفوسهم بالكفر والمعاصي.
- مشروعية التسمية عند الركوب في سفينة أو غيرها.
- عقوق الوالدين كثيرًا ما يسبِّب الهلاك في الدنيا، أما عذاب الآخرة فهو لازِمٌ له.
- رابطة الإيمان والتقوى أعظم من رابطة النسب.
- حرمة العمل بغير علم، فلا يحل القدوم على أمر حتى يُعلَم حُكْم الله فيه.
- اســتعمال الحكمة في الدعوة؛ فإنَّ نوحًــا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى أن قومه يحبون الدنيا أرشــدهم إلى الاستغفار؛ ليحصل لهم المال والولد.
- مشروعية الشكوى إلى الله تعالى، ولكن بدون صخب ولا نصب.
- مشروعية الدعاء على الظالمين عند اليأس من هدايتهم.



قصة هود عليه السلام

بعث الله هودًا عليه السلام إلى قومه عاد الأولى المقيمين بالأحقاف[1] ـ من رمال حضرموت ـ لما كثر شَرُّهم، وتجبَّروا على عباد الله، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، مع شركهم بالله وتكذيبهم لرسل الله، فأرسله الله إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن الشرك والتجبُّر على العباد، ويدعوهم بكل وسيلة، ويُذَكِّرهم ما أنعم الله عليهم به من خير الدنيا، والبَسْطة في الرزق والقوة، فرَدُّوا دعوته، وتكبَّروا عن إجابته، وقالوا: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وهم كاذبون في هذا الزعم، فإنه ما من نبي إلا أعطاه الله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر، ولو لم يكن من آيات الرسل إلا أن نفس الدِّين الذي جاءوا به أكبر دليل أنه من عند الله؛ لإحكامه، وانتظامه للمصالح في كل زمان بحسبه، وصِدْق أخباره، وأمره بكل خير، ونهيه عن كل شر، وأن كل رسول يُصَدِّق مَن قبله ويشهد له، ويُصَدِّقه مَن بعده ويشهد له.

ومن آيات هود الخاصة أنه متفرِّد وحده في دعوته، وتسفيه أحلامهم، وتضليلهم، والقَدْح في آلهتهم، وهم أهل البطش والقوة والجبروت، وقد

(١) الأحقاف: جمع حِقْف، وهو الرمل المائل، والمراد هنا: وادٍ بين عُمان وأرض مهرة [عن ابن عباس]. وقيل: رمل فيما بين عُمان إلى حضرموت.

خوَّفوه بآلهتهم إن لم يَنْتَهِ أن تمسَّه بجنون أو سوء، فتحدَّاهم علنًا، وقال لهم جهارًا: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦]، فلم يَصِلُوا إليه بسوء.

فأي آية أعظم من هذا التحدي لهؤلاء الحريصين على إبطال دعوته بكل طريق؟ فلما انتهى طغيانهم تولَّى عنهم وحذَّرهم نزول العذاب، فجاءهم العذاب معترضًا في الأفق، وكان الوقت وقت شدة عظيمة، وحاجة شديدة إلى المطر، فلما استبشروا وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤] قال الله: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، بقولكم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۞ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥] تَمُرُّ عليه، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧] ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فبعدما كانت الدنيا لهم ضاحكة، والعز بليغًا، ومطالب الحياة متوفِّرة، وقد خضع لهم مَن حولهم من الأقطار والقبائل، أرسل الله إليهم ريحًا صرصرًا[1] في أيام نَحِسات؛ لنذيقهم عذاب الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون، ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٦٠]، ونجَّى الله هودًا ومن معه من المؤمنين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ [الشعراء: ١٣٩] على كمال قدرة الله وإكرامه الرسل وأتباعهم، ونصرهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وآية على إبطال الشرك، وأن عواقبه شر العواقب وأشنعها، وآية على البعث والنشور.

* * *

(١) أي: باردة ذات صوت.

فوائد من هذه القصة

فيها: ما تقدَّم في قصة نوح من الفوائد المشتركة بين الرسل.

ومنها: أن الله بحكمته يَقُصُّ علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها؛ لأن القرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير، والله تعالى صرَّف فيه التذكيرات تصريفًا نافعًا.

ولا ريب أن الأقطار النائية عنا في مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله إليهم رسلًا، ولهم معهم نظير ما للمذكورين من إجابة وردٍّ وإكرام وعقوبة، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولًا، ولكن نفعنا بتذكيرنا بما حولنا، وما نتناقله جيلًا بعد جيل، بل نشاهد آثارهم، ونمر بديارهم كل وقت، ونفهم لغاتهم، وطبائعهم أقرب إلى طبائعنا، لا ريب أنَّ نفع هذا عظيم، وأنه أولى من تذكيرنا بأُمَم لم نسمع لهم بذِكْر ولا خبر، ولا نعرف لغاتهم، ولا تتصل إلينا أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به، فيؤخذ من هذا أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم، وأنسب لأحوالهم، وأدخل في مداركهم، وأنفع لهم من غيره؛ أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقًّا، لكن الحق يتفاوت، والمذكِّر والمعلِّم إذا سلك هذا الطريق، واجتهد في إيصال العلم والخبر إلى الناس بالوسائل التي يفهمونها، ولا ينفرون منها، أو تكون أقرب لإقامة الحجة عليهم؛ نَفَعَ وانتفع، وأشار الباري إلى هذا في آخر قصة عاد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، أي: نوَّعناها بكل فن ونوع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، أي: ليكون أقرب لحصول الفائدة.

ومنها: أن اتخاذ المباني الفخمة للفخر والخُيَلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الأمم الطاغية، كما قال الله في

قصة عـاد وإنكار هود عليهم، قـال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩].

وبالجملة فالبنايات للقصور والحصون والدُّور وغيرها من الأبنية:

إما **أن تُتَّخَذ مساكن للحاجة إليها**، والحاجات تتنوَّع وتختلف، فهذا النوع من الأمور المباحة، وقد يُتوسَّل به بالنية الصالحة إلى الخير.

وإما **أن تكون البنايات حصونًا واقية لشـرور الأعداء**، وثغورًا تُحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين، ويَقِيهم الشر، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل الله، وهو داخِلٌ في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء.

وإما **أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله**، وتبذير الأموال التي يتعيَّن صَرْفُها في طرق نافعة، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرهم.

ومنها: أن العقول والأذهان والذكاء وما يَتْبَع ذلك من القوة المادية، وما ترتَّب عليها من النتائج والآثار وإن عظمت وبلغت مبلغًا هائلًا، فإنها لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الإيمان بالله ورسله.

وأما الجاحد لآيات الله المكذِّب لرسـل الله، فإنه وإن استُدْرج في الحياة وأُمْهِل فإن عاقبته وخيمة، وسمعه وبصره وعقله لا يُغني عنه شيئًا إذا جاء أمر الله، كما قال الله عن عـاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وفي الآية الأخـرى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١][1].

---

(١) **ومن فوائد قصة هود عليه السلام:**

ـ مشروعية دفع الاتهام، وتبرئة الإنسان نفسَه مما يُتَّهَم به من الباطل.

- من وظائف الرسل عليهم السلام البلاغ لما أُمِروا بإبلاغه.
- فضيلة النصح وخُلُق الأمانة.
- استحسان التذكير بالنِّعَم؛ فإن ذلك مُوجِب للشكر والطاعة.
- احتجاج المشركين على صحّة باطلهم بفعل آبائهم وأجدادهم يكاد يكون سُنَّةً مُطَّردةً في الأمم والشعوب، وهو التقليد المذموم.
- مِن حُمْق الكافرين استعجالهم بالعذاب، ومطالبتهم به.
- وجوب الإخلاص في الدعوة إلى الله تعالى.
- فضل الاستغفار، ووجوب التوبة من الذنوب.
- تقديم الاستغفار على التوبة مُشعِرٌ بأن العبد إذا لم يعترِف أولًا بذنبه لا يمكنه أن يتوب منه.



قصة صالح عليه السلام

كانت ثمود ـ وهي عاد الثانية ـ يسكنون في الحِجْر[1] وما حولها، وكانوا أهل مواشٍ كثيــرة، وأهل حَــرْثٍ وزروع، وتواصلت عليهــم النِّعَم، فكانوا يتخذون من السهول قصورًا مزخرفة، ومن الجبال بيوتًا منحوتة مُتْقَنَة، فبَطَرُوا النِّعَم وكفروها، وعبدوا غير الله، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحًا من قبيلتهم، يعرفون نسبه وحَسَبه، وفضله وكماله، وصدقه وأمانته، فدعاهم إلى الله، وإلى إخلاص الدين له، وتَرْك ما كانوا يعبدون من دونه، وذَكَّرَهم بنعم الله، وبأيامه بالأمم المجاورة لهم، فلم يتبعه إلا القليل.

وحين ذَكَّرَهم وأقام الأدلة والبراهين على وجوب توحيد الله اشــمأزوا ونفروا واستكبروا، وقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، أي: قد كنا تخايَلنــا فيك أن تفْضُلَنا جميعًا؛ لكمالــك وكمال أخلاقك، وآدابك الطيبة.

وهذا اعتراف منهم له بهذه الأمور قبل أن يقول ما قال، فما نَزَّلَه عن هذه المرتبة عندهم إلا أنــه دعاهم إلى عبــادة الخالق، مِن عبــادة العبيد، وإلى الســعادة الأبدية، وما ذنبه إلا أنه خالَف آباءهم الضالِّيــن، وهم كانوا أضلّ

(١) الحِجْر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام.

منهم، ثم أقام لهم بينة عظيمــة وبرهانًا ونعمة على جميع القبيلة بأَسْــرها، وقال: هذه ناقة الله ـ التي لا يشبهها شيء من النوق في ذاتها وشرفها ومنافعها لكم ـ آيةً على صدقي، وعلى سعة رحمة ربكم، فذَرُوها تأكل في أرض الله، على الله رِزْقُها، ولكم نفعها، تَرِد الماء يومًا فترد القبيلة بأَسْرها على ضرعها، كلٌّ يصدر عن ضرعها قد ملأ آنيتــه، ثم تَرِدُون أنتم في اليوم الثاني، فمكثت على هذا ما شاء الله.

وكان في مدينتهم تسعةُ رهطٍ من شــياطينهم قد قاوَموا ما جاء به صالح أشد المقاومة، يَصُدُّون عن سبيل الله، ويُفْسِــدون في الأرض ولا يُصْلِحون، وكان صالح قد حذَّرهم مــن عَقْر الناقة؛ لما رأى مــن كِبْرهم ورَدِّهم الحق، فأول ما فعل أولئك الملأ الأشــرار أن عقدوا مجلسًــا عامًّا ليتفقوا على عقر الناقة، فاتفقوا، فانتدب لذلك أشقى القبيلة، ولهذا قال الله تعالى:

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٢]، أي: بعــد اتفاقهم ونَدْبهــم إياه بعثوه لذلك، فانبعث واســتعدَّ، وتكفَّل لهــم بعقرها، وهم جميعهــم راضون، بل آمِرون، فعقرها، فكان هذا العقر مُؤْذِنًا بهلاك القبيلة بأسرها.

فلما شــعر صالح بالأمر، ورأى منظرًا فظيعًا، علــم أن العذاب قد تحتَّم لا محالة؛ لأن الجريمة قد تفاقمت، ولم يَبْقَ حالة يُرْجَى فيها لهم تقويم، فقال لهم صالــح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾، ونَبَّه بهذا الكلام دانِيَهم وقاصيهم، ففي أثناء هذه المدة اتَّفق هؤلاء الرهط التسعة على أمرٍ أغلظ مــن عَقْر الناقة؛ على قَتْل نبيهم صالــح، وتعاهَدوا وتعاقدوا، وحلفوا الأيمان المغلَّظة، وكتموا أمرهم خشيةً من منع أهل بيته؛ لأنه في بيت عِزٍّ وشرف، وقالوا: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ﴾، ثم إذا ظُنَّ بنا أننا قتلناه حلفنا لأوليائه أننا ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾، فدَبَّرُوا هــذا المكر العظيم، ولكنهم يمكرون ويمكر الله لنبيه صالح، فحين كمِنوا في أصل جبل لينظروا

الفرصة في صالح بدأ الله بعقوبتهم، فكانوا سلفًا مقدَّمًا لقومهم إلى نار جهنم، فأرســل الله صخرة من أعلى الجبل فشدختهم[1]، وقُتِلوا أشـــنع قتلة، ثم لما تَمَّت ثلاثة هذه الأيــام جاءتهم صيحة من فوقهم، ورَجْفة من أســفل منهم، فأصبحوا خامديــن، ونجَّى الله صالحًا ومن معه مــن المؤمنين، وتولى عنهم وقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

❋ ❋ ❋

(١) الشَّدْخ: التهشيم والتحطيم.

فوائد تتعلق بهذه القصة

منها: أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة، وأن مَن كذَّب واحدًا منهم فقد كذَّب الجميع؛ لأنه يكـذِّب الحق الذي جاء به كل واحد منهـم، ولهذا يقول في كل قصة: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ومنها: أن عقوبات الله للأمم الطاغية عند تَناهي طغيانها وتفاقُم جرائمها، فكُفرهم وتكذيبهم مُوجِب للهلاك، ولكن تحتَّم الإهلاك عند تَناهِي إجرامهم؛ لأن الله تعالى بالمرصاد، فيُمهِل ثم يُمْهِل، حتى إذا أخذهم أخذهم أخْذ عزيز مقتدر.

ومنها: أن العقائد الباطلة الراسـخة المأخوذة عمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق، والحال أنها ليست في العير ولا في النفير، ولا لها مقام في الحجج الصحيحة الدالَّة على الحقائق، فلهذا أكبر ما رَدَّ به قومُ صالح لدعوته أن قالوا: أتنهانا أن نعبـد ما يعبد آباؤنا؟ وقالت جميع الأمم المكذِّبة رادِّين لدعوة الرسـل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وهذا سـبيل لا يزال معمورًا بالسـالكين من أهل الباطل، نَهَجَتْه[1] الشياطين ليصدوا به العباد عن سبيل الله، ومن المعلوم أن طريق الرسل هي طريق الهدى والحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال[2]؟!

---

(١) أي: أَبَانَتْه وأَوْضَحَتْه.

(٢) **ومن فوائد قصة صالح عليه السلام:**

- مشروعية الرثاء لمن مات أو أصيب بمصاب عظيم.
- علامة قُرْب ساعة الهلاك إذا أصبح الناس يكرهون النصح ولا يحبون الناصحين.
- بيان سُنَّةٍ في الناس، وهي أن المرء الصالح يُرجَى في أهله، حتى إذا دعاهم إلى الحق، وإلى تَرْك الباطل كرهوه، وقد يصارحونه بما صارَحَ به قومُ صالح نبيَّهم؛ إذ قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾. =

= - حرمة الاستجابة لأهل الباطل بأي نوع من الاستجابة؛ إذ الاستجابة لا تزيد العبدَ إلا خَسارًا.
- إعطاء الله تعالى الآيات للمطالِبين بها لا يستلزم الإيمانَ بها.
- التحذير من طاعة المسرِفين في الذنوب والمعاصي؛ لوخامة عاقبة طاعتهم.
- تقرير أن الفساد في الأرض يكون بارتكاب المعاصي فيها.
- الندم من التوبة، ولكن لا ينفع ندمٌ ولا توبةٌ عند معاينة العذاب أو أماراته.



قصة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام

قد ذكر الله في كتابه سيرةً وأخبارًا كثيرةً من سيرة إبراهيم، فيها لنا الأسوة بالأنبياء عمومًا، وبه على وجه الخصوص؛ فإن الله أمر نبينا ـ وأمرنا ـ باتباع مِلَّتِه، وهي ما كان عليه من عقائد وأخلاق وأعمال قاصرة ومتعدية، فقد آتاه الله رُشْدَه، وعلَّمه الحكمة منذ كان صغيرًا، وأراه ملكوت السماوات والأرض، ولهذا كان أعظم الناس يقينًا وعلمًا وقوةً في دين الله ورحمته بالعباد، وكان قد بعثه الله إلى قوم مشركين يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وهم فلاسفة الصابئة[1] الذين هم من أخبث الطوائف، وأعظمهم ضررًا على الخَلْق، فدعاهم بطرق شتى، فأول ذلك دعاهم بطريقة لا يمكن لصاحب عقل أن ينفر منها، ولما كانوا يعبدون السبع السيَّارات التي منها الشمس والقمر، وقد بنوا لها البيوت، وسَمَّوْها الهياكل، قال لهم ناظرًا ومناظرًا: هَلُمَّ يا قوم ننظر هل يستحق منها شيء الإلهية والربوبية؟ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦]، والمناظرة تُخالِف غيرها في أمور كثيرة:

منها: أن الـمُناظِر يقول الشيء الذي لا يعتقده ليبني عليه حُجَّته، وليقيم الحجة على خصمه، كما قال في تكسيره الأصنام لما قالوا له:

(١) الصابئة: قيل: هم عبدَةُ الْمَلاَئِكَة، وَقيل: عَبَدَة الكَوَاكب، وهم يزعمون كذبًا أنهم على دين نوح.

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فأشار إلى الصنم الذي لم يكسره فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة، وقد حصلت.

فهنا يسهل علينا فَهْم معنى قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي: إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والإلهية مثقال ذرة، ولكن أراد أن يُلزمهم بالحجة: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي: غاب، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] فإنَّ من كان له حال وجود وعدم، أو حال حضور وغَيْبة، قد علم كل عاقل أنه ليس بكامل، فلا يكون إلهًا، ثم انتقل إلى القمر، فلما رآه بازغًا: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، يُرِيهم صلوات الله وسلامه عليه، وقد صَوَّر نفسه بصورة الموافق لهم، لكن ليس على وجه التقليد، بل يقصد إقامة البرهان على إلهية النجوم والقمر، فالآن وقد أَفَلَتْ، وتبيَّن بالبرهان العقلي مع السمعي بطلان إلهيتها، فأنا إلى الآن لم يستقرَّ لي قرار على رب وإله عظيم، فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا أكبر من النجوم ومن القمر، فإن جرى عليها ما جرى عليهما كانت مثلهما، فلما أفلت وقد تقرَّر عند الجميع فيما سبق أن عبادة من يَأْفُل من أبطل الباطل، فحينئذ ألزمهم بهذا الإلزام، ووَجَّهَ عليهم الحجة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ [الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩] أي: ظاهري وباطني، ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، هذا برهان عقلي واضح أن الخالق للعالم العلوي والسفلي هو الذي يتعيَّن أن يُقصَد بالتوحيد والإخلاص، وأن هذه الأفلاك والكواكب وغيرها مخلوقات مُدْبِرات، ليس لها من الأوصاف ما تستحق العبادة لأجلها؛ فجعلوا يُخوِّفونه آلهتَهم أن تَمَسَّهُ بسوء، وهذا دليل على أن المشركين عندهم من الخيالات

الفاسدة والآراء الرديئة ما يعتقدون أن آلهتهم تنفع مَن عَبَدَها وتَضُرُّ مَن تركها أو قدح فيها، فقال لهم مبيِّنًا لهم أنه ليس عليه شيء من الخوف، وإنما الخوف الحقيقي عليكم، فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] أجاب الله هذا الاستفهام جوابًا يَعُمُّ هذه القصة وغيرها في كل وقت، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي: بشِرْك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فرفع الله خليله إبراهيم بالعلم وإقامة الحجة، وعجزوا عن نصر باطلهم؛ ولكنهم صَمَّمُوا على الإقامة على ما هم عليه، ولم ينفع فيهم الوعظ والتذكير وإقامة الحجج، فلم يَزَل يدعوهم إلى الله، وينهاهم عما كانوا يعبدون نهيًا عامًّا وخاصًّا، وأخصُّ مَن دعاه أبوه آزر؛ فإنه دعاه بعدة طرق نافعة، ولكن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]، فمن جملة مقالاته لأبيه قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٣]، انظر إلى حُسْن هذا الخطاب الجاذب للقلوب؛ لم يقل لأبيه: إنك جاهل؛ لئلا ينفر من الكلام الخشن، بل قال له هذا القول: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٣ ـ ٤٥]، فانتقل بدعوته من أسلوب لآخر لعله ينجع فيه أو يُفِيد، ولكنه مع ذلك قال له أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، هذا وإبراهيم لم يغضب، ولم يقابل أباه ببعض ما قال، بل قابَل هذه الإساءة الكبرى بالإحسان، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، أي: لا أتكلَّم معك إلا بكلام طيب لا غلظة فيه ولا خشونة، ومع ذلك فلستُ بآيِسٍ من هدايتك:

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، أي: بَرًّا رحيمًا، قد عوَّدني لُطفه، وأجراني على عوائده الجميلة، ولم يَزَل لدعائي مجيبًا.

فلم يَزَل إبراهيم مع قومه في دعوة وجدال، وقد أفحمهم، وكسـر جميع حُجَجِهم وشُبَهِهم، فأراد عليه السلام أن يقاومهم بأعظم الحُجَج، وأن يصمد لبطشهم وجبروتهم، وقدرتهم وقوتهم، غير هائب ولا وَجِل[1]، فلما خرجوا ذات يوم لعيد من أعيادهم وخرج معهـم، ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ لأنه خشي إن تَخَلَّف لغير هذه الوسـيلة لم يدرك مطلوبه؛ لأنه تظاهَر بعداوتها، والنهي الأكيد عنها، وجهاد أهلها، فلما برزوا جميعًا إلى الصحراء كرَّ راجعًا إلى بيت أصنامهم، فجعلها جُذاذًا[2] كلها إلا صنمًا كبيرًا أبقى عليه؛ ليُلْزِمهم بالحجة، فلما رجعوا من عيدهم بادروا إلى أصنامهم صبابةً ومحبةً، فرأوا فيها أفظع منظر رآه أهلها، فقالـوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبيـاء: ٥٩ ـ ٦٠]، أي: يعيبهـا ويذكرهـا بأوصاف النقص والسوء: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] فلما تحقَّقوا أنه الذي كسرها: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبيـاء: ٦١]، أي: بحضرة الخَلْق العظيم، ووبِّخوه أشـد التوبيخ، ثم نكلوا به، وهذا الـذي أراد إبراهيم؛ ليظهر الحق بمرأى الخلق ومسـمعهم، فلما جُمِع الناس وحضـروا، وأحضروا إبراهيم، قالـوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٣] مشيرًا إلى الصنم الذي سَـلِم من تكسيره، وهم في هذه بين أمرين: إما أن يعترفوا بالحق، وأن هذا لا يدخل عقل أحد أن جمادًا معروفًا أنه مصنوع من مواد معروفة لا يمكـن أن يفعل هذا الفعل، وإما أن يقولوا: نعم هو الذي فعلها وأنت سـالم ناجٍ مِن تَبِعَتها، وقد علم أنهم لا يقولون

---

(١) الوَجَل: استشعار الخوف.

(٢) أي: فُتَاتًا.

الاحتمال الأخير، قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، وهذا تعليق بالأمر الذي يعترفون أنه محال، فحينئذ ظهر الحق وبان، واعترفوا هم بالحق، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، أي: ما كان اعترافهم ببطلان إلهيتها إلا وقتًا قصيرًا حيث ظهرت الحجة مباشرة التي لا يمكن مكابرتها، ولكن ما أسرع ما عادت عليهم عقائدهم الباطلة التي رسخت في قلوبهم، وصارت صفات ملازمة، إن وُجِد ما ينافيها فإنه عارِض يعرض ثم يزول: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، فحينئذ وبَّخهم بعد إقامة الحجة التي اعترف بها الخصوم على رؤوس الأشهاد، فقال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧]، فلو كان لكم عقول صحيحة لم تُقِيموا على عبادة ما لا ينفع ولا يضر، ولا يدفع عن نفسه مَن يريده بسوء، فلما أعيتهم المقاومة بالبراهين والحُجَج عَدَلُوا إلى استعمال قوتهم وبطشهم وجبروتهم في عقوبة إبراهيم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، فأوقدوا نارًا عظيمة جدًّا فألقوه بها، فقال وهو في تلك الحال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال الله للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فلم تضره بشيء، ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ لينصروا آلهتهم، ويُقِيموا لها في قلوبهم وقلوب أتباعهم الخضوع والتعظيم، فكان مكرهم وبالًا عليهم، وكان انتصارهم لآلهتهم نصرًا عظيمًا عند الحاضرين والغائبين والموجودين والحادثين عليهم.

وانتصر الخليل على الخواص والعوام والرؤساء والمرؤوسين، حتى إن ملكهم حاجَّ إبراهيم في رَبِّه بغيًا وطغيانًا، ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فألزمه الخليل بطَرْد

دليله بالتصرف المطلق، فقــال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم خرج من بين أظهرهم مهاجـرًا وزوجتَه وابنَ أخيــه لوطًا إلى الديار الشــامية، وفي أثناء مدة إقامته بالشــام ذهب إلى مصر بزوجته سارة، وكانت أحســن امرأة على الإطلاق، فلما رآهــا ملك مصر ـ وكان جبــارًا عنيدًا ـ لم يملك نفســه حتى أرادها على نفســها، فدعت الله عليه، فكاد أن يموت، ثم أُطْلِق، ثم عــاد ثانية، وكلما أرادها دعــت عليه فصُرِع، ثم دعــت له فأُطْلِق، فكفاهما الله شَــرَّه[١]، ووهب لها هاجر جارية قبطية، وكانت ســارة عاقرًا منذ كانت شابة، فوهبت هذه الجارية لإبراهيم ليتسرَّرها[٢] لعل الله يرزقه منها ولدًا، فأتت هاجر بإسماعيل على كِبَرِ إبراهيم، ففرح به فرحًا شديدًا، ولكن سارة رضي الله عنها أدركتها الغيرة، فحلفت أن لا يساكنها بها، وذلك لما يريده الله، وهذا من جملة الأسباب لذهابه بها إلى موضع البيت الحرام، وإلا فهو متقرِّر عنده ذلك عليه السلام.

فذهب بها وبابنها إسماعيل إلى مكة، وهي في ذلك الوقت ليس فيها سكن ولا مسكن ولا ماء ولا زرع ولا غيره، وزوَّدهما بسقاء فيه ماء، وجِراب فيه تمر، ووضعهما عند دَوْحة[٣] قريبة من محل بئر زمزم، ثم قفَّى[٤] عنهما، فلما كان في الثَّنِيَّة[٥] بحيث يُشْــرِف عليهما دعا الله تعالى فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] إلى آخر الدعاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

(٢) تَسَرَّر الجارية وتَسَرَّاها: اتَّخذها سُرِّيَّة.

(٣) أي: شجرة عظيمة.

(٤) أي: ذهب مُوَلِّيًا.

(٥) الثنية: كلُّ منفرج بين جبلَين.

ثم استسلمت لأمر الله، وجعلت تأكل من ذلك التمر، وتشرب من ذلك الماء حتى نَفِدَا، فعطشت ثم عطش ولدها، فجعل يتلوَّى من العطش، ثم ذهبت في تلك الحال لعلها ترى أحدًا، أو تجد مُغِيثًا، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا، وتطلَّعت فلم تَرَ أحدًا، ثم ذهبت إلى المروة فصعدت عليه فتطلَّعت، فلم تَرَ أحدًا، ثم جعلت تتردَّد في ذلك الموضع وهي مكروبة مضطرة مستغيثة بالله لها ولابنها، وهي تمشي وتلتفت إليه خشيةَ السباع عليه، فإذا هبطت الوادي سعت حتى تصعد من جانبه الآخر؛ لئلا يخفى على بصرها ابنُها.

والفرج مع الكرب، والعُسْر يتبعه اليُسْر، فلما تمت سبع مرات تسمَّعت حِسَّ الملَك، فبحث في الموضع الذي فيه زمزم فنبع الماء، فاشتد فرح أم إسماعيل به، فشربت منه وأرضعت ولدها، وحمدت الله على هذه النعمة الكبرى، وحَوَّطَت على الماء لئلا يسيح، قال النبي ﷺ: «رحم الله أم إسماعيل، لو تركت ماء زمزم ـ أي لم تُحَوِّطْه ـ لكانت زمزم عينًا مَعِينًا»[(١)]، ثم عثرت بها قبيلة من قبائل العرب يقال لهم جُرْهُم، فنزلوا عندها وتمت عليها النعمة.

وشبَّ إسماعيل شابًّا حسنًا، وأعجب القبيلة بأخلاقه وعُلُوِّ هِمَّته وكماله، فلما بلغ تزوَّج منهم امرأة، ففي أثناء هذه المدة ماتت أمه رضي الله عنها، وجاء إبراهيم بغَيْبة إسماعيل يتصيَّد، فدخل على امرأته فسألها عن زوجها وعن عيشهم، فأخبرته أن زوجها قد ذهب يتصيَّد، وأن عيشهم عيش الشدة، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئيه مني السلام، وقولي له يُغَيِّر عتبة بابه، ورجع من فوره لحكمة أرادها الله، فلما جاء إسماعيل كأنه آنَسَ شيئًا، فسأل امرأته، فأخبرته أنه جاءهم شيخ بهذا الوصف، وأنه سأل عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرتُه أننا في شدة، وأنه يقرأ عليك السلام، ويقول لك: غَيِّرْ عتبة بابك، فقال: ذاك أبي، وأنتِ العتبة، الحَقِي بأهلك. ثم تزوَّج إسماعيل غيرها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٦٨).

ثم جاء إبراهيم مرة أخرى وإســماعيل أيضًا فــي الصيد، فدخل على امرأته، فسألها عن إسماعيل فأخبرته، وسألها عن عيشهم فأخبرته أنهم في نعمة وخير، وكانت امرأة طيبة شاكرة لله وشــاكرة لزوجها، ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأَقْرِئي عليه الســلام، وقولي له يُثَبِّتْ عتبة بابه، ثم رجع أيضًا من فَوْرِهِ قبــل مواجهة إســماعيل لحكمــة أرادها الله تعالــى، فلما رجع إســماعيل من صيده قال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: جاءنا شــيخ بهذا الوصف، فقال: هل قال لكم من شيء؟ فقالت: سألنا عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرته أنَّا في نعمة، وأثنيت على الله، فقال: فما قال؟ قالت: هو يقرأ عليك الســلام، ويأمرك أن تُثَبِّت عتبة بابك، فقــال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أُمْسِكَك.

ثم عاد إبراهيم المرة الثالثة فوجد إسماعيل يَبْرِي نَبْلًا عند زمزم، فلما رآه قام إليه فصَنَعَا كما يصنع الوالد الشفيق والولد الشفيق، فقال: يا إسماعيل، إن الله أمرني أن أبني هنا بيتًا يكون معبدًا للخلق إلى يوم القيامة، قال: سأعينك على ذلك، فجعلَا يرفعان القواعــد من البيت[1]؛ إبراهيم يبني، وإســماعيل يناوله الحجــارة، وهما يقــولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

فلما تَمَّ بنيانه، وتَمَّ للخليل هذا الأثــر الجليل؛ أمره الله أن يدعو الناس، ويُؤَذِّن فيهم بحَجِّ هذا البيت، فجعل يدعو الناس وهم يَفِدُون إلى هذا البيت من كل فَجٍّ عميق؛ ليشــهدوا منافع دنياهم وأُخراهم، ويسعدوا، ويزول عنهم شقاؤهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

وفي هذه الأثنـاء حين تمكَّن حُبُّ إسماعيل من قلبه، وأراد الله أن يمتحن إبراهيم لتقديم محبة ربه وخُلَّتِه التي لا تقبل المشاركة والمزاحمة، فأمره في المنام أن يذبح إسماعيل، ورؤيا الأنبياء وحي من الله، فقال لإسماعيل: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٣]، أي: خضعًا لأمر الله، وانقادَا لأمره، ووطَّنَا أنفسهما على هذا الأمر المزعج الذي لا تكاد النفوس تصبر على عُشْر مِعْشَاره، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، نزل الفَرَج من الرحمٰن الرحيم، ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٥]، فحصل توطين النفس على هذه المحنة والبلوى الشاقة المزعجة، وحصلت المقدمات والجزم المصمِّم، وتمَّ لهما الأجر والثواب، وحصل لهما الشرف والقرب والزلفى من الله، وما ذلك من ألطاف الرب بعزيز، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٥ ـ ١٠٧]، وأي ذِبْحٍ أعظم من كونه حصل به مقصود هذه العبادة التي لا يُشْبِهها عبادة، وصار سُنَّة في عقبِه إلى يوم القيامة يُتقرَّب به إلى الله، ويدرك به ثوابه ورضاه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨ ـ ١٠٩].

ثم إن الله أتم النعمة على إبراهيم، ورَحِم زوجته سارة على الكِبَر والعُقْم واليأس بالبشارة بالابن الجليل، وهو إسحاق، ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾، فحين أرسل الله لوطًا إلى قومه، وتمرَّدوا عليه وحتَّم الله عقوبتهم، وكان لوط تلميذًا لإبراهيم، ولإبراهيم عليه حقوق كثيرة، فمرَّت الملائكة الذين أُرْسِلُوا لإهلاك قوم لوط بإبراهيم بصورة آدميين، فلما دخلوا عليه وسلموا ردَّ عليهم السلام، وبادَرهم بالضيافة، وكان الله قد أعطاه الرزق الواسع، والكرم العظيم، وكان بيته مأوى للأضياف، فبالحال راغَ إلى أهله بسرعة وخُفْية منهم، فجاء

بعِجْل سمين محنوذ؛ مشوي على الرَّضْف[1] فقرَّبه إليهم، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]، ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]؛ إذ ظن أنهم لصــوص: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وكانت سارة قائمة في خدمتهم، وبشَّره بغلام عليم، فصرخت سارة وصكَّت وجهها متعجبة ومستبشــرة ومتردِّدة ومتحيِّرة، وقالــت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وقبل ذلــك كنــت عقيمًــا، ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، فبَشَّــرَاهما بإســحاق، وأنه يعيش ويُولَد له يعقوب ويدركانه، ولهذا حمد اللهَ إبراهيمُ على تمام نعمته، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

* * *

(١) الرَّضْف: الحجارة الـمُحْمَاة بالشمس أو بالنار.

فوائد من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

أولًا: ليُعلَم أن جميع ما قصَّه الله علينا من سيرة إبراهيم الخليل عليه السلام فإننا مأمورون به أمرًا خاصًا، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أي: الزموها. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ﴾ [الممتحنة: ٤] الآية، فما هو عليه في التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق وجميع ما قصَّ علينا من نبئه فإن اتِّباعنا إياه من ديننا؛ ولهذا لما كان هذا أمرًا عامًّا لأحواله كلها استثنى الله حالة من أحواله فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] أي: فلا تقتدوا به في هذه الحال بالاستغفار للمشركين، فإن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان ﴿عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

ومنها: أنَّ من الحكمة قصَّ الله على عباده نبأ الأخيار والفجَّار؛ ليعتبروا بحالهم، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث ابتدأ الله قصَّته بما يدلُّ على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: أن الله اتخذه خليلًا، والخُلَّة أعلى درجات المحبة، وهذه المرتبة لم تحصل لأحد من الخلق إلا للخليلَين: إبراهيم، ومحمد صلى الله عليهما وسلم.

ومنها: ما أكرمه الله به من الكرامات المتنوعة، جعل في ذريته النبوة والكتاب، وأخرج من صُلبه أُمَّتَيْن هما أفضل الأمم: العرب وبنو إسرائيل، واختاره الله لبناء بيته الذي هو أشرف بيت، وأول بيت وُضِع للناس، ووهب له الأولاد بعد الكِبَر واليأس، وملأ بذِكْره ما بين الخافِقَين[1]، وامتلأت قلوب الخلق من محبته، وألسنتُهم من الثناء عليه.

---

(١) الخافقان: هُمَا طَرَفَا السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. وَقِيلَ: المَغْرِب وَالْمَشْرِقُ.

ومنها: أن الله رفعه بالعلم واليقين وقـوة الحُجَج، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥] ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعـام: ٨٣]، ومِن شـوقه إلى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أن سـأل ربه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومنها: أن مَن عَزَمَ علـى فِعْل الطاعات، وبذل مقدوره في أسـبابها، ثم حصل مانع يمنع من إكمالها، أن أَجْره قـد وجب على الله، كما قال الله ذلك في المهاجر الذي يموت قبل أن يصل إلى مُهَاجَره[1]، وكما ذكره الله في قصة الذبح، وأن الله أتَمَّ الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلمَا لله وأَذْعَنا لأمره، ثم رفع عنهما المشقة، وأوجب لهما الأجر الدنيوي والأخروي.

ومنها: ما في قَصصه من آداب المناظرة: طُرقها ومسالكها النافعة، وكيفية إلزام الخصم بالطرق الواضحة التي يعترف بها أهل العقول، وإلجاؤه الخصمَ الألَدَّ إلى الاعتراف ببطلان مذهبه، وإقامة الحجة على المعاندين، وإرشاد المسترشدين.

ومنها: أن مِن نعمة الله على العبد هبة الأولاد الصالحين، وأن عليه في ذلك أن يحمد الله، ويدعو الله لذريته كما فعل الخليل عليه السلام في قوله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩] إلى آخر الدعاء.

وقال جلَّ ذِكْره في الثناء عمومًا على من يدعو الله بصلاح ذريته: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥]،

---

(١) المُهاجَر: هو المكان الذي يُهاجَر إليه.

«فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنْتَفَع به، أو ولد صالح يدعو له»[1].

ومنها: أن المشاعر ومواضع الأنساك من جملة الحِكَم فيها أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته في عبادات ربهم، وإيمانٌ بالله ورسله، وحثٌّ على الاقتداء بهم في كل أحوالهم الدينية، وكلُ أحوال الرسل دينيةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

ومنها: الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس، ومن جميع المعاصي القولية والفعلية؛ تعظيمًا لله، وإعانةً وتنشيطًا للمتعبدين فيه، ومثله بقية المساجد؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

ومنها: أن أفضل الوصايا على الإطلاق ما وصَّى به إبراهيم بنيه ويعقوب؛ وهو الوصية بملازمة القيام بالدين، وتقوى الله، والاجتماع على ذلك، وهي وصيته تعالى للأولين والآخرين، إذ بها السعادة الأبدية، والسلامة من شرور الدنيا والآخرة.

ومنها: أن العامل كما عليه أن يُتْقِن عمله، ويجتهد في إيقاعه على أكمل الوجوه، فعليه مع ذلك أن يكون بين الخوف والرجاء، وأن يتضرع إلى ربه في قبوله وتكميل نقصه، والعفو عما وقع فيه من خلل أو نقص، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت وهما بهذا الوصف الكامل.

ومنها: أن الجمع بين الدعاء لله بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء الله، وكذلك السعي في تحصيلهما الدينَ هو الأصل، والمقصود الذي خُلِق له الخَلْق، والدنيا وسيلة ومعونة عليه، لدعاء الخليل لأهل البيت الحرام

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

بالأمريـــن، وتعليله الدعـــاء بالأمور الدنيوية أنه وســـيلة إلى الشـــكر، فقال: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ومنها: ما اشتملت عليه قصة إبراهيم من مشروعية الضيافة وآدابها، وأنَّها من سُـــنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمدًا ﷺ وأمته أن يتَّبعوا ملَّته، فإن الله أخبر عن ضيفه أنهم مُكْرَمون؛ يعني: أنهم كرماء على الله، وأيضًا إبراهيم أكرمهم بضيافته قولًا وفعلًا، فإكرام الضيف من الإيمان، وأنه خدمهم بنفسه، وبادَر بضيافتهم قبل كل شـــيء، وأتى بأطيب ماله: عِجْل حَنِيذ سمين، وقرَّبه إليهم، ولم يُحْوِجهم إلى الذهاب إلى عمل آخر، وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧].

ومنها: أنَّ إبراهيـــم عليه السلام قد كان بيته مأوى للطارقيـــن والأضياف؛ لأنَّهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنَّما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام، فردَّ عليهم إبراهيم سلامًا أكمل من ســـلامهم وأتمَّ؛ لأنَّه أتى به جملةً اسميَّة دالَّة على الثُّبوت والاستقرار.

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإســـراع بها؛ لأن خير البرِّ عاجله، ولهذا بادَرَ إبراهيم بإحضار قِرى[1] أضيافه.

ومنها: أنَّ الذَّبيحة الحاضـــرة التي قد أُعِدَّت لغيـــر الضيف الحاضر إذا جُعِلت له ليس فيها أقل إهانةٍ، بل ذلك مـــن الإكرام؛ كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أنَّ ضيفه مكرمون.

ومنها: الترغيب في أن يكون أهل الإنسان ومَن يتولى شؤون بيته حازمين مستعدِّين لكل ما يراد منهم من الشؤون والقيام بمهمات البيت، فإن إبراهيم في الحال بادَرَ إلى أهله فوجد طعام ضيوفه حاضرًا، لا يُحْوِج إلا إلى تقديمه.

---

(١) القِرَى: الطعام الذي يُقَدَّم للأضياف.

ومنها: ما منَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا لديه وفي بيته مُعَدًّا، لا يحتاج إلى أن يأتي به من السوق أو الجيران، أو غير ذلك.

ومنها: أنَّه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، فلم يجْعله في موضع ويقولُ لهم: «تفضَّلوا، أو ائتوا إليه»؛ لأنَّ هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حُسن ملاطفة الضيف في الكلام الليّن، خصوصًا عند تقديم الطعام إليه؛ فإنَّ إبراهيم عرض عليهم عرضًا لطيفًا، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، ولم يقل: ﴿كلوا﴾! ونحوه من الألفاظ التي غيرُها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة ما هو المناسب واللائق بالحال؛ كقوله لأضيافه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أو: «ألا تتفضَّلون علينا وتُشرِّفوننا وتُحسنون إلينا...»، ونحو ذلك.

ومنها: مشروعية السلام، وأن المبتدئ فيه هو الداخل وهو الماشي، وأنه يجب رَدُّه، ومشروعية الوقوف على اسم مَن يتصل بك من صاحب ومعامل وضيف؛ لقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، أي: لا أعرفكم فأُحِبُّ أن تُعرِّفوني بأنفسكم، وهذا ألطف من قوله: أنكرتكم، ونحوه.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام؛ حيث قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، ولم يقل: «أنكرتكم»، وبين اللفظَين من الفرق ما لا يخفى.

ومنها: أنَّ مَن خاف من أحدٍ لسبب من الأسباب؛ فإنَّ عليه أن يُزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمِّن رَوْعَه[1]، ويسكِّن جأشه؛ كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ وأخبروه بتلك البشارة السارَّة بعد الخوف منهم.

(١) الرَّوْع: الفَزَع.

ومنها: أن إتيان الولد والبشارة به من سارة وهي عجوز عقيم؛ يُعَدُّ معجزة لإبراهيم، وكرامة لسارة، ففيه معجزة نبي وكرامة وَلِيٍّ، ونظيره بشارة الملائكة لمريم بعيسى، وبشـارتهم بيحيى لزكريا وزوجته، وكون زكريا جعل اللهُ آية وجود المبشَّر به أن لا يُكلِّم الناس ثلاثة أيام، وهو سَوِيٌّ لا آفة فيه إلا بالرمز والإشارة، وكل هذا وما أشبهه من آيات الله، وأعجب من هذا إيجاده آدم من تراب، فسبحان من هو على كل شيء قدير.

ومنها: شدَّة فرح سـارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صكِّ وجهها، وصَرَّتِها[1] غير المعهودة.

ومنها: ثناء الله على إبراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم، وقد قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، والجامـع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها، ملآن من الخير والبر والكرم، سليم من الشُّبُهات القادحة في العلم واليقين، ومن الشـهوات الحائلة بين العبد وبين كماله، سليم من الكِبْر ومن الرياء، والشقاق والنفاق، وسوء الأخلاق، وسليم من الغِـلِّ والحقد، مـلآن بالتوحيد والإيمـان، والتواضع للحـق وللخلق، والنصيحة للمسلمين، والرغبة في عبودية الله، وفي نفع عباد الله.

ومنها: ما ذكره في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافـات: ١٠٩]، يتبعها بقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافـات: ١٠٥]، فوعـد الباري أن كل مُحْسِـن في عبادته مُحْسِـن إلى عباده؛ أن الله يجزيه الثناء الحسن، والدعاء من العالمين بحسب إحسانه، وهذا ثواب عاجل وآجل، وهو من البشرى في الحياة الدنيا، ومن علامات السعادة.

---

(١) أي: صيحتها.



قصة لوط عليه السلام

قصة لوط عليه السلام تبعٌ لقصة إبراهيم؛ لأنه تلميذه، وقد تعلَّم من إبراهيم، وكان له بمنزلة الابن، فنبَّأه الله بحياة الخليل، وأرسله إلى قرى سَدُوم من غَوْر[1] فلسطين، وكانوا مع شركهم بالله يَلُوطون بالذكور، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الفاحشة الشنعاء، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وحذَّرهم من هذه الفاحشة، فلم يزدادوا إلا عُتُوًّا وتماديًا فيما هم فيه، ولما أراد الله هلاكهم أرسل الملائكة لذلك، فمَرُّوا بطريقهم على إبراهيم وأخبروه بذلك، فجعل إبراهيم يجادل في إهلاكهم ـ وكان رحيمًا حليمًا ـ وقال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، فقيل: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦]، ولما ذهب الملائكة إلى لوط بصورة أضياف آدميين شباب ساء لوطًا ذلك، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]؛ لعلمه بما عليه قومه من هذه الجراءة الشنيعة، ووقع ما خاف منه، فجاءه قومه يهرعون إليه يريدون فِعْل الفاحشة بأضياف لوط، فقال: ﴿يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]؛ لعلمه أنه لا حق لهم فيهن، كما عرض سليمان للمرأتين حين اختصمتا في الولد، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك، وهذا مثله، ولهذا

(١) الغَوْر: المُنْهَبِطُ من الأرض.

قال قومـه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، وأيضًا يريد بعض العـذر من أضيافه، وعلى هذا التأويـل لا حاجة إلى العدول إلى قول بعض المفسـرين: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: ٧٨] يعني: زوجاتهم، يعني: لأن النبي أبٌ لأمته، فإن هذا يمنعه أمران:

أحدهما: قوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: ٧٨] يشير إليهن إشارةَ الحاضر.

ثانيًا: هذا الإطلاق على زوجاتهم لا نظير له، وأيضًا النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به، لا للكفار، والمحذور الذي توهَّموه يزول بما ذكرنا، وأنه يعلم أنه لا حق لهم فيهن، وإنما يريد مدافعتهم بكل طريق.

فاشتد الأمر بلوط وقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] أي: لدافعتكم، فلما رآهم جازمين علـى مرادهم الخبيث قال لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هـود: ٧٨] فاسْـتَلَجُّوا فـي طغيانهم وسُـكْرهم، فحينئذ أخبرته ملائكة الرحمٰن بأمرهم، وأنهم أُرْسِـلوا لإهلاكهم، فصدم جبريل أو غيره من الملائكة الذين يعالجون الباب ليدخلوا على لوط، فطمس بهذه الصدمة أعينهم[1]، فكان هذا عذابًا معجَّلاً وأنموذجًا لمن باشَـرُوا مُراوَدة لوط على أضيافـه، وأمروا لوطًا أن يَسْـرِي بأول الليل بأهله، ويُلِحُّ في السير حتى يُخَلِّف ديارهم، وينجو من مَعَرَّة العذاب، فخرج بهم، فما أصبح الصباح حتى خلَّفوا ديارهم، وقلب الله عليهم ديارهم، فجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليها ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يعملون عملهم ﴿بِبَعِيدٍ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكـم (٤٠٨١)، واللفظ عنـده: «وَلَمَّا قَالَ لُـوطٌ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، بَسَـطَ حينَئِذٍ جِبْرِيلُ جَنَاحَيْهِ فَفَقَأَ أَعْيُنَهُمْ، وَخَرَجُوا يَدُوسُ بَعْضُهُمْ فِي آثَارِ بَعْضٍ عُمْيَانًا، يَقُولُونَ: اَلنَّجَا النَّجَا، فَإِنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ أَسْحَرَ قَوْمٍ فِي الْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾».

فوائد من هذه القصة

وفي هذه القصة: أكبرُ دليلٍ على أن فاحشة اللِّواط من أشنع القبائح، وأنها توجب العقاب الشديد، وأن من ابتُلِي بهذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح، فاستحسن ما كان قبيحًا، ونفر من الطَّيّب، وذلك دليل على انحراف الأخلاق.

وفيها وفي قصة إبراهيم جوازُ التعريض؛ أما قصة إبراهيم ففي قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨ ـ ٨٩]، وأما لوط ففي قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود: ٧٨]، والتعريض يكون في الأقوال، ويكون في الأفعال، وهو أن يقصد المتكلم أو العامل لعمل أمرًا من الأمور التي لا بأس بها، ويُوهِم السامع والرائي أمرًا آخر؛ ليستجلب منفعة، أو يدفع مضرَّة.

ومنها: أن من علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدَّد في أقواله وأفعاله، ومن ذلك أنه ينصر المظلومين، ويُفَرِّج الكرب عن المكروبين، ويأمر بالخير، وينهى عن الشر، هذا هو الرشيد حقيقة، فلهذا قال لوط: ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود: ٧٨]؟ أي: فيأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ويدفع أهل الشر والبغي.

ومنها: أنَّ الله تعالى إذا أراد أن يُهْلِك قرية ازداد شـرُّهم وطغيانهم، فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقُّونه.

ومنها: الحثُّ على السعي في الأعوان على أمور الخير ودفع الشر، ولو كان المعاون على ذلك من أهل الشر، فإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خَلَاق[1] لهم عند الله، ولهذا قال لوط: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠].

---

(١) أي: حظ ونصيب.

وأكثر الأنبياء يبعثهم الله في أشراف قومهم، ويحصل بذلك من تأييد الحق وقمع الباطل، والتمكُّن من الدعوة ما لا يحصل لو لم يكن كذلك، واعتُبِر هذا بحال شعيب وقول قومه له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وكذلك نبينا محمد ﷺ بُعِث في أشرف بيت في قريش وأعزه، وقد رماه قومه بالعداوة البليغة، وعقدوا المجالــس المتعدِّدة في إبطال قوله ودينه، بل وفي كيفية الفتك به، ومن الأســباب التي أوقفتهم عنــد حَدِّهم خَوْفُهم من قبيلته، وانظر إلى حالته فــي تضييقهم عليه بالشِّــعْب، وانحياز قبيلته معهم ـ مســلمهم وكافرهم ـ ولم يخطر ببالهم أنهم يصلون إلى الفتك بشــخصه الكريم حتى مكروا ذلك المكر العظيــم؛ إذ اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل ليتفرَّق دمه في القبائل[1]، فيعجــز قومه عن الأخذ بثأره، ولكنهم يمكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين[2].

✻ ✻ ✻

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٦٨).

(٢) **ومن فوائد قصة لوط عليه السلام:**

- شدة قُبْح جريمة اللواط.
- أول من عرف هذه الجريمة القذرة هم قوم لوط عليه السلام.
- الإسراف وعدم الاعتدال في الأقوال والأفعال يتولَّد عنه كل شر وفساد.
- فضيلة إكرام الضيف، وحمايته من كل ما يَسُوءه.
- فظاعة العادات السيئة، وما تُحدِثه من تغيُّر في الإنسان.
- بَذْل ما يمكن من الأسباب لدفع الشر لوقاية لوطٍ ضيفَه ببناته.
- مشروعية طلب الأزواج للبنات.
- إظهار الرغبة في القوة لدفع الشر وإبعاد المكروه أمرٌ ممدوح.
- التحذير من العبث والباطل قولًا أو عملًا، وخاصة في الأندية والمجتمعات.
- استحباب السير في الليل؛ لما فيه من البركة بقطع المسافات البعيدة بدون تعب.
- أنَّ المرأة والأولاد من الأهل.



قصة يوسف عليه السلام

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٤ ـ ٦]

اعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعُلِم بذلك أنها قصة تامَّة كاملة حسنة، فمن أراد أن يُكمّلها أو يُحسّنها بما يُذْكَر في الإسرائيليات التي لا يُعْرَف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب، فهو مستدرك على الله، ومُكَمِّل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحًا، فإن تضاعيف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قَصَّه الله تعالى بشيء كثير؛ فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قَصَّه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ يُنْقَل.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾، فكانت هذه الرؤيا مقدّمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع

في الدنيا والآخرة، وهكــذا إذا أراد الله أمرًا من الأمور العظــام قدَّم بين يدَيه مقدِّمة، توطئة له، وتسهيلًا لأمره، واســتعدادًا لما يَرِد على العبد من المشاقّ، لطفًا بعبده، وإحســانًا إليه، فأوَّلها يعقوب بأن الشــمس: أمــه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويســجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدَّمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمــام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تَبَعًا له فيها، ولهذا قــال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، أي: يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، أي: من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ في الدنيــا والآخرة، بأن يُؤتيــك في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾، حيث أنعم الله عليهما بنِعَم عظيمة واسعة دينية ودنيوية، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عِلْمُه محيطٌ بالأشــياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلًّا ما تقتضيه حكمته وحمده؛ فإنه حكيمٌ يضع الأشياء مواضعها، ويُنزلها منازلها.

ولما بَانَ تعبيرها ليوســف قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾، أي: حسدًا من عند أنفسهم؛ بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ لا يَفْتُر عنه ليلًا ولا نهارًا، ولا سِرًّا ولا جهارًا؛ فالبُعد عن الأســباب التي يتســلَّط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمْرَ أبيه، ولم يُخْبِر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۞ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٧ ـ ٩].

يقول تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ﴾ أي: عِبَر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لكل مَن سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعِبَر، وأما المُعْرِضون فلا ينتفعون بالآيات ولا بالقصص والبينات، ﴿إِذۡ قَالُواْ﴾ فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين؛ أي: شقيقه، وإلا فكُلُّهم إخوة، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف يفضِّلهما علينا بالمحبة والشفقة؟ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أي: لفي خطأٍ بَيِّن، حيث فضَّلهما علينا من غير مُوجِب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ أي: غَيِّبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكَّن من رؤيته فيها؛ فإنكم إذا فعلتم أحد هذَين الأمرَين ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ أي: يتفرَّغ لكم، ويُقْبِل عليكم بالشفقة والمحبة؛ فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلًا لا يتفرَّغ لكم، ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، أي: من بعد هذا الصنيع ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرونه من بعد ذنبكم، فقدَّموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم؛ تسهيلًا لفعله، وإزالةً لشناعته، وتنشيطًا من بعضهم لبعض.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠].

أي: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾: من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبعيده: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾، فإنَّ قَتْلَه أعظمُ إثمًا وأشنعُ، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصَّلوا إلى تبعيده بأن تُلْقُوه ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾، وتتوعَّدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك آبِقٌ منكم، لأجل أن ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ الذين يريدون مكانًا بعيدًا، فيحتفظون به، وهذا القائل أحسنهم رأيًا في يوسف، وأبرُّهم وأتقاهم في هذه القضية؛ فإن بعض الشرِّ أهونُ من بعض، والضرر الخفيف يُدفَع به الضرر الثقيل، فلما اتفقوا على هذا الرأي:

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤].

أي: قال إخوة يوسف متوصِّلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾، أي: لأيِّ شيءٍ يدخلك الخوف منَّا على يوسف من غير سبب ولا موجب، والحال إنَّا ﴿ لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾، أي: مشفقون عليه، نَوَدُّ له ما نودُّ لأنفسنا، **وهذا يدل على أن يعقوب** عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبريَّة ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التُّهمة المانعة من عدم إرساله معهم ذكروا له من مصلحة يوسف وأُنْسِه الذي يحبُّه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ ﴾ أي: يتنزَّه في البريَّة ويستأنس، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده، فأجابهم بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ ﴾ أي: مجرَّد ذهابكم به يحزنني ويشقُّ عليَّ؛ لأنني لا أقدر على فراقه ولو مدة يسيرة؛ فهذا مانعٌ من إرساله، ومانعٌ ثانٍ وهو ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ أي: في حال غفلتكم عنه؛ لأنه صغيرٌ لا يمتنع من الذئب، ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ ﴾ أي: جماعة حريصون على حفظه؛ ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ أي: لا خير فينا ولا نفع يُرْجَى منَّا إن أكله الذئب وغلبنا عليه، فلما مهَّدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع؛ سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أُنْسه.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ۝ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ

وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۞ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٦ ـ ١٨].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعدما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غَيَابة الجبِّ[1]، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفَّذُوا فيه قدرتهم، وألْقَوْه في الجبِّ، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحَرِجة: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: سيكون منك معاتبة لهم، وإخبارٌ عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر. ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العزِّ والتمكين له في الأرض، ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ ليكون إتيانهم متأخِّرًا عن عادتهم، وبكاؤهم دليلًا لهم، وقرينة على صدقهم، فقالوا متعذِّرين بعذرٍ كاذبٍ: ﴿ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ توفيرًا له وراحة، ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ في حال غيبتنا عنه واستباقنا، ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا؛ لما في قلبك من الحزن على يوسف والرقة الشديدة عليه، ولكن عدم تصديقك إيَّانا لا يمنعُنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي، وكلُّ هذا تأكيد لعذرهم، ومما أكَّدوا به قولهم أنهم جاءوا ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ زعموا أنَّه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدِّقهم أبوهم بذلك، و﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أي: زَيَّنت لكم أنفسكم أمرًا قبيحًا في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصَّها عليه ما دلَّه على ما قال. ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أي:

---

(١) الغيابة: كل ما غُيِّب عنك، والجُبُّ: البئر.

أمَّا أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبرًا جميلًا سالِمًا من السخط والتَّشكِّي إلى الخَلْق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر، وشكا إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل؛ لأنَّ النبيَّ إذا وعد وفى.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۞ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٢٠].

أي: مكث يوسف في الجُبِّ ما مكث، حتى جاءت ﴿سَيَّارَةٌ﴾ أي: قافلة تريد مصر، ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ أي: فَرَطهم ومُقَدَّمهم الذي يَعُسُّ لهم المياه، ويَسْبِرها، ويستعد لهم بتهيئة الحياض، ونحو ذلك، ﴿فَأَدْلَىٰ﴾ ذلك الوارد ﴿دَلْوَهُۥ﴾ فتعلَّق فيه يوسف عليه السلام وخرج، ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ أي: استبشر، وقال: هذا غلامٌ نفيسٌ، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، وكان إخوته قريبًا منه، فاشتراه السيارةُ منهم، ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ أي: قليل جدًّا، فسَّره بقوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾؛ لأنه لم يكن لهم قصدٌ إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصدٌ في أخْذ ثمنه، والمعنى في هذا: أنَّ السيارة لما وجدوه عزموا أن يُسِرُّوا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنَّه عبدٌ أبَق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

أي: لما ذهب به السيارةُ إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيزُ مصر، فلما اشتراه أُعجب به، ووصَّى به امرأته، وقال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعلَّ ذلك أنه لم يكن لهما ولدٌ، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كما يسَّرنا له أن يشتريه عزيز مصر، ويُكرِمه هذا الإكرام؛ جعلنا هذا مقدِّمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ إذا بقي لا شغل له ولا همَّ له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلُّمه علمًا كثيرًا من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أي: أمره تعالى نافذٌ لا يبطله مبطلٌ، ولا يغلبه مغالبٌ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلذلك يجري منهم، ويصدُرُ ما يصدُرُ في مغالبة أحكام الله القدريَّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، أي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: جعلناه نبيًّا رسولًا وعالِمًا ربانيًّا، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علمًا نافعًا. ودلَّ هذا على أن يوسف وفَّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٩].

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسـف من محنة إخوته، وصَبْرُه عليها أعظمُ أجرًا؛ لأنه صبرُ اختيارٍ مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدَّم محبَّة الله عليها، وأما محنته بإخوته فصَبْـرُه صبرُ اضطرار؛ بمنزلة الأمراض والمكاره التي تُصيب العبد بغير اختياره، وليس لـه ملجأ إلا الصبر عليها طائعًا أو كارهًا، وذلك أنَّ يوسف عليه السلام بقي مكرَّمًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك أن راودته ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكـروه من غير إشـعار أحدٍ، ولا إحسـاس بشـرٍ، وزادت المصيبة بأن ﴿وغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ وصـار المحـلُّ خاليًا، وهمـا آمنان مـن دخول أحدٍ عليهما، بسـبب تغليق الأبواب، وقد دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: افعل الأمر المكـروه وأَقْبِلْ إليَّ! ومع هذا فهو غريبٌ لا يحتشـم مثلُه ما يحتشـمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسـيرٌ تحت يدها، وهي سـيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شـابٌّ عزبٌ، وقد توعَّدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم، فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القويِّ فيه؛ لأنه قـد همَّ فيها هَمًّا تركه لله، وقدَّم مراد الله على مراد النفس الأمَّارة بالسوء، ورأى من برهان ربه ـ وهو ما معه من العلم والإيمان الموجِب لترك كلِّ ما حرَّم الله ـ ما أوجب له البُعد والانكفاف عن هذه المعصيـة الكبيرة، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بـالله أن أفعل هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يُسـخِط الله ويُبعِد منه، ولأنه خيانةٌ في حقِّ سـيِّدي

الذي أكرم مثواي؛ فلا يَلِيق بي أن أقابله في أهلــه بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يُفْلِح.

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حقِّ سيِّده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظُّلم الذي لا يُفْلِح من تعاطاه، وكذلك ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كلِّه أنَّ الله صرف عنه السـوء والفحشـاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلَصهـم الله واختارهم واختصَّهم لنفسه، وأَسْـدى عليهم من النِّعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خَلْقه.

ولما امتنــع من إجابة طلبها بعد المراودة الشـديدة ذهــب ليهرب عنها ويبادِر إلــى الخروج من البــاب ليتخلَّص ويهرب من الفتنــة، فبادرت إليه، وتعلَّقت بثوبه، فشــقَّت قميصه، فلمَّا وصلَا إلى الباب في تلك الحال أَلْفَيَا[1] سيِّدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمرًا شــقَّ عليه، فبادرتْ إلى الكذب، وأن المراودة قد كانت من يوســف، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ولم تقلْ: «من فعل بأهلك سوءًا»؛ تبرئةً لها، وتبرئة له أيضًا من الفعل، وإنما النِّزاع عند الإرادة والمراودة، ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أو يعذَّب عذابًا أليمًا. فبرَّأ نفســه مما رَمَتْه به، وقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ فحينئذ احتملت الحال صِدْقَ كلٍّ واحد منهما، ولم يعلــم أيهما، ولكنَّ الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدلُّ عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمنَّ الله تعالى في هــذه القضيــة بمعرفة الصــادق منهمــا، تبرئةً لنبيِّــه وصفيِّه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها يشــهد بقرينة من وُجِدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ لأن

(١) أي: وَجَدَا.

ذلك يدلُّ على أنه هو المقبِـل عليها المراوِدُ لها المعالِـج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشـقَّت قميصه مـن هذا الجانـب. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنَّ ذلك يـدلُّ على هروبه منهـا؛ وأنها هي التي طلبتْه، فشـقَّت قميصه من هذا الجانب، ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ عرف بذلك صِدْق يوسـف وبراءته، وأنَّها هي الكاذبة، فقال لها سـيدها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وهل أعظم من هذا الكيد الذي برَّأت به نفسـها ممَّا أرادتْ وفعلتْ، ورَمَتْ به نبيَّ الله يوسـف عليه السلام، ثم إنَّ سيدها لما تحقَّق الأمرَ قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: اترك الكلام فيه وتناسَهُ ولا تذكره لأحدٍ؛ طلبًا للسـتر على أهله، ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ أيتها المرأة ﴿لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾، فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠ ـ ٣٥].

يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدَّث به النسوة، فجعلن يَلُمْنَها، ويقُلْن: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: هذا أمرٌ مُسْتَقْبَحٌ! هي امرأةٌ كبيرةُ القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تَزَلْ تراوِدُ فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسـه، ومع هذا فإنَّ حبَّه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًـا. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: وصـل حبُّه إلى شـغاف قلبهـا، وهو باطنه

وسُــوَيْدَاؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث وُجِدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منهــا، وهي حالة تحطُّ قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهنَّ مَكْرًا، ليــس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنَّما أردْن أن يتوصَّلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فُتِنَتْ به امرأة العزيز لتَحْنَق امرأةُ العزيز وتريهنَّ إياه ليَعْذِرْنَها، ولهذا ســمَّاه مكرًا، فقال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنَّ إلى منزلها للضيافة، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: محــلًّا مُهَيَّأً بأنواع الفرش والوســائد، ومــا يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت بــه وأحضرته في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى ســكين، إمَّا أُترُجٌّ، أو غيره، ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ ليُقطِّعن فيها ذلك الطعام، ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ في حالة جماله وبهائه.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: أَعْظَمْنَــه في صدورهــنَّ، ورأَيْنَ منظــرًا فائقًا لم يشاهِدن مثله، ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ من الدَّهش ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: تنزيهًــا لله، ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وذلك أن يوسف أُعْطِي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آيةً للناظرين، وعبرةً للمتأملين.

فلما تقرَّر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية الإعجاب، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيءٌ كثيرٌ؛ أرادت أن تُرِيَهُنَّ جماله الباطن بالعفة التامة، فقالت معلنة لذلك ومُبَيِّنة لحبه الشــديد غير مبالية، ولأن اللَّوم انقطع عنها من النسوة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع، وهي مقيمة على مراودته، لم يَزِدها مرور الأوقات إلا قلقًا ومحبةً وشوقًا لوصاله وتوقًا، ولهذا قالــت لــه بحضرتهــنَّ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ لتلجِئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واســتعان به على كيدهِنَّ، و﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾، وهذا

يدلُّ على أن النســوة جعلن يُشِرْن على يوســف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكِدْنه في ذلك، فاستحبَّ السجن والعذاب الدنيويَّ على لذَّةٍ حاضرة توجب العذاب الشــديد، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أَمِـل إليهنَّ؛ فإني ضعيفٌ عاجز إن لم تدفع عنِّي السوء، ﴿وَأَكُن﴾ إن صَبَوْتُ إليهنَّ ﴿مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فإن هذا جهلٌ؛ لأنه آثَـرَ لذة قليلة منغَّصــة على لذات متتابعات وشــهوات متنوعات في جنات النعيم، ومَن آثَرَ هذا على هذا فمَن أجهل منه؟! فإن العلم والعقــل يدعو إلى تقديم أعظــم المصلحتين وأعظم اللذَّتيــن، ويؤثِرُ ما كان محمودَ العاقبــة، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ حين دعاه، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم تزل تراوِدُه وتستعين عليه بما تقدِر عليه من الوسائل حتى أيَّسها، وصرف الله عنه كيدهــا، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعــي، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيَّته الصالحــة، وبنيَّته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولُطفه، فهذا ما نجَّى الله به يوسف من هذه الفتنة الـمُلِمَّة والمحنة الشديدة، وأما أسيادُه فإنَّه لما اشتهر الخبر وبَانَ، وصار الناس فيها بين عاذرٍ ولائمٍ وقــادحٍ، ﴿بَدَا لَهُم﴾ أي: ظهر لهم ﴿مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ الدالَّة علــى براءتــه، ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس؛ فإنَّ الشيء إذا شــاع لم يزلْ يُذْكَر، ويُشاع مع وجود أسبابه، فإذا عُدِمت أسبابه نُسِي، فرأوا أنَّ هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ

وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦ ـ ٤١].

أي: ولما دخل يوسف السجن كان في جملة مَن دخل ﴿مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي: شابَّان، فرأى كلُّ واحدٍ منهما رؤيا، فقصَّها على يوسف ليعبرها، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾، وذلك الخبز ﴿تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ أي: بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق، فأَحْسِنْ إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسَّلَا ليوسف بإحسانه، فقال لهما مجيبًا لطلبهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ أي: فلتطمئنَّ قلوبكما، فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما، أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبَّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ولعلَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بَدَتْ حاجتهما إليه؛ ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ التعبير الذي سأعبِّره لكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ أي: هذا من علم الله علَّمَنيه وأحسن إليَّ به، وذلك ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، والتَّرْك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه يكون لمن لم يدخل فيه أصلًا، فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملَّة إبراهيم، ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ثم فَسَّرَ تلك الملة بقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي: ما ينبغي ولا يَلِيق بنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، بل نُفْرِد الله بالتوحيد، ونُخْلِص له الدين والعبادة، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: هذا من أفضل مِنَنِه وإحسانه وفضله علينا، وعلى مَن هداه الله كما هدانا؛

فإنه لا أفضل مِن منَّة الله على العباد بالإسلام والدين القويم؛ فمَن قَبِله وانقاد له فهو حظُّه، وقد حصل له أكبر النِّعَم وأجلُّ الفضائل، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، فلذلك تأتيهم المنَّة والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه، وفي هذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى، فإن الفتَيَيْنِ لما تقرَّر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال، وأنه محسنٌ معلِّمٌ؛ ذكر لهما أنَّ هذه الحالة التي أنا عليها كلها من فضل الله وإحسانه، حيث مَنَّ عليَّ بترك الشرك وباتبــاع ملة آبائــه، فبهذا وصلتُ إلــى ما رأيتمــا، فينبغي لكما أن تسْــلُكا ما سلكتُ، ثم صرح لهما بالدعوة، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أي: أَأَرْبابٌ عاجزة ضعيفــة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرِّقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الذي له صفات الكمال، ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء من ذلك، ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

ومن المعلوم أن مَن هذا شأنه ووَصْفُه خيرٌ من الآلهة المتفرقة التي هي مجرَّد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها، ولهذا قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: كسوتموها أسماءً، وسمَّيتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ بل أنزل الله الســلطان بالنهي عن عبادتها وبيــان بطلانها، وإذا لم يُنْزِل الله بها ســلطانًا لم يكن طريقٌ ولا وسيلةٌ ولا دليلٌ لها؛ لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويُشــرِّع الشرائع، ويسنُّ الأحكام، وهو الذي أمركم، ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أي: المستقيم الموصِل إلى كل خير، وما ســواه من الأديان فإنها غير مســتقيمة، بل معوجَّــة تُوصِل إلى

كل شر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأَبْيَنُها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك حصل منهم ما حصل من الشرك، فيوسف عليه السلام دعا صاحِبَيِ السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيُحتمَل أنهما استجابَا وانقادَا، فتمَّت عليهما النعمة، ويُحتمل أنَّهما لم يزالَا على شركهما، فقامت عليهما بذلك الحجة، ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما بعدما وعدهما ذلك، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾، وهو الذي رأى أنه يعصِرُ خمرًا، فإنه يخرج من السجن، ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرًا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، ﴿وَأَمَّا ٱلْأَخَرُ﴾ وهو: الذي رأى أنَّه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه، ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ فإنه عبَّر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخِّ، وأنه لا يُقْبَر ويُسْتَر عن الطيور، بل يُصْلَب ويُجْعَل في محلٍّ تتمكَّن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأنَّ هذا التأويل الذي تأوَّله لهما أنه لا بدَّ من وقوعه، فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

أي: ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر له شأني وقصَّتي، لعله يَرِقُّ لي، فيُخرجني مما أنا فيه، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذِكْرَ الله تعالى، وذِكْرَ ما يُقرِّب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذِكْر يوسف الذي يستحقُّ أن يُجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتمَّ الله أمره وقضاءه، ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، والبِضْع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج

يوسف من الســجن؛ قدَّر لذلك سببًا لإخراج يوســف وارتفاع شأنه وإعلاء قدْره، وهو رؤيا الملك.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣ ـ ٤٩].

لما أراد الله تعالى أن يُخْرِج يوسف من السجن أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، التي تأويلها يتنــاول جميع الأمة؛ ليكون تأويلها على يد يوســف، فيُظْهِر من فضله، ويُبَيِّن من علمــه ما يكون له رفعةً في الدارَين، ومن التقادير المناســبة أن الملك الذي ترجع إليه أمــور الرعية هو الــذي رآها؛ لارتباط مصالحها به، وذلك أنه رأى رؤيا هَالَتْه[1]، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾، أي: سبعًا من البقرات ﴿عِجَافٌ﴾، وهذا من العجب، أن الســبع العجاف الهزيلات اللاتي ســقطت قوَّتُهن يأكلن السبع الســمان التي كنَّ نهايةً في القوة، ورأيتُ سَبْع ﴿سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ يأكلهن سبعُ سنبلاتٍ يابساتٍ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾؛ لأنَّ تعبير الجميع واحدٌ، وتأويلهنَّ شيءٌ واحدٌ، ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فتحيَّروا، ولم يعرفوا لها وجهًا، و﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أحــلام لا حاصل لها، ولا لها

---

(١) أي: أفزعته.

تأويلٌ، وهذا جَزْمٌ منهم بما لا يعلمون، وتعذُّرٌ منهم بما ليس بعُذْر، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأمَّا الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنَّا لا نعبرها. فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضغاث[1] أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها! وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحِجَى[2]، وهذا أيضًا من لُطْف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداءً قبل أن يعرِضها على الملأ من قومه وعلمائهم فيعجزوا عنها؛ لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًّا لها غايةً، فعبَّرها يوسفُ؛ وقعت عندهم موقعًا عظيمًا.

وهذا نظيرُ إظهار الله فَضْلَ آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم، فعلَّمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يُظْهِر فضل أفضل خَلْقِه محمد ﷺ في القيامة أن يُلْهِم الله الخَلْق أن يتشفَّعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذِرون عنها، ثم يأتون محمدًا ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق[3]، وينال ذلك المقام المحمود الذي يَغْبِطه به الأولون والآخرون، فسبحان من خَفِيَت ألطافُه، ودقَّت في إيصاله البِرَّ والإحسان إلى خواصِّ أصفيائه وأوليائه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي: من الفتَيَيْنِ، وهو: الذي رأى أنه يعصِرُ خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكُره عند ربه، ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: وتذكَّر يوسف، وما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصَّاه به، وعَلِم أنه كفيلٌ بتعبير

---

(١) أي: أخلاط.

(٢) أي: العقول.

(٣) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

هذه الرؤيا بعد مدَّة من السـنين، فقـال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها، فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنِّفْه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعالـه، ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فإنهـم متشـوِّفون لتعبيرها، وقد أهمَّتْهم، فعبَّر يوسـف السـبع البقرات السمان والسبع السـنبلات الخضر بأنهنَّ سـبع سـنين مُخْصِبات، والسبع البقرات العجاف والسبع السنبلات اليابسات بأنهن سنين مُجْدِبات، ولعلَّ وجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنَّ الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيًّا عليه، وأنه إذا حصل الخصبُ قويت الزروع والحروث، وحسُن منظرها، وكثُرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تُحرَث عليها الأرض، وتُسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلاتُ هي أعظم الأقوات وأفضلها؛ عبَّرها بذلك؛ لوجود المناسـبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشـارة لما يفعلونه، ويستعدُّون به من التدبير في سِنِي الخصب إلى سِنِي الجَدْب، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: متتابعاتٍ، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ من تلك الزروع، ﴿فَذَرُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾؛ لأنه أبقـى له وأبعد من الالتفـات إليه، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: دبِّروا أيضًا أَكْلَكُم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلًا؛ ليَكْثُر ما تدَّخرون ويعظُم نفعُه ووقعه، ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد تلك السـنين السبع المخصبات، ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: مُجْدِباتٌ جدًّا ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يأكلن جميع ما ادَّخرتموه ولو كان كثيرًا، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهنَّ، ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد السـبع الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: فيه تَكْثُر الأمطار والسـيول، وتكثُر الغلاتُ، وتزيد على أقواتهم، حتَّى إنهم يعصِـرون العنب ونحوه زيادةً علـى أكلهم، ولعلَّ

استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مُصَرَّح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد أنَّ العام الذي يليها يزول به شدَّتُها، ومن المعلوم أنَّه لا يزول الجدْب المستمرُّ سبع سنين متوالياتٍ إلا بعام مُخْصِبٍ جدًّا، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا؛ عجبوا من ذلك، وفرِحوا بها أشدَّ الفرح.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٠ ـ ٥٧].

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ لمن عنده ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ أي: بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأن يُخرجوه من السجن ويُحْضِروه إليه، فلمَّا جاء يوسفَ الرسولُ وأمره بالحضور عند الملك امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتَّى تتبيَّن براءتُه التامَّة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام، فقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني به: الملك، ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: اسأله ما شأنهن وقصتهن؛ فإنَّ أمرهن ظاهرٌ متَّضح، ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، فأحضرهنَّ الملك، وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي: شأنكن ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فهل رأيتُن منه ما يَريب؟! فبرَّأنه و﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السببُ الذي تُبْنَى عليه التُّهمة، ولم يَبْقَ إلا ما عند امرأة العزيز، فقالت

﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: تمحَّص وتَبَيَّن بعدما كنَّا نُدْخِل معه من السوء والتُّهمة ما أوجب السجن ليوسف، ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في أقواله وبراءته، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإقرار الذي أقررت أني راودت يوسف، ﴿لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يحتمل أن مرادها بذلك زوجها؛ أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف أني لم أخُنْه بالغيب، أي: لم يَجْر منِّي إلا مجرَّد المراودة، ولم أُفسِدْ عليه فراشه، ويُحتمل أنَّ المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا التي راودتُه، وأنه صادقٌ؛ أني لم أَخُنْه في حال غَيْبَته عني، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فإنَّ كلَّ خائن لا بدَّ أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بدَّ أن يَتبيَّن أمره. ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يَجْرِ منها ذنب في شأن يوسف استدركت فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ أي: من المراودة والهمِّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: لَكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب؛ فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ فنجَّاه من نفسه الأمَّارة، حتى صارت نفسه مطمئنةً إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الرَّدى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: هو غفور لمن تجرَّأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿رَّحِيمٞ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصوابُ؛ أنَّ هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف؛ فإنَّ السياق في كلامها ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضُرْ، فلما تحقَّق الملك والناس براءةَ يوسف التامة أرسل إليه الملِك، وقال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أي: أجعله خصيصة لي ومقرَّبًا لديَّ. فأتوه به مكرَّمًا محترَمًا، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعُه عنده، فقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا﴾ أي: عندنا ﴿مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي: متمكِّن، أمينٌ على الأسرار، فقال يوسف طلبًا للمصلحة العامة:

﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: على خزائن جبايات الأرض وغِلالها، وكيلًا حافظًا مدبرًا، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حفيظ للذي أتولَّاه فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابطٌ للداخل والخارج، عليمٌ بكيفيَّة التدبير والإعطاء والمنع والتصرُّف في جميع أنواع التصرُّفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبةٌ منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه، فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولَّاه إيَّاها.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: بهذه الأسباب والمقدِّمات المذكورة، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ في عيش رغدٍ، ونعمة واسعةٍ، وجاه عريضٍ، ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدَّرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا، فإن الله لا يُضيعُ أجر المحسنين، ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين، فله في الدُّنيا حسنةٌ وفي الآخرة حسنةٌ، ولهذا قال: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٌ﴾ من أجر الدُّنيا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لِمَن جَمَع بين التقوى والإيمان؛ فبالتَّقوى تُتْرك الأمور المحرَّمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التامِّ يحصُلُ تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعُهُ أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبَّات.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ

رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۞ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۞ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۞ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٨].

أي: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض دبَّرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة زروعًا هائلةً، واتَّخذ لها المحلّات الكبار، وجبَى من الأطعمة شيئًا كثيرًا وحفظه، وضبطه ضبطًا تامًّا، فلما دخلت السنون المجدِبة، وسرى الجدب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوبُ بنيه لأجل المِيرَة[1] إلى مصر، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أي: لم يعرفوه، ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: كَالَ لهم كما كان يَكِيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يَكِيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيهم، وهو بنيامين، فقال لهم: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾، ثم رغَّبهم في الإتيان به، فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام، ثم رهَّبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأنَّ ذلك يحملهم على الإتيان به، فقالوا: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾، دلَّ هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولَعًا به لا يصبِر عنه، وكان يتسلَّى به بعد يوسف، فلذلك

---

(١) الميرة. يقال: مارَ أهلَه ويَميرُهم مَيْرًا، وهو مَائِرٌ أهلَه؛ إذا حمل إليهم أقواتَهم من غير بلده.

احتاج إلى مـراودةٍ في بَعْثِه معهـم، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ لمـا أمرتنا به، ﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ الذين في خدمته: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أي: الثمن الذي اشتروا به من الـمِيرة، ﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي: بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأجل التحرُّج من أخْذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغِّبهم في إحسـانه إليهم بالكيل لهم كيلًا وافيًا، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يُحِسُّون بها، ولا يشـعرون لما يأتي؛ فإنَّ الإحسان يوجب للإنسـان تمـام الوفـاء للمُحْسِـن، ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ أي: إن لم تُرْسِـلْ معنا أخانـا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي: ليكون ذلك سببًا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكـره، ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: قـد تقدَّم منكم التزام، أكثـر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تَفُوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أَثِق بـالله تعالـى، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي: يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويردُّه عليَّ، وكأنَّه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم. ثم إنهم لمـا ﴿فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا دليلٌ على أنه قد كان معلومًا عندهم أن يوسف قد ردَّها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملِّكهم إياها، فقالوا لأبيهم ترغيبًا في إرسال أخيهم معهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي: أيُّ شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفَّى لنا الكيل، وردَّ علينا بضاعتنا على هذا الوجه الحسـن، المتضمِّن للإخـلاص ومكارم الأخلاق؟! ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخينا صار سـببًا لكيْله لنا، فمِرْنا أهلنا، وأتينا لهم بما هم مضطـرُّون إليه من القوت، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ بإرسـاله معنا؛ فإنه يكيل لكل واحـد حِمْل بعير، ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي: سـهل لا ينالك ضررٌ؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد

تبيَّنت. فقال لهـم يعقـوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عهدًا ثقيلًا وتحلفون بـالله ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمرٌ لا قِبَل لكم بـه، ولا تقدرون دفعـه، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ على ما قال وأراد؛ ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: تكفينا شهادتُه علينا وحفظه وكفالته.

ثم لما أرسـله معهم وصَّاهم إذا هم قدموا مصـر أن لا يدْخلوا ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، وذلك أنه خاف عليهـم العين؛ لكثرتهم وبهاء مَنْظَرِهم؛ لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سـبب، وإلا فما ﴿أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فالمقدَّر لا بدَّ أن يكـون، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بدَّ أن يقع، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيَّتكم به من السبب، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن بالتوكُّل يحصُل كل مطلوب، ويندفع كل مرهـوب، ﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا و﴿دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ﴾ ذلك الفعـل ﴿يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾، وهو موجب الشـفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوعُ طمأنينةٍ، وقضاءٍ لما في خاطره، وليس هذا قصورًا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾ أي: لَصَاحب علم عظيم، ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إيَّاه، لا بحوله وقوَّته أَدْرَكَه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيءٌ كثيرٌ.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۞ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۞ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۞ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا

جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ۝ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ۝ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٩ ـ ٧٩].

أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: شقيقه، وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به، وضمَّه إليه، واختصَّه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن، ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فإنَّ العاقبة خيرٌ لنا، ثم أخبره بما يريد أن يصنع ويتحيَّل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر، ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: كال لكل واحدٍ من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ وهو: الإناء الذي يُشرَب به، ويُكال فيه، ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ﴾ أَوْعَوْا متاعهم[1]، فلما انطلقوا ذاهبين ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾، ولعل هذا المؤذِّن لم يعلم بحقيقة الحال، ﴿قَالُواْ﴾ أي: إخوة يوسف، ﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ لإبعاد التُّهمة؛ فإنَّ السارق ليس له همٌّ إلا البُعْد والانطلاق عمَّن سرق منه؛ لتَسْلَم له سرقته، وهؤلاء جاؤوا مُقْبِلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رُمُوا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا؟»؛ لجزمهم بأنهم بُرآء من السرقة، ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: أجرة له

(١) أي: جعلوا متاعهم في أوعيتهم.

على وجدانه، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذِّن المتفقِّد، ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؛ فإنَّ السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنَّهم ليسوا مفسدين ولا سارقين؛ لأنَّهم عرفوا أنهم سَبَرُوا من أحوالهم ما يدلُّهم على عفَّتهم وورعهم، وأنَّ هذا الأمر لا يقع منهم بعلم مَن اتَّهموهم، وهذا أبلغ في نفي التُّهمة من أن لو قالوا: «تالله لم نُفسِد في الأرض ولم نسِرقْ»، ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: جزاء هذا الفعل، ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ بأنْ كان معكم؟ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ﴾ أي: الموجود في رَحْله، ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ بأن يتملَّكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم؛ أنَّ السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكًا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿فَبَدَأَ﴾ المفتِّش ﴿بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، وذلك لتزول الريبة التي يظنُّ أنها فُعِلَت بالقصد، فلما لم يجِد في أوعيتهم شيئًا ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ ولم يقل: «وجدها»، أو: «سرقها أخوه» مراعاةً للحقيقة الواقعة، فحينئذ تمَّ ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: يسَّرنا له هذا الكَيْد الذي توصَّل به إلى أمرٍ غير مذموم، ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لأنَّه ليس من دينه أن يُتملَّك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو رُدَّت الحكومة إلى دين الملك لم يتمكَّنْ يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنَّه جعل الحكم منهم؛ ليتمَّ له ما أراد، قال تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصِلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، فكل عالم فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ﴾ هذا الأخ فليس هذا غريبًا منه، ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ يعنون:

يوســف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفســهم، وأنَّ هذا وأخاه قــد يصدر منهما ما يصدر من الســرقة، وهما ليسَــا شــقيقَين لنا، وفي هذا من الغَضِّ عليهما ما فيه، ولهذا أســرَّها ﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كَظَم الغيظ، وأسَــرَّ الأمر في نفســه، و﴿قَالَ﴾ في نفســه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ حيث ذممتمونا بما أنتم على أَشَرَّ منه، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ مِنَّا مِن وَصْفِنا بالســرقة، يعلم الله أنا برآء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملُّق لعله يســمح لهم بأخيهم، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي: وإنــه لا يصبر عنــه، وسيشــقُّ عليه فراقــه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فأَحْسِــنْ إلينــا وإلى أبينــا بذلك، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي: هذا ظلمٌ منا، لو أخذنا البريء بذنب مَن وجدْنا متاعنا عنده، ولم يقلْ: «من ســرق»، كلُّ هذا تحــرُّز مــن الكــذب، ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ أي: إن أخذنــا غيــر مَــن وُجِد فــي رَحْله ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ حيثُ وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۞ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ۞ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۞ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٠ ـ ٨٣].

أي: فلما اســتيأس إخوة يوســف من يوســف أن يســمح لهم بأخيهم، ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾، أي: اجتمعوا وحدهم ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجَوْنَ

فيما بينهم، فقال: ﴿ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ في حفظه، وأنكم تأتونني به إلا أن يُحاط بكم، ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾، فاجتمع عليكم الأمران؛ تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق؛ فليس لي وجهٌ أُواجه به أبي، ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾، أي: سأُقيم في هذه الأرض ولا أزال بها، ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾، أي: يقدِّرُ لي المجيء وحدي، أو مع أخي، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، ثم وصَّاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ أي: وأُخذ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، والحال أنَّا ما شهِدنا بشيء لم نعلمْه، وإنما شهِدنا بما علمنا؛ لأنَّنا رأينا الصُّواع استُخرِج من رحله، ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾، أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولَمَا أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظنَّ أن الأمر سيبلغ ما بلغ، ﴿ وَسْـَٔلِ ﴾ إن شككت في قولنا ﴿ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾، فقد اطَّلعوا على ما أخبرناك به، ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ لم نكذب، ولم نغيِّر ولم نبدِّل، بل هذا الواقع، فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر اشتد حزنه وتضاعَف كَمَدُه، واتَّهمهم أيضًا في هذه القضية، كما اتَّهمهم في الأولى، و﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبُه تسخُّط ولا جزعٌ، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لَمَّا رأى أن الأمر اشتدَّ، والكربة انتهت، فقال: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾، أي: يوسف وبنيامين، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفريجه ومِنَّته، واضطراري إلى إحسانه، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾، الذي جعل لكل شيء قدرًا، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانيَّة.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٤ ـ ٨٦].

أي: وتولَّى يعقوب عليه السلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضَّت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكَمَد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضَّت عيناه من ذلك، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكَّرتْه هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى المصيبةَ الأولى، فقال له أولاده متعجِّبين من حاله: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾، أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، أي: فانيًا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾، أي: لا تترك ذِكْرَه مع قدرتك على ذِكْرِه أبدًا، فقال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى﴾، أي: ما أبثُّ من الكلام، ﴿وَحُزْنِىٓ﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم، ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنَّه سيردُّهم عليَّ، ويُقِرُّ عيني بالاجتماع بهم.

﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ۝ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٧ ـ ٩٢].

أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما، ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾، فإن الرجاء يوجِبُ للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجِبُ له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رَجَا العبادُ فضلُ الله وإحسانه ورحمته وروحه، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾، فإنَّهم ـ لكفرهم ـ يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدةٌ منهم، فلا تتشبَّهوا بالكافرين، ودلَّ هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله ورَوْحه، فذهبوا ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ ﴾، أي: على يوسف، ﴿ قَالُواْ ﴾ متضرِّعين إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ ﴾، أي: قد اضْطُرِرْنا نحن وأهلنا ﴿ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ ﴾، أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلَّتها، وعدم وقوعها الموقع ﴿ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ ﴾، أي: مع عدم وفاء العرض، ﴿ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ ﴾ بالزيادة عن الواجب، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ بثواب الدنيا والآخرة.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أَشُدَّه، رَقَّ لهم يوسف رقَّةً شديدةً، وعرَّفهم بنفسه، وعاتَبَهم فقال: ﴿ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾، أما يوسف فظاهرٌ فِعْلُهم فيه، وأما أخوه فلعلَّه ـ والله أعلم ـ قولهم: ﴿ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾، أو أن الحادث الذي فرَّق بينه وبين أبيه هم السبب فيه، والأصل الموجِب له، ﴿ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾، وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخٌ لهم إذْ فعلوا فِعْلَ الجاهلين، مع أنَّه لا ينبغي ولا يَلِيق منهم، فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ ﴾ بالإيمان والتقوى والتمكين في الدُّنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ ﴾، أي: يتَّقي فِعْلَ ما حرَّم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾،

فإنَّ هذا من الإحسان، والله لا يُضيعُ أجرَ مَن أحسن عملًا، ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أي: فضَّلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصْنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكَّنك مما تريد، ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجُرم الحاصل منهم على يوسف، فقال لهم يوسف عليه السلام كرمًا وجودًا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: لا أُثرِّبُ عليكم ولا ألومكم، ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فسمح لهم سماحًا تامًّا من غير تعيير لهم على ذِكْر الذَّنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتَّى إلا مِن خواصِّ الخلق وخيار المصطفَيْن.

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۞ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۞ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۞ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٣ ـ ٩٨].

أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾؛ لأنَّ كلَّ داءٍ يداوَى بضده؛ فهذا القميص ـ لَمَّا كان فيه أثر ريح يوسف الذي أوْدع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم ـ أراد أن يَشُمَّه فترجِع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصرُه، ولله في ذلك حِكَمٌ وأسرارٌ لا يطَّلع عليها العباد، وقد اطَّلع يوسف من ذلك على هذا الأمر، ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم؛ ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنْكُ الرزق. ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ عن أرض مصر مقبلةً إلى أرض فلسطين شمَّ يعقوبُ ريحَ القميص،

فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، أي: تسخرون منّي، وتزعُمون أنَّ هذا الكلام صدر منّي من غير شعور؛ لأنَّه رأى منهم من التعجُّب من حاله ما أوجب له هــذا القول، فوقــع ما ظنَّه بهم، فقالــوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾، أي: لا تزال تائهًا في بحرٍ لُجّيٍّ، لا تــدري ما تقول، ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ بقرب الاجتماع بيوســف وإخوته وأبيهــم، ﴿أَلْقَاهُ﴾، أي: القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾، أي: رجع على حاله الأولى بصيرًا، بعد أن ابيضَّت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره مــن أولاده وأهله الذين كانوا يفنِّدون رأيه، ويتعجَّبون منه منتصرًا عليهم، مُتبجِّحًا بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، حيث كنــتُ مترجِّيًا للقاء يوســف، مترقِّبًا لزوال الهمِّ والغمِّ والحزن، فأقرُّوا بذنبهم، ونجعوا بذلك، و﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، حيث فعلنــا معك ما فعلنــا. فقال مجيبًــا لطَلِبَتهم، ومســرعًا لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمَّدكم برحمته، وقد قيل: إنه أخَّر الاستغفار لهم إلى وقت السَّحَر الفاضل؛ ليكون أتمَّ للاستغفار، وأقرب للإجابة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ۞ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠١].

﴿فَلَمَّا﴾ تجهَّز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسُكْناها، فلما وصلوا إليه، و﴿دَخَلُوا

عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾، أي: ضمَّهما إليـــه، واختصَّهما بقُربه، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا، ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال الســارَّة، وزال عنهم النَّصب ونكد المعيشــة، وحصل الســرور والبهجة، ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، أي: على سرير الملك، ومجلس العزيز، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾، أي: أبـــوه، وأمه وإخوته، ســجودًا على وجــه التعظيم والتبجيل والإكرام، ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾، حين رأى أحد عشــر كوكبًا والشــمس والقمر له ســاجدين؛ فهذا وقوعُها الذي آلَتْ إليه ووصلــت، ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ فلم يجْعلها أضغاث أحلام، ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ إحســانًا جســيمًا، ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾، وهذا من لُطْفه وحُسْــن خطابه عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ذكر حاله في الســجن، ولم يذْكُرْ حاله في الجُبِّ؛ لتمام عَفْــوِه عن إخوته، وأنَّه لا يذكر ذلك الذنب، وأنَّ إتيانكم من البادية من إحســان الله إليَّ، فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أحسنَ بكم»، بل قال: ﴿أَحۡسَنَ بِيٓ﴾، جعل الإحســان عائدًا إليه، فتبارك من يختصُّ برحمته من يشــاء من عباده، ويَهَبُ لهم مِن لَدُنْه رحمةً، إنه هــو الوهاب، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، فلم يقل: «نزغ الشيطان إخوتي»، بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشــيطان ودَحَــرَه، وجمعنا بعد تلك الفُرقة الشــاقة، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ يوصِلُ بِرَّه وإحســانه إلى العبد من حيث لا يشــعر، ويُوصِلُه إلى المنازل الرفيعة من أمــور يكرهها، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي يعلــم ظواهر الأمور وبواطِنها، وســرائر العبــاد وضمائرهم، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضِعَها، وسَــوْقِهِ الأمور إلى أوقاتها المقدَّرة لها، لمَّا أتمَّ الله ليوســف ما أتمَّ من التمكين في الأرض والملك، وأقرَّ عينه

بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطـاه الله إيَّاه، قال مُقِرًّا بنعمة الله شـاكرًا لها، داعيًا بالثبات على الإسلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، وذلك أنَّه كان على خزائن الأرض وتدبيرهـا، ووزيرًا كبيرًا للملك، ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، أي: من تأويـل أحاديث الكتب المنزَّلـة، وتأويل الرؤيا، وغير ذلك من العلـم، ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾، أي: أَدِمْ عليَّ الإسـلام، وثَبِّتْني عليه حتى توفَّاني عليه، ولم يكن هذا دعاءً باستعجال الموت، ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.



فوائد مستنبَطة من قصة يوسف عليه السلام

فهذه فوائد مستنبَطة من قصة يوسف عليه السلام هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾، وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، والعبرة ما يُعتبَر به، ويُعْبَر منه إلى معانٍ وأحكام نافعة، وتوجيهات إلى الخيرات، وتحذير من المهلكات.

فمن ذلك: أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأَبْيَنها؛ وفيها آيات وعِبَر منوَّعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد؛ لما فيها من أنواع التنقُّلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومِنَّة، ومِن ذلٍّ إلى عزٍّ، ومن رقٍّ إلى ملك، ومن فُرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن وتَرَحٍ إلى سرور وفرح، ومن رخاء إلى جَدْب، ومن جدبٍ إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكارٍ إلى إقرار، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه القصة العظيمة، فتبارك مَن قَصَّها فأحسنها، ووضَّحها وبيَّنها.

ومنها: أن فيها أصولًا لعلم تعبير الرؤيا؛ فإنَّ علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله مَن يشاء من عباده، منهم مَن بناه على حُسْن الفهم، والعبور من الألفاظ والمحسوسات والمعنويات، أو ما يناسبها بحسب حال الرائي، وبحسب الوقت والحال المتعلقة بالرؤيا.

وقد أثنى الله على يوسف عليه السلام بعلمه بتأويل الأحاديث؛ تأويل أحاديث الأحكام الشرعية، والأحاديث المتعلقة بتعبير الرؤيا، والفرق بين الأحلام التي هي أضغاث أحلام لا تأويل لها، مثل ما يراه من يفكر ويطيل تأمُّله لبعض الأمور، فإنه كثيرًا ما يرى في منامه من جنس ما يُفكِّر به في يقظته، فهذا النوع الغالب عليه أنه أضغاث أحلام لا تعبير له، وكذلك نوع آخر

ما يُلْقِيه الشيطان على روح النائم من المَرائي الكاذبة والمعاني المتخبِّطة، فهذه أيضًا لا تعبير لها، ولا ينبغي للعاقل أن يشغل بها فكره، بل ينبغي له أن يُلْهَى عنها.

وأما الرؤيا الصحيحة فهي إلهامات يُلهمها الله للروح عند تجرُّدها عن البدن وقت النوم، أو أمثال مضروبة يضربها الملَك للإنسان ليفهم بها ما يناسبها، وقد يرى الشيء على حقيقته ويكون تعبيره هو ما رآه في منامه؛ فيوسف عليه السلام أعطاه الله من العلم ما يميِّز به بين المرائي الصحيحة والباطلة، والحق والباطل منها، **وهذه القصة** فيها الدلالة على تعبير الرؤيا من وجوه؛ أحدها: رؤيا يوسف التي قصَّها على أبيه يعقوب عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ففَسَّرَها يعقوب عليه السلام بغاياتها، وما تؤول إليه، وبوسائلها التي تتقدَّم عليها، ففسَّر الشمس والقمر بأبي يوسف وأمه، والكواكب الأحد عشر بإخوته، وأن الحال سيكون مآلها أن الجميع لَيَسْجدون ليوسف ويخضعون له، ولهذا لما حصل الاجتماع ودخل أبوه وأمه وإخوته مصر ورفع أبوَيْه على العرش خرَّ الجميع له سُجَّدًا، وقال يوسف متذكِّرًا ذلك التعبير والتفسير: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وهذا أمر عظيم اتَّصَل بيوسف في الحال أن يكون مُعَظَّمًا تعظيمًا بليغًا عند أبوَيْه وإخوته، وكذلك عند الناس.

وهذه الغاية تستدعي وسائل ومقدِّمات لا تحصل إلا بها، وهو العلم الكثير العظيم، والعمل الصالح، والإخلاص، والاجتباء من الله، والقيام بحق الله وحقوق الخلق، فلهذا قال سبحانه في ذِكْر السبب الموصِل لهذه الغاية الجليلة: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، يعني: لا بد أن يُتِمَّ الله عليك نعمته بتعليم العلوم النافعة، والأعمال الصالحة،

والاجتباء من الله، وحصول الأخلاق الجميلة والمقامات الجليلة، فيُبَشِّره بحصول هذه الأمور، ثم بالوصول إلى الرفعة في الدنيا والآخرة.

فإنَّ رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين **وجهُ المناسبة فيها**: أنَّ هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمالٌ، وبهم يُهْتَدَى في الظُّلمات كما يُهْتَدَى بهذه الأنوار، ولأنَّ الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع؛ فمن المناسب أن يكون الأصلُ أعظمَ نورًا وجِرْمًا لما هو فرعٌ عنه، فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أنَّ الشمس لفظٌ مؤنثٌ، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكَّرات؛ فكانت لأبيه وإخوته.

ومن المناسبة أنَّ الساجد معظِّمٌ مُحترِم للمسجود له، والمسجودُ له معظَّم مُحترَمٌ؛ فلذلك دَلَّ ذلك على أن يوسف يكون معظَّمًا محترمًا عند أبويه وإخوته، ومِن لازم ذلك أن يكون مجتبًى مُفَضَّلًا في العلم والفضائل الموجِبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾.

وفي ضمن هذا التعبير من يعقوب ليوسف **بشارةٌ له**، وتسهيل لما سيناله من المشقات والكروب مع إخوته وفي السجن، فإن مَن عَلِمَ أن المكاره والمشقَّات تُفْضِي إلى الخير والراحات تَسلَّى، وهانت عليه مشقَّتُها، وسهلت عليه وطأتها، وحصل بذلك من اللطف والرَّوْح شيء عظيم، وهذا من جملة اللطف الذي أشار إليه يوسف في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وهذا من مقتضى حكمة الله أن المراتب العاليات لا تُنال إلا بالوسائل الجليلة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف: ٦].

ومن فوائد هذا التعبير لرؤيا يوسف بشارة عظيمة ليعقوب وأم يوسف وإخوته بحصول الرفعة والصلاح والخير؛ فيعقوب عليه السلام من أكابر الأنبياء

وأفاضل الأصفياء، وأُمُّه لها من الخيـر والصلاح والرفعة في الدنيا والآخرة، حيث شُبِّهَت بالشـمس أو بالقمر؛ على اختلاف القولَين، وإخوة يوسف وإن كان قد جرى منهم فـي حق أبيهم وأخيهـم من الأذية والعقـوق والقطيعة ما جرى، ولكنَّ أباهـم وأخاهم عَفَـوَا عنهـم، واسـتغفرَا الله تعالى أرحم الراحمين، فالشمس والقمر والنجوم تضمَّنت النور والارتفاع، ولكنها متفاوتة في نورها بحسب التفاوت بين الأبوَيْن وبين الإخوة.

فالحاصل أن هـذه الرؤيا تضمَّنت ما حصل ليوسـف عليه السلام من خير الدنيا والآخرة، والمقامات العظيمة، والوسائل والـمِنَن التي أوردتها هذه الأمور، وما حصل لأبوَيْه وإخوته من مشاركته في خير الدنيا والآخرة، والله تعالى أعلم.

وأما رؤيا الفتَيَيْن حيث: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦]، فتلطَّفُوا ليوسف أن ينبئهما بتأويل رؤياهما لما شـاهدَا من إحسانه للأشياء، وإحسانه إلى الخلق، ففسَّـر رؤيا مَن رأى أنه يعصر خمرًا أنه ينجو من سجنه، ويعود إلى مرتبته وخدمته لسـيده، فيعصر له العنب الذي يؤُول إلى الخمر، وفسَّر رؤيا الآخر بأنه يُقتَل ثم يُصْلَب، فتأكل الطير من رأسه.

فالأول: رؤياه جاءت على وجـه الحقيقة، والآخر رؤياه جاءت على وجه المثال، وأنه يُقْتَل، ومع قتله يُصْلَب ولا يُدْفَن حتى تأكل الطيور من رأسـه، وهذا من الفهم العجيب، والغوص إلى المعاني الدقيقة.

وذلك أن العادة أن المقتول يُدْفَن في الحال، ولا تتمكَّن السباع والطيور من الأكل منه، ففهم أن هذا سـيُقْتَل ولا يُدْفَن سـريعًا حتـى يصل إلى هذه الحال، وفي هذا من فضيحته وخزيه وسـوء مصيره الدنيوي ما تَقْشَـعِرُّ منه الجلود، وحيث علم أن هـذه الرؤيا صحيحة لا بد مـن وقوعها، قال لهما: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، وهذا من كمال علمه للتعبير الذي

لا يُعَبَّر عن ظنٍّ وتَوَهُّم، وإنما يعبِّر عن علم ويقين، وأما المناسبة في ذلك أن الطيور لا تقرب الحي، وإنما تتناول الميت إذا لم يكن عنده أحد، وهذا إنما يكون بعد قتله وصلبه.

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين: أنَّه أوَّل رؤيا الذي رأى أنَّه يعصِرُ خمرًا؛ أنَّ الذي يعصر الخمر في العادة يكون خادمًا لغيره، والعصرُ يُقْصَد لغيره؛ فلذلك أوَّله بما يؤول إليه؛ أنَّه يسقي ربَّه، وذلك متضمِّن لخروجه من السجن.

وأوَّل الذي رأى أنه يحمِل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه بأنَّ جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخِّ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحلٍّ تتمكَّن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنَّه سيُقتَل، ويُصلَب بعد موته، فيُبْرَز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأما رؤيا الملك، فإنه رأى سبع بقراتٍ سِمان يأكلهن سبع بقراتٍ عجاف، وسبع سنبلات خضر يأكلهن ويستولي عليهن سبع سنبلات يابسات ضعيفات، فهالته، وجَمَعَ لها كل من يظن فيه المعرفة، فلم يكن عند أحد منهم علم بتعبيرها، وقالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

وبعد هذا تفطَّن الذي خرج من السجن لحالة يوسف، وما هو عليه من العلم العظيم والعلم بالتعبير، وتفطَّن لوصيته التي أنساه الشيطان ذِكْر ربه لحكمة قد فصح أمرها، وأنه لا يخرج من السجن إلا بعد اشتهاره، وتميُّزه العظيم على الناس كلهم بتعبير رؤيا الملك، فطلب هذا الرجل من الملك أن يُرْسِله إلى يوسف، وأنه كفيل بمعرفة تفسيرها، فلما جاء يوسف قال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٦]، فإن الملك والناس معه أرسلوني إليك لتفسيرها لهم، وهم بانتظار ذلك متشوِّقين إليه غاية التشوق، ولهذا قال: ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦] ما ألهم الملك وأزعجه ولاعه.

ففي الحال فسَّرها يوسف عليه السلام، وزادهم مع التفسير حُسْن العمل بها وحُسْن التدبير، **فأخبرهم** أن البقر السّمان والسنابل السبع الخَضِرات هي سنون رخاء وخصب متواليات، تتقدَّم على السنين المجدبات، وأن البقر العجاف والسنابل اليابسات سنون جَدْب تليها، وأن بعد هذه السنين المجدبات عامًا فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون، وأنه ينبغي لهم في السنين المخصبات أن ينتهزوا الفرصة، ويَعُدُّوا العدة للسنين الشديدات، فيزرعون زروعًا هائلة أزيد بكثير من المعتاد، ولهذا: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧].

ومن المعلوم أن جميع السنين يزرع الناس، لكنه أراد منهم أن يزرعوا زروعًا كثيرة، ويبذلوا قواهم في كل ما يَقْدِرون عليه، وأنهم يحتاطون في الغلات إذا حصلت بالتحصين والاقتصاد، فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، أي: احفظوا الحاصلات من الزرع حِفْظًا تَسْلَم به من الفساد والسوس بأن تبقى في سنابلها، ويقتصدون في هذه المدة مدة الرخاء فلا يُسْرِفوا في الإنفاق، بل يأكلون القليل ويحفظون الكثير.

وإن بعد هذه السنين المخصبات سيأتي سبعُ سنين مجدبات شديدات تشمل الديار المصرية وما حولها، وإنها تأكل ما قُدِّم لها مما حُفِظ في سنين الخصب إلا قليلًا مما تُحْصِنون، **ووجه المناسبة** أنه كما تقدَّم أن الرؤيا تعبَّر بحال رائيها والمناسبات المتعلقة بها؛ كالرائي لها الملك الذي تتعلق به أركان الرعية وأمورها، ولهذا كانت رؤياه ليست خاصة له، بل تشمل الناس والرعية.

ووجه المناسبة في تفسير البقرات والسنابل بالسنين ظاهر في البقر من وجهين:

أحدهما: أنها هي التي في الغالب يُحْرَث عليها الأرض، والحروث والزروع وتوابعها تبعٌ للسنين في خصبها وجدبها.

والوجه الثاني: البقر من المواشي التي سِمَنها وعَجَفها تَبَعٌ للسنين أيضًا، فإذا أخصبت سمنت، وإذا أجدبت عَجِفت وهَزِلَتْ، وكذلك السنابل تزهو الزروع وتكمل وتنمو مع كثرة الماء والسنين المخصباتِ، وتضعف وتيبس مع السنين المجدبات، فكانت رؤياه في البقرة والسنابل من أوصاف السنين وآثارها، ومِن ذِكْر الوسائل والغايات، فالحرث للأراضي وسيلة، ونمو الزرع وحصول السمن في المواشي هو الغاية من ذلك والمقصود.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]، أي: يحصل للناس فيه غيث مُغِيث تُعِيد الأراضي خصبها، ويزول عنها جدبها، وذلك مأخوذ من تقييد السنين المجدبات بالسبع، فدلَّ هذا القيد على أنه يلي هذه السبع ما يُزيل شدتها ويرفع جدبها، ومعلوم أن توالي سبع سنين مجدبات لا يُبقي في الأرض من آثار الخَضِر والنبات والزروع ونحوها لا قليلًا ولا كثيرًا، ولا يرفع هذا الجدب العظيم إلا غيث عظيم، وهذا ظاهر جدًّا، أخذه من رؤيا الملك.

ومن العجب أن جميع التفاسير التي وقفت عليها لم تذكر هذا المعنى مع وضوحه، بل قالوا: لعل يوسف عليه السلام جاءه وحي خاص في هذا العام الذي فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، والأمر لا يحتاج إلى ما ذكروه، بل هو ولله الحمد ظاهر من مفهوم العدد، وأيضًا ظاهر من السياق، فإنه جعل هذا التعبير والتفسير توضيحًا لرؤيا الملك.

ثم اعلم أن رؤيا الملك وتعبير يوسف لها، وتدبيره ذلك التدبير العجيب من رحمة الله العظيمة على يوسف، وعلى الملك، وعلى الناس، فلولا هذه الرؤيا وهذا التعبير والتدبير لهجمت على الناس السنون المجدبات قبل أن يُعِدُّوا لها عدتها، فيقع الضرر الكبير على الأقطار المصرية وعلى ما جاورها.

فصار ذلك رحمة بهم وبغيرهم من الخلق، ألا ترى كيف شـمل الجدب البلاد المصرية، وشمل البلاد الشامية وفلسطين وغيرها، حتى احتاجوا إلى الاكتيال من مصر، واحتاج يوسف أن يُقَدِّر للجميع، ويوزِّع عليهم توزيعًا عادلًا، فيه الرفق بالجميع والإبقاء عليهم، وكان هذا العلم العظيم من يوسف هو السبب الأعظم في خروجه من السجن، وتقريب الملك له من اختصاصه به، وتمكينه من ﴿ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، وهذا من إحسانه، والله لا يضيع أجر المحسنين، ومع هذا الفضل، وفضل الله أعظم من ذلك، يصيب برحمته من يشاء ممن يختاره، ويختصه ويجمع له خير الدنيا والآخرة.

ومنها: ما فيها من الأدلَّة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قصَّ على قومه هذه القصة الطويلة وهو لم يقرأ كتب الأولين، ولا دَارَس أحدًا يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساءً، وهو أمِّيٌّ لا يخطُّ ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة حيث قَصَّها على الوجه المطابق، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾، كما ذكر الله هذا المعنى في قصة موسى وغيره من الأنبياء؛ لأن **الغيوب نوعان:** أمور سابقة قد اندرس علمها، نبَّأه الله بها، وأمور مستقبلة قد نبَّأه الله بها قبل أن تقع فوقعت، ولا تزال تقع شيئًا بعد شيء مطابِقةً لما أخبر به ﷺ في كتاب الله وفي سنة رسوله، وكلها براهين على رسالته.

ومنها: أنه ينبغي البُعْد عن أسباب الشر، وكتمان ما تُخْشَى مضرَّته، والحث على التحرُّز منه؛ لقول يعقوب ليوسف: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾، وما فيها من التأكيد عليهم في حفظه حين أرسله معهم، ثم عند إرسال أخيه بنيامين بعد ذلك أخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، فالإنسان مأمور بالاحتراز، فإن نفع فذاك، وإلا لم يَلُم العبد نفسه.

ومنها: أنه يجوز ذِكْر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أنَّ نعمة الله على العبد نعمةٌ على مَن يتعلَّق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنَّه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوبُ في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، ولما تمَّت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العزِّ والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أنَّ العدل مطلوبٌ في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رَعِيَّتَه، ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده في المحبَّة والإيثار وغيره، وأنَّ في الإخلال بذلك يختلُّ عليه الأمر، وتفْسُد الأحوال، ولهذا لما قدَّم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: أنه يتعين على الإنسان أن يعدل بين أولاده، وينبغي له إذا كان يحب أحدهم أكثر من غيره أن يُخْفِي ذلك مهما أمكنه، وألَّا يُفَضِّله بما يقتضيه الحب من إيثار بشيء من الأشياء، فإنه أقرب إلى صلاح الأولاد وبِرِّهم به، واتفاقهم فيما بينهم، ولهذا لما ظهر لإخوة يوسف من محبة يعقوب الشديدة ليوسف وعدم صبره عنه وانشغاله به عنهم سعوا في أمرٍ وخيم، وهو التفريق بينه وبين أبيه، وهذا صريح جدًّا؛ أن السبب الذي حملهم على ما فعلوا بيوسف من التفريق بينه وبين أبيه هو تمييزه بالمحبة، ومع هذا فلا يحل هذا الأمر الشنيع، وهم يعلمون أنه لا يحل لهم، ولكنهم قالوا: افعلوا هذا الجرم العظيم وتوبوا إلى الله بعده، وهذا لا يحل أن يواقع العبد الذنب بأي حالة يكون ولو أضمر أنه سيتوب منه، فالذنب يجب اجتنابه، فإذا وقع وجبت التوبة منه.

ولعل من حكمة الله ورحمته بيعقوب ما قدَّره عليه من الفُرقة التي أحدثت له من الحزن والمصيبة ما أحدثت رفعةً لمقاماته في الدنيا والآخرة، وليكون للنعمة عند حصول الاجتماع لها الموقع الأكبر والشـكر الكثير، والثناء على الله بها، وليصل ولده يوسف إلى ما وصل إليه من المقامات الجليلة.

ومنها: أن آيات الله إنَّما ينتفع بها السـائل المسـتهدي الذي قصده معرفة الحق واتباعه؛ لقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أما الغافلون المعرِضون أو المعارضون المعاندون فإنه يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، فالنظر في آيـات الله المتلوَّة وآيات الله الكونية ينفع من قصده الحق، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائـدة: ١٦]، وكم في القرآن تقييد الانتفاع بهذا القيد، كقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجـر: ٧٧] ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأنَّ الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتمُّ لفاعله إلا بعدة جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عـدة مرات، وزوَّروا على أبيهم في القميص والدَّم الذي فيه، وفي إتيانهم عشـاءً يبكون، ولا تستبعد أنَّه قد كَثُر البحث فيها في تلـك المدَّة، بل لعلَّ ذلك اتَّصل إلى أن اجتمعوا بيوسـف، وكلما صار البحث حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤمُ الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أنه لا ينبغي أن يغترَّ بمجرد صورة القرائن، ولما أتت إلى شُـرَيح امرأة مع خصمها أرسـلت عينيها بالبكاء، فقال لشـريح بعـضُ الحاضرين: ما أظن البائسة إلا مظلومة، فقال شريح: ألم تسمع قصة إخوة يوسف إذ أتوا

﴿أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾، هل كانوا مظلومين أو ظالمين؟! فكم حصل بمثل هذه التمويهات من الاغترار وقلب الحقائق، لهذا كان الأذكياء يجعلون كل احتمال على بالهم، وينظرون إلى الأمور من جميع جهاتها ونواحيها.

ومنها: أنَّ العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإنَّ أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدُّعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقِّه فالله خير الراحمين، ولهذا ـ في أصح الأقوال ـ أنهم كانوا أنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدلُّ على ذلك أن في رؤيا يوسف أنه رآهم كواكب نيِّرة، والكواكب فيها النور والهداية، الذي من صفات الأنبياء، فإنْ لم يكونوا أنبياء فإنَّهم علماء هداة.

ومنها: ما منَّ الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعَفْوه عن إخوته الخاطئين عفوًا بادرهم به، وتمَّم ذلك بأن لا يُثرِّب عليهم ولا يُعَيِّرَهم به، ثم بِرُّه العظيم بأبوَيه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشرِّ أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررَين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإنَّ إخوة يوسف لما اتَّفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضًا، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾؛ كان قوله أحسن منهم وأخفَّ، وبسببه خفَّ عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أنَّ الشيء إذا تداولته الأيدي، وصار من جملة الأموال، ولم يُعْلَم أنه كان على غير وجه الشرع؛ أنَّه لا إثم على مَن باشره ببيع أو شراء، أو

خدمةٍ أو انتفـاع، أو اسـتعمال؛ فإنَّ يوسـف عليه السلام باعه إخوتُه بيعًـا حرامًا لا يجوز، ثم ذهبتْ به السـيَّارة إلى مصر، فباعوه بها، وبقي عند سيِّده غلامًا رقيقًا، وسمَّاه الله سيدًا، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: أن الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى العباد سبب يُنال به العلم، وتُنال به خيرات الدنيـا والآخرة؛ لقولـه: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسـف: ٢٢]، وقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧]، فجعل الله الإحسان سببًا لنَيْل هذه المراتب العالية.

ومنها: أن النظر إلـى الغايات المحبوبـة يهوِّن المشـاق المعترضة في وسـائلها، فمتى علم العبد عاقبة الأمر وما يئول إليه من خير الدنيا والآخرة هانت عليه المشـقة، وتسـلَّى بالغاية؛ لقوله تعالـى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسـف: ١٥]، فأوحى إلى يوسـف في هذه الحال المزعجة أن الأمر سـيكون إلى خير وسـعة، وبعد هذه الإهانة الصادرة من إخوتك لك ستكون لك الأثرة عليهم والعاقبة الحميدة، وفي هذا من اللطف والتسـلية وتخفيف البلاء ما هو من أعظم نِعَم الله على العبد، ولهذا المعنى الجليل يذكِّر الله عباده عند المشاق والأمور المزعجة ما يترتب على ذلك من الثـواب والخيـر والطمع في فضلـه، قال تعالـى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يُخشى منهنَّ الفتنة، والحذر أيضًا من المحبَّة التي يُخشـى ضررها؛ فإنَّ امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحُّدها بيوسف، وحبِّها الشديد له، الذي ما تركها حتَّى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسُجِن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أنَّ الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله مما يقرِّبه إلى الله زلفى؛ لأنَّ الهمَّ داعٍ من دواعي النفس الأمَّارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابَل بينه وبين محبَّة الله وخشيته غلبتْ محبَّة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، ومن السبعة الذين يُظْلِهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنـي أخاف الله»[1]، وإنَّما الهمُّ الذي يُلام عليه العبد هو الهمُّ الذي يساكنه، ويصير عزمًا ربَّما اقترن به الفعل.

ومنها: أنَّ مَن دخل الإيمانُ قلبه، وكان مخلصًا لله في جميع أموره؛ فإنَّ الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاءٌ لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، على قراءة مَن قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح فإنَّه من إخلاص الله إياه، وهو متضمِّن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلَّصه من الشرور، وعصمه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلًّا فيه فتنة وأسباب معصية أن يفرَّ منه ويهرب غاية ما يمكِنُه؛ ليتمكَّن من التخلُّص من المعصية؛ لأنَّ يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها فرَّ هاربًا يطلُبُ الباب ليتخلَّص من شرِّها.

ومنها: أنَّ القرائن يُعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصَم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار فما يصلُح للرجل فإنَّه للرجل، وما يصلُح للمرأة فهو لها، هذا إذ لم يكن بيِّنة، وكذا لو تنازَع نجارٌ وحدادٌ في آلة حرفتهما من غير بيِّنة، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هذا الباب؛ فإنَّ شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قَدِّ القميص، واستدلَّ بقَدِّه من دُبُره على صِدْق يوسف وكذبها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

ومما يدلُّ على هذه القاعدة أنَّه استدلَّ بوجود الصُّواع في رَحْل أخيه على الحكم عليه بالسـرقة من غيـر بيِّنة شـهادةٍ ولا إقرار، فعلى هـذا إذا وُجِد المسروق في يد السارق، خصوصًا إذا كان معروفًا بالسرقة؛ فإنَّه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيَّأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيِّد حاملًا؛ فإنَّه يُقام بذلك الحدُّ ما لم يقمْ مانعٌ منه، ولهذا سمَّى الله هذا الحكم شاهدًا، فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

ومنها: تكميل يوسف صلوات الله عليه لمراتب الصبر، **الصبر الاضطراري:** وهو صبر على أذية إخوته، وما ترتَّب عليها مـن بُعْدِه عن أبويه، وصبره في السـجن بضع سـنين، **والصبر الاختياري:** هو صبر على مراودة سيدته امرأة العزيز مع وجود الدواعي القويـة من جمالها وعلو منصبها، وكونها هي التي راودته عن نفسه وغلَّقت الأبواب، وهو في غاية ريعان الشباب، وليس عنده من قرابته ومعارفـه الأصليين أحد، ومع هذه الأمور ومع قوة الشـهوة مَنَعَهُ الإيمان الصادق، والإخلاص الكامل من مواقعـة المحظور، وهذا هو المراد بقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسـف: ٢٤]، فهو برهان الإيمان الذي يغلب جميع القوى النفسـية، فكان هو مقدَّم السـبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وهو «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»، ثم بعد ذلك راودته المرأة، واستعانت بالنسوة اللاتي قطَّعن أيديهن، فلم تُحَدِّثه نفسه، ولم يَزَل الإيمان ملازمًا له في أحواله، حتى قال بعدما توعَّدته بقولهـا: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسـف: ٣٢، ٣٣]، فاختـار السـجن علـى مواقعـة المحظور، ومع ذلك فلم يَتَّكِل على نفسـه، بل استغاث بربه أن يصرف عنه شرهن، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]، وكما أنه كمَّل مراتب الصبر، فقد كمَّل مراتب العدل والإحسـان للرعية حين

تولى خزائن البلاد المصرية، وكمَّل مراتب العفو والكرم حين قال له إخوته: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ۞ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩١ ـ ٩٢]، فارتقى ﷺ إلى أعلى مقامات الفضل والخير والصدق والكمال، ونشر الله له الثناءَين الكاملين في العالمين.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن؛ فإنَّ جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتْهن حين لُمْنَها على ذلك أن قطَّعن أيديهنَّ، وقلن: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وأما جماله الباطن فهو العفَّة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾، وقالت بعد ذلك: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وقالت النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية؛ فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتُلِيَ بين أمرَين؛ إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية؛ أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجِب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبدُ أن يعودَ في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكرهُ أن يُلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله عند خوف الوقوع في فتن المعاصي والذنوب، ويحتمِي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرَّأ من حوله وقوته، مع الصبر والاجتهاد في البُعد عنها، كما فعل يوسف عليه السلام ودعا ربه: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وأن العبد لا حول ولا قوة ولا عصمة له إلا بالله، فالعبد مأمور بفعل المأمور، وتَرْك المحظور، والصبر على المقدور، مع الاستعانة بالملك الشكور.

ومنها: أنَّ العلــم والعقل يدعوان صاحبهما إلــى الخير، وينهيانه عن الشر، وأنَّ الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضارًّا لصاحبه.

ومنها: أن الجهل كما يطلق على عــدم العلم فإنه يطلق على عدم الحلم، وعلى ارتكاب الذنب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوســف: ٣٣]، وأمــا قولــه: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوســف: ٨٩] ليس المعنى فــي ذلك عدم العلــم، وإنما هو عدم العمل به واقتحــام الذنوب، ومنه قول موســى ﵇: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، وكل من عصى الله فهو جاهل باعتبار عدم العمل بالعلم؛ لأن العلم الحقيقي ما زال به الجهلُ وأوجب العملَ.

ومنها: أنَّه كمــا على العبد عبوديَّــة لله في الرخاء، فعليــه عبودية له في الشــدَّة؛ فيوســف ﵇ لم يَزَلْ يدعو إلى الله، فلما دخل السجن استمرَّ على ذلك، ودعا الفتَيَيْن إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته ﵇ أنَّه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنَّا فيه الظنَّ الحسن، وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وأتياه لأن يعْبُر لهما رؤياهما، فرآهما متشوِّقَيْن لتعبيرها عنده، رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعْبُر رؤياهما؛ ليكون أنجحَ لمقصوده، وأقربَ لحصول مطلوبه، وبيَّن لهمــا أولًا أنَّ الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم إيمانه وتوحيده، وتَرْكه مِلَّة مَن لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاءٌ لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبيَّن فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنَّه يبدأ بالأهمِّ فالأهمِّ، وأنَّه إذا سُئِل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد؛ أنَّه ينبغي له أن يعلِّمه ما يحتاجُ إليه قبل أن يجيب سؤاله؛

فإنَّ هذا علامةٌ على نُصح المعلِّم وفطنته، وحُسْن إرشاده وتعليمه؛ فإنَّ يوسف لما سـأله الفتيان عن الرؤيا قدَّم لهمـا قبل تعبيرها دعوتهمـا إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: الإرشـاد إلى طريق نافع من طريق الجـدال والمقابلة بين الحق والباطل، وهو بيان ما في الحق من الخير والمنافع العاجلة والآجلة، وما في الباطل من ضد ذلك، قال تعالى في دعوة يوسف للتوحيد: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسـف: ٣٩]، فذكر ما في الشرك من القُبْح وسـوء الحال واتباع الظنون الباطلة، وأن كل طائفة من المشركين لهم معبود؛ إما نار، أو صنـم، أو قبر، أو ملك، أو ميـت، أو غير ذلك من المعبودات المتفرقة، التي لا تملك لنفسها ولا لأهلها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وكل طائفة تضلِّل الأخرى، وكلهم ضالُّون هالكون فيها، هذه الأرباب والمعبودات خير أم الله الواحد القهار؟

فذكر له ثلاثة أوصاف عامة عظيمة؛ أنه الله الذي له الأسـماء والصفات العليا، ومنه النعم كلها، وبذلك استحق أن يكون الله المألوه إلهَ أهل الأرض وأهل السماء، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وأنه الواحد المتفرِّد بكل صفة كمال، المتوحِّد بنعوت الجلال والجمال، الذي لا شـريك له في شـيء من الأفعال، وأنه القهار لكل شـيء، فجميع العالم العلوي والسفلي كلهم مقهورون بقدرته، خاضعون لعظمته، مُتذلِّلون لعزته وجبروته، فَمَنْ هذه صفاته العظيمة هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

ومنها: أن الدين المستقيم الذي عليه جميع الرسل وأتباعهم هو عبادة الله وحده لا شـريك له؛ لقولـه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، فهو الدين المستقيم المقيم للعقائد والأخلاق والأعمال، الذي لا تستقيم أمور الدين والدنيا إلا به.

ومنها: وجـوب الاعتراف بنعم الله الدينيـة والدنيوية؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: ٣٨]، فهو الذي مَنَّ بالعافية والرزق وتوابع ذلك، وهو الذي مَنَّ بنعمة الإسلام والإيمان والطاعة وتوابع ذلك، فعلى العبد أن يعترف بها بقلبه ويتحدث بها، ويستعين بها على طاعة المُنعم.

ومنها: أن مَن وقع في مكروه وشدَّة لا بأس أن يستعين بمن له قدرةٌ على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأنَّ هذا لا يكون شكوى للمخلوق؛ فإنَّ هذا من الأمور العاديَّة التي جرى العُرْف باسـتعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظنَّ أنَّه ناجٍ من الفتَيَيْن: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكَّد على المعلِّم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأنْ لا يجعل تعليمه وسـيلةً لمعاوضة أحـدٍ في مال أو جـاه أو نَفْع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلَّفه به المعلِّم؛ فإنَّ يوسـف ﷺ قد قال، ووصَّى أحد الفتَيَيْن أنْ يذكُره عند ربه، فلم يذكُره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلًا مستفتيًا عن تلك الرؤيا، فلم يعنِّفه يوسف، ولا وبَّخه؛ لتركه ذِكْرَه، بل أجابه عن سؤاله جوابًا تامًّا من كل وجه، ولم يعاتبه أو يعنِّفه أو يعامله بسوء خُلُق، فبحُسْن الخُلُق تحصل للعبد الحياة الطيبة العاجلة والآجلة.

ومنها: أنه ينبغي للمسـئول أن يدلَّ السـائل على أمرٍ ينفعـه مما يتعلَّق بسؤاله، ويرشِده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه؛ فإنَّ هذا من كمال نُصْحه وفطنته وحُسْن إرشـاده؛ فإنَّ يوسـف ﷺ لم يقتصِرْ على تعبير رؤيا الملك، بل دَلَّهم ـ مع ذلك ـ على ما يصنعون في تلك السـنين المخصبات من كثرة الزَّرْع، وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يُلام الإنسـان على السعي في دفع التُّهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يُحمَد على ذلك، كما امتنع يوسـف عن الخروج من السجن

مع طول مُكْثِهِ حتى تتبيَّن لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطَّعن أيديهنَّ، حيث بان لكل أحد براءته التامة التي لا شبهة فيها، فلم يخرج من السجن لمواجهة الملك إلا في حالة براءته وهيبته ورفعته، وتعظيمٍ منهم لعلمه وفضله ونزاهته عليه الصلاة والسلام.

ومنها: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣]، دليل على أن هذا وصف النفس من حيث هي، وأنها لا تخرج عن هذا الوصف إلا برحمة من الله وعناية منه؛ لأن النفس ظالمة جاهلة، والظلم والجهل لا يأتي منهما إلا كلُّ شر، فإن رحم الله العبد ومَنَّ عليه بالعلم النافع وسلوك طريق العدل في أخلاقه وأعماله خرجت نفسه من هذا الوصف، وصارت مطمئنة إلى طاعة الله وذِكْره، ولم تأمر صاحبها إلا بالخير، ويكون مآلها إلى فضل الله وثوابه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۞ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، فعلى العبد أن يسعى في إصلاح نفسه وإخراجها من هذا الوصف المذموم، وهو أنها أمارة بالسوء، وذلك بالاجتهاد، وتخلُّقها بأحسن الأخلاق، وسؤال الله على الدوام، وأن يكثر من الدعاء المأثور: «اللهم اهدني لأحسن الأعمال والأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيِّئ الأعمال والأخلاق، لا يصرف عني سيئها إلا أنت»[1].

ومنها: فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحُسْن جمال يوسف؛ فإنَّ يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العزُّ والرِّفعة والتمكين في الأرض؛ فإنَّ كلَّ خيرٍ في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

ومنها: فضيلــة العلم من وجــوه كثيرة، وبيان أنه ســبب الرفعــة في الدنيا والآخرة، وسبب صلاح الدين والدنيا، فيوســف عليه السلام لم يَنَلْ ما نال إلا بالعلم، ولهذا قال لــه أبوه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٦]، وامتن عليه وَقْــتَ مُكْثِه عند عزيز مصر بالتجربة والعلم، وحاز مقام الإحســان بالعلم، وخرج من الســجن في حال العز والكرامة بالعلــم، وتمكَّن عند ملك مصر، واستخلصه لنفسه حين كلَّمه وعرف ما عنده من العلم، ودَبَّرَ أحوال الخلق في الممالك المصرية بإصلاح دنياهم، وحُسْــن تدبيره في حفظ خزائن الأرض وتصريفها وتوزيعها بالعلم، وعند نهاية أمره توسَّــل إلى ربه أن يتولاه في الدنيا بالعلــم، حيــث قــال: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، ففضائل العلم وثمراته الجليلة العاجلة والآجلة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

ومنها: فضــل الإيمان الكامــل واليقين، والطمأنينة بــالله وبذِكْره، حيث اتَّصف بها يوسف عليه السلام أوجبت له الثبات في أموره كلها، والاشتغال فيما هو بصَدَدِهِ من وظائفه الحاضرة، وهو في أحوالــه وتنقُّلاته مطمئن القلب ثابت النفس، ليس عنده قلق لبُعْده عن أبيه وأحبابه، مع ما يعلمه من شــدة الشوق والحب المفرِط بينه وبين والديه، خصوصًا أباه، وهو يعلم المكان الذي هو فيه، ويتمكن من مراسلته، ولكن اقتضت حكمة الله ألَّا يحصل اللقاء إلا في تلك الحال التي اشتدت مشقتها وعظمت شدتها، فأعانه الله وأيَّده بروح منه، وهذا من أَجَلِّ ثمرات الإيمان.

ومنها: أنَّ علم التعبير من العلوم الشرعيَّة، وأنَّه يثاب الإنسان على تعلُّمه وتعليمه، وأنَّ تعبير الرؤيا داخلٌ في الفتوى؛ لقوله للفتَيَيْن: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وقال الملك: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾، وقال الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ الآيات؛ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبِرَ الإنسان عمَّا في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحةٌ، ولم يقصد به العبدُ الرياء، وسَلِم من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، وكذلك لا تُذمُّ الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدِرُ عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنَّه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءةً من غيره، وإنَّما الذي يُذَمُّ إذا لم يكن فيه كفايةٌ، أو كان موجودًا غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يُرِدْ بها إقامة أمر الله؛ فبهذه الأمور يُنهَى عن طلبها، والتعرُّض لها.

ومنها: أن الولايات الكبار والصغار لا بد لمتولِّيها أن يكون كفؤًا في قوته وأمانته، وعلمه بأمور الولاية؛ لأن الملك لما كَلَّم يوسف ورأى من علمه وخبرته بالأمور، وحُسْن نظره استخلصه لنفسه، وقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، وقال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فعلَّل ذلك بكمال حفظه لما تحت يده وتصرفه، وكمال علمه بوجوه المستخرَج والمنصرِف، وحُسْن التدبير، وليس في هذا طلب الولاية ابتداءً، كما قاله كثير من أهل العلم، بل إنه لما رأى الملك استخلصه ومكَّنه من الأمور، وأن الأمور كلها تحت طوعه وتدبيره، طلب من الملك تولِّي خزائن الأرض فقط لأنها أهمُّ، ولأنه يعلم أن ولايته لها أنفع للمَلِك وللخَلْق، وهذا من كمال نُصْحِه وصِدْق نظره.

ومنها: أن الله واسعُ الجود والكرم، يجودُ على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأنَّ خير الآخرة له سببان: الإيمان، والتقوى، وأنه خيرٌ من ثواب الدنيا ومُلكها، وأنَّ العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوِّقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها، بل يسلِّيها بثواب الله الأخرويّ، وفضله العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

ومنها: أن العقود تنعقد بما يـدل عليها من قول وفعل، لا فرق بين عقود التبرعات وعقود المعاوضات؛ لأن يوسـف ﷺ ملَّك إخوته بضاعتهم التي اشـتروا بهـا مِيرَتَهُـم من حيـث لا يشـعرون، ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٦٥] الآية، وذلك من دون إيجاب وقبول قولي؛ لأن الفعل والرضا يدل على ذلك.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢]، اسـتدل به على ثلاثة أبواب من أبواب العلم: باب الجعالة، وباب الضمان، وباب الكفالة؛ لأن قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، من نوع الجعالة، وهو أن يجعل شيئًا معلومًا أو مقاربًا للمعلوم كحمل البعير؛ لأنه متعارَف لمن يعمل له عملًا معلومًا وعمـلًا مجهولًا، وهي جائزة لما فيهـا من مصلحة الجاعل والعامل، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾، أي: ضامن وكفيل، وهي من عقود التوثقة بالحقوق التي يتم بها توسيع المعاملات وإصلاحها.

ومنها: أنَّ جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسـعة على الناس من غير ضررٍ يلحقهم لا بأس بها؛ لأنَّ يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات للاستعداد للسـنين المجدبة، وأنَّ هذا غير مناقضٍ للتوكُّل على الله، بل يتوكَّل العبد على الله، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حُسْن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثُرتْ عندهم الغلَّات جدًّا، حتـى صار أهلُ الأقطـار يقصدون مصر لطلـب الميرة منها؛ لعِلْمِهم بوفورها فيها، وحتى إنَّه كان لا يكِيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصَّة أو أقلَّ، لا يزيد كلَّ قادم على كَيْلِ بعيرٍ وحملِهِ.

ومنها: مشروعيَّة الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف، وقررتها هذه الشريعة؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

ومنها: أن من الحزم إذا أراد العبد فعلًا من الأفعال أن ينظر إليه من جميع نواحيه، ويُقَدِّر كل احتمال ممكن، وأن الاحتراز بسوء الظن لا يضر إذا لم يحقَّق، بل يحترز من كل احتمال يُخْشَى ضرره.

ومنها: أنَّ سوء الظن مع وجود القرائن الدالَّة عليه غير ممنوع ولا محرَّم؛ فإنَّ يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشدَّ المعالجة، ثم قال لهم بعدما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾، فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرِّطين؛ فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن العمل بالشريعة فيه إصلاح الأرض والبلاد واستقامة الأمور، والعمل بالمعاصي من سرقة وغيرها فيه فساد، ذلك لقولهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]، وكم في القرآن من التصريح أن العمل بالمعاصي ومخالفة الرسل فساد للأرض، ومتابعة الرسل هو الصلاح المطلق؛ صلاح الدين والدنيا.

ومنها: الدلالة على الأصل الكبير الذي أعاده الله وأبداه في كتابه؛ أن لكل نفس ما كسبت من الخير والثواب، وعليها ما اكتسبت من الشر والعقاب، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى؛ لقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩].

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائزٌ، وإن كان لا يقع شيءٌ إلا بقضاء وقَدَرٍ؛ فإنَّ الأسباب أيضًا من القضاء والقدر؛ بشرط أن يفعلها العبد وهو معتمد على

مُسَـبِّبها؛ لأمر يعقوب، حيث قال لبنيه: ﴿يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، وأخبر تعالى أنهم امتثلوا أمر أبيهم، وأن هذا الأمر لم يُغْنِ شيئًا إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها؛ وهو شفقة الوالد على أولاده، والشريعة جاءت بإثبات الأسباب النافعة الدينية والدنيوية، والحث عليها، مع الاستعانة بالله، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «احرِص على ما ينفعك واستعن بالله»[1].

ومنها: جواز استعمال الحيل والمكايد التي يتوصل بها إلى حق من الحقوق الواجبة والمستحبة أو الجائزة، وأنَّ العلم بالطُّرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يُحمَد عليه العبد، كما استعمل يوسف ذلك مع أخيه، حيث وضع السقاية في رحل أخيه، ثم أذَّن مؤذن بعد رحيلهم ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] إلى قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، فعمل مع أخيه هذا العمل ليتوصل به إلى بقائه عنده من غير شعور منهم، فلما تقرَّر عندهم أنه هو الذي أخذ الصواع استفتاهم عن حكم السارق في دينهم، فقالوا: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]، أي: جزاء السارق أن يتملَّكه المسروق منه، فحكموا على أنفسهم هذا الحكم الذي هو المقصود ليوسف، ولو أجرى عليه حكم ملك مصر لكان له حكم آخر، فيسَّر الله هذا العمل وهذا الحكم ليبقى أخوه عنده، فالحِيَل التي على هذا النوع لا حرج فيها، وإنما المحرَّم هو الحِيَل والمكايد التي يتوصَّل بها إلى إحلال المحرَّمات أو إسقاط الواجبات.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهِم غيره بأمرٍ لا يحبُّ أن يطَّلع عليه أن يستعمل المعاريض القوليَّة والفعليَّة المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف، حيث ألقى الصُّواع في رَحْل أخيه، ثم استخرجها منه مُوهِمًا أنَّه سارقٌ، وليس

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقــال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقلْ: «منْ ســرق متاعنا»، وكذلك لــم يقلْ: «إنا وجدنا متاعنا عنــده»؛ بل أتى بكلام عام يصْلُح لــه ولغيره، وليس في ذلك محذورٌ، وإنَّما فيه إيهامٌ أنَّه سارقٌ؛ ليحصُل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبيَّنت الحال.

ومنها: قوله تعالــى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسـف: ٧٩]، يدل على أنه لا تَزِر وازرة وِزْر أخرى، ويؤخذ منه مسألة دقيقة، وهو أن الإحســان إنما يكون إحسانًا إذا لم يتضمَّن فِعْلَ مُحرَّمٍ، أو تَرْكَ واجبٍ، فإنهم طلبوا من يوســف أن يُحْسِــن إليهم بتَرْك هذا الأخ أن يذهب إلى أبيه، ويأخذ أحدَهم بدله فامتنع، وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾، فالإحســان إذا تضمَّن تَرْك العدل كان ظلمًا، ولهذا كان تخصيص بعض الأولاد على بعض، وبعض الزوجات على بعض، وإن كان إحسانًا إلى المخصَّص والمفضَّل لا يجوز؛ لأنه تَرْكٌ للعدل، وكذلك ما أشبه ذلك، والله أعلم.

ومنها: أن المشــاورة نافعة في كل شــيء حتى في تخفيف الشر، لهذا تشاوَر إخوة يوســف ما يعملون به مِن قَتْلٍ أو طَرْح في الأرض، وقَرَّ رأيهم على رأي مَن أشــار عليهم بإلقائه في الجب ليلتقطه بعض الســيارة، ففيه شــاهد للقاعدة المشهورة «ارتكاب أخفِّ المفســدتين أولى من أغلظهما»، ولما قَرَّ القرار على أخْذ مَن وُجِدَ الصواع في رَحْله، وعالجوا يوســف على أخْذ بدله لأجل ما يعلمون من مشقة أبيهم فامتنع، خلصوا نجيًّا يتشاورون، فقرَّ رأيهم على رأي كبيرهم أن يبقى هو في مصر يلاحظ مسألة أخيه، وهم يذهبون ويخبرون أهلهم، ويخبرون أباهم بالقضية وتفصيلها، ولا شــك أن بقاءه في مصر أهون علــى يعقوب وأرجى لتحصيــل المطلوب، وفيه نوع

مواساة منه بأخوَيه يوســف وبنيامين، ولهذا قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

ومنها: أنَّه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علِمه وتحقَّقهُ؛ إما بمشاهدة أو خبرِ مَن يثق به، وتطمئنُّ إليه النفس؛ لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾.

ومنها: أن وجود المســروق بيد الســارق بينة وقرينة على أنه الســارق، ولذلك حكم وحكموا على أخي يوسف بحكم السارق.

ومنها: الحــثُّ على فعل الأســباب الجالبــة للخيــرات، والحافظة من الكريهات، وفي القصة مواضع تــدل على هذا الأصل الكبير، وتمام ذلك أن يقوم بالأسباب مســتعينًا بالله واثقًا به، وقد عمل يعقوب عليه السلام الأسباب التي يقدر عليها في استحفاظ أولاده ليوسف ثم لأخيه حين أرسله معهم، وقال مع ذلك: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوســف: ٦٤]، وكذلك على العبد إذا هَمَّته المصائب وحلَّت بهِ النكبات؛ عليه أن يصبر، ويستعين بالله على ذلك، قال يعقوب عليه السلام حين عمل إخوة يوسف ما عملوا بيوسف وحلَّت به المصيبة الكبــرى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوســف: ١٨]، وذلــك أن الصبر على الطاعات، والصبر عن المحرَّمات، والصبر علــى المصيبات؛ لا يتم وينجح صاحبه إلا بالاســتعانة بالله، وألَّا يتَّكِل العبد على نفسه، قال يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ومنها: قوله تعالى عن يعقوب في أول ما صنع أبناؤه بأخيهم يوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوســف: ١٨]، وقوله: عندما اشتد به الأمر حين احتبس الابن الآخر: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، في هذا دليل على أن أصفياء الله إذا نزلت بهم الكوارث والمصيبات

قابَلوها في أول الأمر بالصبر والاستعانة بالمولى، وعندما ينتهي وتبلغ الشدة منتهاها يقابلونها بالصبر والطمع في الفرج والرجاء، فيوفِّقهم الله للقيام بعبوديته في الحالتَين، ثم إذا كشف عنهم البلاء قابَلوا ذلك بالشكر والثناء على الله، وزيادة المعرفة بلطفه؛ لقول يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيَّه يعقوب عليه السلام؛ حيث قضى بالفراق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعةً واحدةً هذه المدةَ الطويلة، ويحزِنُه ذلك أشدَّ الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدةً طويلة يغلب على الظن أنها تبلغ ثلاثين سنة فأكثر، من ذلك أنه بقي مدة في بيت العزيز قبل السجن في الإمكان أن تكون من سبع السنين إلى العشر، أو نحو ذلك على وجه الخرص والحزر، ثم مكث بضع سنين في السجن، والأكثر أنها سبع سنين، ثم بعد خروجه دخلت السبع السنين المخصبات، فهذه نحو إحدى وعشرين سنة، ثم دخلت السبع المجدبات، وتردَّد إخوة يوسف إليه مرات، والظاهر أن اللقاء كان في آخرها، فهذه تُقارِب الثلاثين ونحوها، وهو في هذه المدة لم يفارِقِ الحزنُ قلْبه وهو دائم البكاء، ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾، ثم ازداد به الأمر شدَّة حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، وفَقَدَ بصره وهو صابرٌ لأمر الله، محتسبٌ الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شكَّ أنه وفى بما وَعَدَ به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، فإن الشكوى إلى الله لا تُنافي الصبر، وإنما ينافي الصبر الشكوى إلى المخلوق.

ومنها: أن شفاء الأمراض كما تكون بالأدوية الحسية تكون بأسباب ربانية، بل يحصل بهذا النوع من أنواع الشفا ما لا يحصل بغيره، فيعقوب عليه السلام

قد ابيضَّت عيناه من الحزن، وذهب بصره، فجعل الله شفاءه وإبصاره بقميص يوسـف حين ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيرًا لِما كان فيه من رائحة يوسـف، الذي كان داءُ عينَيه من حزنه عليه، فصار شـفاؤه الوحيـد مع لُطف الله في قميص جسده. **ومن قال**: إن القميص من الجنة، فليس عنده بذلك دليل، والله قادر على أن يشفيه من دون سبب، ولكنه حكيم جعل الأمور تجري بأسباب ونظامـات قد تهتـدي العقول إلـى معرفتها وقـد لا تهتـدي، ونظير ذلك أيوب عليه السلام وصل بـه المرض والضر إلـى حالة تعذَّر منها الشـفاء، وأعيت الأطباء، فحيث أراد الله شـفاءه أمره أن يركض برجله الأرض، فأنبع له عينًا باردة، وأمره أن يشرب منها ويغتسل، فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من هذا الضرر، وعاد كأحسـن ما أنت راءٍ، قال تعالـى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، فهو تعالى يشـفي العباد بأدوية وأسـباب حسية، وبأسباب ربانية معنوية: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، كما أنه تعالى يُوجِد الأشـياء بأسباب حسية معلومة، وبأسـباب ربانية لا تهتدي العقـول إليها، كما في معجـزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وآياته النفسـية والكونية، وهو المحمود على هذا وعلى هذا.

ومنها: أنَّ الفرج مع الكرب؛ وأنَّ مع العسر يسرًا؛ فإنَّه لما طال الحزن على يعقوب واشـتدَّ به إلى أنهى ما يكـون، وقـال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، ثم قال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسَّهم الضرُّ حين دخلوا على يوسـف وقفوا بين يدَيْه موقف المضطر، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾، أي: قليلة حقيـرة لا تقع الموقع، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾، فحينئذٍ لما بلغ الضر منتهاه من كل وجه أذِن الله بالفرج، فحصل التلاقي في أشدِّ الأوقات إليه حاجة واضطرارًا،

فتمَّ بذلك الأجر وحصل السـرور، وعُلِمَ من ذلك أنَّ الله يبتلي أنبياءه وأولياءه وأصفياءه بالشدَّة والرَّخاء، والسرور والحزن، واليسر والعسر؛ ليمتحن صبرهم وشكرهم، وليستخرج منهم عبوديته في الحالين؛ بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الشـدة والبلاء، فتتم عليهم بذلك النعماء، ويـزداد بذلك إيمانُهم ويقينُهم وعِرْفانُهم، كما ابتلى يعقوب ويوسف، وكذلك غيرهم من أنبيائه وأصفيائه.

ومنها: جـواز إخبار الإنسـان بما يجد، ومـا هو فيه من مـرضٍ أو فقرٍ ونحوهما، على غير وجه التسخُّط؛ لأنَّ إخوة يوسف قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، وأقرَّهم يوسف على ذلك ولم يُنْكِرْ عليهم.

ومنها: جواز سـؤال الخَلْق، خصوصًا الملوك عند الضرورة؛ لقول إخوة يوسـف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسـف: ٨٨]، فإنهم سألوا المحاباة في المعاملة والصدقة بدون عِـوَض، وإنما قلت: خصوصًـا الملوك؛ لأنهم لا يُسـأَلون من أموالهم الخاصة، وإنما يُسـأَلون من بيت المـال، الذي هو للمصالح العمومية، وأهم المصالح دفع ضرورة المضطرين.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأنَّ كلَّ خير فـي الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأنَّ عاقبة أهلهما أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وأن إخبار العبد من نفسـه بحصول التقوى والصبـر إذا كان صدقًا، وفي ذلـك مصلحة من باب التحدث بنعمة الله، قال الله تعالـى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى: ١١]، وهي تشمل نعم الدنيا ونعم الدين، وأن الله يجمع للمتقين بين خيرَيِ الدنيا والآخرة كما في هذه الآية والآية السابقة، وهي قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧].

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمةٍ بعد شدَّة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولى؛ ليُحْدِث لذلك شكرًا كلمَّا ذكرها؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

ومنها: ما منَّ الله به على يوســف من حسن عفوه عن إخوته، وأنه عفا عما مضى، ووعد في المستقبل ألَّا يُثَرِّب عليهم، ولا يذكر منه شيئًا؛ لأنه يجرحهم ويُحزنهم، وقد أبدوا الندامة التامة، ولأجل هذا قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ [يوســف: ١٠٠]، ولم يقل: من بعد أن نزغهم، بل أضاف الفعل إلى الشيطان الذي فرَّق بينه وبين إخوته، وهذا من كمال الفتوة وتمام المروءة.

ومنها: لطف الله العظيم بيوســف؛ حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والـمِحَن؛ ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أنْ يتضــرع إلى الله دائمًا في تثبيت إيمانه، ويُعْمِلَ الأســباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حُسْــنَ الخاتمة وتمام النِّعمة، ويتوسَّل بنعمه الحاصلة إلى ربه أن يُتِمَّها عليه ويُحْسِن له العاقبة؛ لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وليــس هــذا مــن يوســف تمنيًا للموت كما ظنه بعضهــم، بل هو دعاء لله أن يُحْسِــن خاتمته ويتوفاه على الإسلام، كما يسأل العبد ربه ذلك كل وقت.

إذا قيل: كيف خَفِي موضع يوســف على يعقوب وما بينهما إلا مســافة قليلة مع طول المدة وقوة الداعــي الـمُلِحّ، وعِلْمه أنه على الوجود، وحرصه الشديد على لُقياه؟

فالجــواب: ليس ذلك بغريب على قــدرة الله، فإن الأســباب وإن قَوِيَت جدًّا لا خروج لها عن قضاء الله وقدره؛ فإن الله تعالى أراد ألَّا يحصل الاجتماع إلا في

الوقت الذي أجّله، والحالة التي أرادها؛ لما له في ذلك من الحِكَم العظيمة، ومتى أراد الله شـيئًا في وقت مخصوص قَدَّرَ من الأسباب الحسـية أو المعنوية ما يمنع حصوله قبل ميقاته، كما يقدِّر من الأسـباب ما يحصل به ما أراد، فالأسـباب بيد العزيز الحكيم، وليس هذا بأغرب من قضية بني إسرائيل في التيه وهم أمة عظيمة، والتيه مسافة قصيرة وهم بين أظهُر قرى ومدن كثيرة، والمدة أربعون سنة لم يهتدوا طريقًا إلى مقصدهم، ولم يتيسَّر لهم مَن يرشدهم إلى قصدهم.

وكذلك أصحاب الكهف مكثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين وهم في غارٍ قريب من مدينة عظيمة، لم يَصِلْ إليهم أحد في هذه المدة الطويلة لأمر يريده الله.

فهذه الأمور وما أشـبهها دليل على كمـال قـدرة الله وحكمته، مع أن يوسـف عليه السلام بقي مدةً الله أعلم بها وهـو في بيت العزيز، ثـم مدة وهو في السجن، ثم ترقَّى إلى تدبير الـمُلك، ولم يخطر ببال أحد أن ينتقل من الرق والسجن إلى الملك العظيم.

ثم إنه وقت تولِّيه يغلب على الظن أنه اشـتهر عند الناس باسم المنصب والوزير للملـك، ولا يكاد أحد يعرف اسـمه كما هو الغالـب على الملوك وأشـباههم، ولهذا تردَّد إخوتُه عليه فعرفهم، وهم لا يعرفونه؛ لما هو فيه من بهجة الولاية، وأيضًا قد فارَقوه وهو صغير، ولم يَرَوْه إلا بعدما كبر، ومعلوم أن أوصاف الإنسان تتغيَّر إذا وصل إلى سنِّ الكهولة، واللهُ أعلم.

هذا من جهة يعقـوب وأولاده، أما من جهة يوسـف فإنه قد علم وقصد التأخير ليبلغ الكتاب أجله، ولهذا تردَّد عليه إخوتُه وقد عرفهم، ولم يعرِّفهم بنفسه، ولم يستدعِ أبوَيْه وأهله إلا في نهاية الأمر.

هذا ما يسَّـر الله من الفوائد والعِبَر في هذه القصة المباركة، ولا بدَّ أنْ يظهر للمتدبِّر المتفكِّر غير ذلك، فنسأله تعالى علمًا نافعًا وعملًا متقبَّلًا، إنه جوادٌ كريمٌ.

❋ ❋ ❋



قصة شعيب عليه السلام

شعيب عليه السلام نبّأه[1] الله، وأرسله إلى أهل مدين، وكانوا مع شِرْكهم يَبْخَسون المكاييل والموازين، ويَغُشُّون في المعاملات، ويَنْقُصون الناسَ أشياءهم، فدعاهم إلى توحيد الله، ونهاهم عن الشرك به، وأمرهم بالعدل في المعاملات، وزجرهم عن البَخْس في المعاملات، وذَكَّرَهم الخير الذي أدَرَّهُ الله عليهم، والأرزاق المتنوعة، وأنهم ليسوا بحاجة إلى ظُلم الناس في أموالهم، وخَوَّفهم العذاب المحيط في الدنيا قبل الآخرة، فأجابوه ساخرين، ورَدُّوا عليه متهكِّمين، فقالوا: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، أي: فنحن جازِمون على عبادة ما كان آباؤنا يعبدون، وجازمون على أننا نفعل في أموالنا ما نريد من أي معاملة تكون، فلا ندخل تحت أوامر الله وأوامر رسله، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨]، أي: أغناني الله، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، أي: ما نهيتكم عن المعاملات الخبيثة وظُلْم الناس فيها إلّا وأنا أول تاركٍ لها، مع أن الله أعطاني ووسَّع عليَّ، وأنا محتاج إلى المعاملة، ولكني متقيِّد بطاعة ربي، ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ في فعلي وأمري لكم ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾،

(١) أي: جعله نبيًا.

أي: أن تصلح أحوالكم الدينية والدنيوية ما استطعت: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ثم خوَّفهم أخذات الأمم التي حولهم في الزمان والمكان، فقال: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، ثم عرض عليهم التوبة، ورغَّبهم فيها، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] فلم يُفِد فيهم، فقالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، وهذا لعنادهم وبُغْضِهم البليغ للحق، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩١ ـ ٩٢].

ثم لما رأى عُتُوَّهم قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۞ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٣ ـ ٩٤] ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]، فأرسل الله عليهم حَرًّا أخذ بأنفاسهم حتى كادوا يختنقون من شدته، ثم في أثناء ذلك أرسل سحابة باردة فأظَلَّتْهم، فتنادَوْا إلى ظِلِّها غير الظليل، فلما اجتمعوا فيها التهبت عليهم نارًا، فأحرقتهم، وأصبحوا خامدين مُعَذَّبين مذمومين ملعونين في جميع الأوقات.

❋ ❋ ❋

وفي قصة شعيب عليه السلام فوائد متعددة

منها: أن بَخْس المكاييل والموازين خصوصًا، وبَخْس الناس أشياءهم عمومًا؛ من أعظم الجرائم الموجِبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

ومنها: أن المعصية الواقعة لمن عُدِم منه الداعي والحاجة إليها أعظم، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب، والكبر من الفقير أقبح من الغني، والسرقة ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج؛ لهذا قال شعيب لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ [هود: ٨٤]، أي: بنعم كثيرة، فأيُّ أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرَّمة.

ومنها: قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: ٨٦] فيه الحثُّ على الرضا بما أعطى الله، والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلُّع إلى ما عند الناس.

ومنها: فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات، وتَرْك المنكرات، وللنصيحة لعباد الله، وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ومن هنا تُعرَف حكمة الله ورحمته في أنه فرض علينا الصلوات، تتكرَّر في اليوم والليلة؛ لعِظَم وقعها، وشدة نفعها، وجميل آثارها، فللَّه على ذلك أتم الحمد.

ومنها: أن العبد في حركات بدنه وتصرفاته، وفي معاملاته المالية؛ داخل تحت حجر الشريعة، فما أُبيح له منها فعله، وما منعه الشرع تعيَّن عليه تَرْكُه، ومن يزعم أنه في ماله حرٌّ، له أن يفعل ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة، فهو

بمنزلة مَن يرى أن عمل بدنه كذلك، وأنه لا فـرق عنده بين الكفر والإيمان، والصدق والكذب، وفعل الخير والشـر، الكل مباح، ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الإباحيين الذين هم شرٌّ الخليقة، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا؛ لأنهم أنكروا على شعيب لما نهاهم عن المعاملات الظالمة، وأباح لهم سواها، فردُّوا عليه أنهم أحرارٌ في أموالهم، لهم أن يفعلـوا فيها ما يريدون، ونظير هذا قول من قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فمن سـوَّى بيـن ما أباحه وبين ما حرَّمه الله فقد انحرف في فطرته وعقله بعدما انحرف في دينه.

ومنها: أن الناصح للخَلْق الـذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس له أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين؛ لقول شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

ومنها: أن الأنبياء جميعهم بُعِثُوا بالإصلاح والصلاح، ونَهَوْا عن الشرور والفساد، فكل صلاح وإصلاح ديني ودنيوي فهو من دين الأنبياء، وخصوصًا إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ، فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل، ووضع للخلق الأصول النافعة التي يَجْرُون عليها في الأمور العادية والدنيوية، كما وضع لهم الأصول في الأمور الدينية، وأنه كما أن على العبد السعي والاجتهاد في فعل الصلاح والإصلاح، فعليه أن يسـتمد العون من ربه على ذلك، وأن يعلم أنه لا يقدر على ذلـك، ولا على تكميله إلا بالله؛ لقول شـعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ومنها: أن الداعي إلـى الله يحتاج إلى الحلم، وحُسْـن الخُلُـق، ومقابلة المسـيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك، وأن لا يُحبِطه أذى الخَلْق، ولا يصده عن شيء من دعوته، وهذا الخُلُق كماله للرسل صلوات الله عليهم وسلم، فانظر إلى شعيب عليه السلام، وحُسْن خُلُقه مع قومه، ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعونه الأقوال السـيئة، ويقابلونه المقابلة الفعلية، وهو عليه السلام يحلـم عليهم ويصفح،

ويتكلم معهم كلامَ مَن لم يصدر منهم له وفي حقه إلا الإحســان، ويُهَوِّن هذا الأمر أن هذا خُلُقٌ مَن ظَفِر به وحَازَه فقد فاز بالحظ العظيم، وأن لصاحبه عند الله المقامــات العالية والنعيم المقيــم، ويُهَوِّنه أنه يعالج أممًــا قد طُبِعوا على أخلاقٍ إزالتُها وقَلْعُها أصعب مِــن قَلْع الجبال الرواســي، ومرنوا على عقائد ومذاهب بذلوا فيها الأموال والأرواح، وقدَّموها على جميع المهمات عندهم، أفتظن مع هــذا أن أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القول بــأن هذه مذاهب باطلةٌ وأقوالٌ فاسدة، أم تحسبهم يغتفرون لمن نالها بسوء؟! كلا والله.

إن هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التي دعت إليها الرسل، يُذكَّرون بنِعَم الله، وأن الذي تفرَّد بالنعم يتعيَّــن أن يُفْرَد بالعبادة، ويذكر لهم من تفاصيل النعم ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى، ويُذكَّرون بما في مذاهبهم من الزيغ والفســاد والاضطراب، والتناقــض المزلزل للعقائــد، الداعي إلــى تَرْكها، ويُذكَّرون بما بين أيديهم ومــا خَلْفَهم من أيام الله ووقائعــه بالأمم المكذِّبة للرســل، المنكرة للتوحيد، ويُذكَّرون بما في الإيمان بالله وتوحيده ودينه من المحاســن والمصالح، والمنافع الدينية والدنيوية، الجاذبة للقلوب، المسهِّلة لكل مطلــوب، ومع هذا كلــه فيحتاج الخَلْق إلى الإحســان إليهــم، وبَذْل المعروف، وأقل ذلك الصبر على أذاهم، وتحمُّل ما يصدر منهم، ولِين الكلام معهم، وســلوك كل ســبيلِ حكمةٍ معهم، والتنقل معهم في الأمور بالاكتفاء ببعض ما تســمح به أنفســهم؛ ليُســتدرَج بهم إلى تكميله، والبداءة بالأهم فالأهم، وأعظمهم قيامًا بهذه الأمور وغيرها ســيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الإطلاق محمد ﷺ.

ومنها: أن الكفار كما يعاقَبون ويخاطَبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه؛ لأنَّ شــعيبًا دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفــاء المكيال والميزان، وجَعَلَ الوعيد مرتَّبًا على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذُّنوب، وتُخْشَى العقوبة العاجلة على مَن تعاطى ذلك، وأنَّ ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين موجِبة للوعيد فسرِقتُهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى.

ومنها: أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فمَن بَخَسَ أموال الناس يريد زيادة ماله عوقِب بنقيض ذلك، وكان سببًا لزوال الخير الذي عنده من الرزق؛ لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾، أي: فلا تسبَّبوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يقْنع بما آتاه الله، ويقنع بالحلال عن الحرام، وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرَّمة، وأنَّ ذلك خيرٌ له؛ لقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالُب على الأسباب المحرَّمة من المَحْق، وضدِّ البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإنَّه رَتَّبَ العمل به على وجود الإيمان، فدلَّ على أنَّه إذا لم يوجد العمل فالإيمان ناقصٌ أو معدومٌ.

ومنها: أنَّ الصلاة لم تَزَل مشروعة للأنبياء المتقدِّمين، وأنَّها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرِّر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزانٌ للإيمان وشرائعه؛ فبإقامتها تكمُلُ أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختلُّ أحواله الدينيَّة.

ومنها: أنَّ المال الذي يرزقه الله الإنسانَ، وإن كان الله قد خوَّله إياه؛ فليس له أن يصنع فيه ما يشاء؛ فإنه أمانةٌ عنده، عليه أن يقيم حقَّ الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرَّمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومَن أشبههم أنَّ أموالهم لهم يصنعون فيها ما يشاءون ويختارون، سواءٌ وافَق حُكْمَ الله، أو خالَفَه.

ومنها: أن مِن تكْمِلة دعوة الداعي وتمامها: أن يكون أول مبادرٍ لما يأمر غيره بــه، وأول مُنْتَهٍ عما ينهى غيره عنه، كما قال شــعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾، ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ومنها: أن وظيفة الرسل وســنَّتهم وملَّتهم، إرادةُ الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتــون بتحصيل المصالح وتكميلهــا، أو بتحصيل ما يُقْدَر عليه منها، وبدفع المفاســد وتقليلهــا، ويراعون المصالح العامــة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة، هي التي تصْلُح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أنَّ من قام بما يقدِر عليه من الإصلاح لم يكن ملومًا ولا مذمومًا في عدم فِعْلِه ما لا يقدِر عليه؛ فعلى العبد أن يُقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدِر عليه.

ومنها: أنَّ العبد ينبغي له أن لا يتَّكل على نفســه طرفة عين، بل لا يزال مستعينًا بربه، متوكلًا عليه، سائلًا له التوفيق، وإذا حصل له شيءٌ من التوفيق فلينســبه لِمُوليه ومُسْديه، ولا يُعْجب بنفســه؛ لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنــه ينبغي أن تُذْكَر القصص التي فيها إيقاعُ العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر؛ كما أنه ينبغي ذِكْر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحثِّ على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يُسْــمَح له عن ذنبه ويُعفى عنه؛ فإنَّ الله تعالى يحبُّه ويودُّه، ولا عبرة بقول من يقول: «إنَّ التائب إذا تاب فحســبُه أن

يُغْفَر له، ويعود عليه العفو، وأما عَوْدُ الودِّ والحبِّ فإنَّه لا يعودُ»؛ فإنَّ الله قال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾.

ومنها: أنَّ الله يدفع عن المؤمنين بأسبابٍ كثيرةٍ؛ قد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئًا منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار؛ كما دفع الله عن شعيب رَجْمَ قومه بسبب رهطه، وأنَّ هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعيَّن ذلك؛ لأنَّ الإصلاح مطلوبٌ على حسب القدرة والإمكان؛ فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جَعْل الولاية جمهوريةً يتمكَّن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية لكان أولى من استسلامهم لدولةٍ تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها، وجَعْلِهم عَمَلَةً وخَدَمًا لهم.

نعم؛ إنْ أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام؛ فهو المتعيِّن، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة؛ فالمرتبة التي فيها دفعٌ ووقايةٌ للدين والدنيا مقدَّمة، والله أعلم[1].

---

(١) **ومن فوائد قصة شعيب عليه السلام**:
- حرمة الفساد في الأرض بالمعاصي، لا سيَّما البلاد التي طهَّرها الله بالإسلام، وأصلحها بشرائعه.
- حرمة التلصُّص، وقطع الطرق، وتخويف المارَّة.
- حرمة الصدِّ عن سبيل الله بمنع الناس من التديُّن، والالتزام بالشريعة ظاهرًا وباطنًا.
- وجوب الرضا بالحلال وإن قَلَّ، وسخط الحرام وإن كَثُرَ.
- كراهية إتيان الشيء بعد النهي عنه، وتَرْك الشيء بعد الأمر به والحث عليه.
- كراهية اللّجَاج والعناد لما يمنع من الاعتراف بالحق والالتزام به.
- بيان سُنَّة بشرية، وهي أن الظَّلَمة والمتكبِّرين يجادلون بالباطل، حتى إذا أعياهم الجدال وأفحِموا بالحُجَج بَدَلَ أن يُسلِّموا بالحق ويعترفوا به ويقبلوه، فيستريحوا ويُرِيحوا، يفزعون إلى القوة بطرد أهل الحق ونفيهم، أو إكراههم على قبول الباطل بالعذاب والنكال. =

= ـ لا يصح من أهل الحق بعد أن عرفوه ودعوا إليه أن يتنكَّروا، ويقبلوا الباطل بدله.
ـ استحباب الاستثناء في كل ما عزم عليه المؤمن مستقبلًا وإن لم يُرِدْه أو حتى يفكر فيه.
ـ وجوب التوكُّل على الله عند تهديد العدو وتخويفه، والمُضِيّ في سبيل الحق.
ـ مشروعية الدُّعاء، وسؤال الله تعالى الحُكْم بين أهل الحق وأهل الباطل؛ لأنَّ الله تعالى يحكم بالحق، وهو خير الحاكمين.
ـ مشروعية توبيخ الظالمين بعد هلاكهم، كما فعل رسول الله ﷺ بأهل القَلِيب، وكما فعل صالح وشعيب عليهما السلام.



قصة أيوب عليه السلام

كان أيوبُ من أنبياء بني إسرائيل، ومن الأصفياء الكرام، وقد ذكره الله في كتابه، وأثنى عليه بالخصال الحميدة عمومًا، وبالصبر على البلاء خصوصًا؛ فإن الله تعالى ابتلاه بولده وأهله وماله، ثم بجسده، فأصابه من البلاء ما لم يُصِب أحدًا من الخَلْق، فصبر لأمر الله، ولم يَزَل منيبًا لله.

ولما تطاوَل به المرض العظيم، ونَسِيَه الصاحب والحميم نادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فقيل له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ [ص: ٤٢] فركض، فنبعت بركضته عين ماء بارد، فقيل له: اشرب منها واغْتَسِلْ، ففعل ذلك، فأذهب الله ما في باطنه وظاهره من البلاء، ثم أعاد الله له أهله وماله، وأعطاه من النِّعَم والخيرات شيئًا كثيرًا، وصار بهذا الصبر قدوةً للصابرين، وسلوةً للمبتلين، وعبرةً للمعتبرين، وكان في مرضه قد وجد على زوجته المرأة البارَّة الرحيمة في بعض شيء، فحلف أن يجلدها مائة جلدة، فخفَّف الله عنه وعنها، وقيل له: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثًا﴾ ـ حُزْمة حشيشٍ أو علفٍ أو شماريخَ أو نحوها ـ، فيها مائة عود، ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ أي: ينحل بذلك يمينك، وفي هذا دليل على أن كفارة اليمين لم تشرع لأحد من قبل شريعتنا؛ وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر الذي لا بد من وفائه، **وفي هذا دليل على أن**

مَن لا يحتمل إقامة الحد عليه؛ لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك؛ لأن الغرض التنكيل ليس الإتلاف والإهلاك[1].

* * *

(١) **فوائد من قصة أيوب عليه السلام:**

- قد يبتلي الله تعالى مَن يحبه من عباده ليزيد في عُلُوّ مقامه ورفعة شأنه.
- أنَّ الشيطان قد يُسَلَّط على الأنبياء عليهم السلام.
- عُلُوُّ مقام الصبر، ومثله الشكر، فالأول على البأساء، والثاني على النعماء.
- فضيلة الدُّعاء، وهو باب الاستجابة وطريقها، مَن أُلهِمَه أُلهِم الاستجابة.
- في سِيَر الصالحين مواعظ، وفي قصص الماضِينَ عِبَر.
- مَن ابتُلِي بفَقْد مال أو أهل أو ولد فَصَبَر كان له من الله الخَلَف، وما يقال عند المصيبة: «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجُزني في مصيبتي، واخْلُف لي خيرًا منها» رواه مسلم.
- أن زوال كَرْب النبي أيوب عليه السلام كان على يده؛ لأنَّ الله تعالى لم يُنزِل شفاءً بدون سبب ظاهر، بل بسبب هو الذي يباشره.
- أنَّ للزوج أن يضرب زوجته، وأنَّ للرجل أن يحلف ولا يستثني.



قصة موسى عليه السلام

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۞ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۞ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص: ٣ ـ ١٣]

ومن جملة ما أبان ـ سبحانه ـ، قصة موسى وفرعون؛ فإنَّه أبداها وأعادها في عدَّة مواضع، وبسطها في هذا الموضع، فقال: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾، فإنَّ نبأهما غريبٌ، وخبرهما عجيبٌ. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾،

فإليهم يُساق الخطاب، ويوجَّه الكلام؛ حيث إنَّ معهم من الإيمان ما يُقْبِلون به على تدبُّر ذلك، وتلقِّيه بالقَبول والاهتداء بمواقع العِبَر، ويزدادون به إيمانًا ويقينًا، وخيرًا إلى خيرهم، وأما مَن عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجَّة عليهم، وصانَه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجابًا أن يفقهوه.

فأول هذه القصَّة: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلوِّ فيها، لا من الأعْلَيْن فيها، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾، أي: طوائف متفرِّقة، يتصرَّف فيهم بشهوته، وينفِّذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وتلك الطائفةُ هم بنو إسرائيل، الذين فضَّلهم الله على العالمين، الذين ينبغي له أن يكرِمهم ويجلَّهم، ولكنه استضعفهم، بحيثُ إنه رأى أنَّهم لا منعة لهم تمنعهم مما أراده فيهم، فصار لا يُبالي بهم، ولا يهتمُّ بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنَّه ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ خوفًا من أن يكثرُوا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ الذين لا قَصْدَ لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بأن نُزيل عنهم موادَّ الاستضعاف، ونُهلك مَن قاومهم، ونخذل من ناوأهم، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ في الدين، وذلك لا يحصُلُ مع استضعاف، بل لا بدَّ من تمكين في الأرض، وقدرةٍ تامةٍ، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، فهذه الأمور كلُّها، قد تعلَّقت بها إرادة الله، وجرتْ بها مشيئتُه، وكذلك نريد أن نُريَ ﴿فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ﴾ وزيره ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعَلَوْا وبغَوْا، ﴿مِنْهُم﴾، أي: من هذه الطائفة المستضعَفة ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يَسْعَوْن في قمعهم، وكَسْر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم، الذين هم محلُّ ذلك؛

فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد أمرًا سهَّل أسـبابه، ونهَّج طرقه، وهذا الأمر كذلك؛ فإنَّه قدَّر وأجرى من الأسـباب ـ التي لم يشـعر بهـا لا أولياؤه ولا أعداؤه ـ ما هو سببٌ موصلٌ إلى هذا المقصود.

فأول ذلك لما أوجدَ الله رسـوله موسى الذي جعل اسـتنقاذ هذا الشعب الإسـرائيليِّ على يدَيه وبسـببه، وكان في وقت تلك المخافـة العظيمة التي يُذبِّحون بها الأبناء، أوحى إلى أمِّه أن تُرْضِعـه، ويمكث عندها، ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن أَحْسَسْـتِ أحدًا تخافِين عليه منه أن يوصِله إليهم، ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: نيل مصر، في وسط تابوتٍ مُغْلَق، ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فبشَّرها بأنَّه سـيردُّه عليها، وأنه سـيكبر ويَسْلَم من كيدهم، ويجعلُه الله رسـولًا، وهذا من أعظم البشـائر الجليلـة، وتقديم هذه البشارة لأم موسى؛ ليطمئنَّ قلبُها، ويسكن رَوْعُها، فكأنَّها خافتْ عليه، وفعلت ما أُمِرت به؛ ألقته في اليمِّ، فساقه الله تعالى حتى التقطه ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾، فصار مِن لقْطِهـم، وهم الذين باشَـروا وُجْدانـه؛ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: لتكون العاقبةُ والمـآلُ من هذا الالتقاط أن يكون عدوًّا لهـم وحَزَنًا يحْزُنُهم؛ بسبب أنَّ الحذر لا ينفع من القدر، وأنَّ الذي خافوا منه من بني إسرائيل قيَّض الله أن يكونَ زعيمهم يتربَّى تحت أيديهم، وعلى نظرِهم، وبكفالتهم.

وعند التدبُّر والتأمُّل تجدُ في طيِّ ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودَفْع كثيرٍ من الأمور الفادحة بهم، ومَنْع كثيرٍ من التعدِّيات قبل رسالته؛ بحيث إنَّه صار من كبار المملكة، وبالطبع إنَّه لا بـدَّ أن يحصُلَ منه مدافعةٌ عن حقوق شـعبه، هذا وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقِّدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعَف ـ الذي بلغ بهم الذُّلُّ والإهانةُ إلى ما قصَّ الله علينا بعضه ـ أنْ صار بعضُ أفراده ينازعُ ذلك الشـعب القاهر العالي في الأرض، كما سـيأتي بيانه، وهذا مقدمةٌ للظُّهور؛ فإنَّ الله تعالى من سـنَّته الجارية أن

جعل الأمور تمشي على التدريج شيئًا فشـيئًا، ولا تأتي دفعةً واحدةً، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾، أي: فأردْنـا أن نعاقبهم على خطئهم ونكِيدهم، جزاءً على مكرهم وكيدهم.

فلما التقطهُ آلُ فرعون حنَّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة آسية بنت مزاحم، ﴿وَقَالَتِ﴾: هذا الولدُ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾، أي: أَبْقِهِ لنا؛ لِتقرَّ به أعينُنا، ونُسـرَّ به في حياتنا، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، أي: لا يخلو: إمَّا أن يكونَ بمنزلة الخدم الذين يَسْعونَ في نَفْعنا وخدمتنا، أو نرقِّيه درجةً أعلى من ذلك؛ نجعلُهُ ولدًا لنا، ونكرِمُه ونُجِلُّه، فقدَّر الله تعالى أنَّه نفع امرأة فرعون التي قالت تلك المقالــة؛ فإنَّه لما صار قُرَّةَ عينٍ لها، وأحبَّتْه حبًّا شديدًا، فلم يَزَلْ لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبُرَ ونبَّأه الله وأرسله، فبادرتْ إلى الإســلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها، قــال الله تعالى عن هذه المراجعات والمقاولات في شــأن موســى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما جرى به القلمُ، ومضى به القدرُ؛ من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا مِن لطفه تعالى؛ فإنَّهم لو شَعَروا لكان لهم وله شأنٌ آخر.

ولما فقدتْ موسى أمُّه حزنت حزنًا شديدًا، وأصبحَ فؤادُها فارغًا من القلق الذي أزعجها على مقتضى الحالة البشـريَّة، مع أنَّ الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها بِرَدِّه، ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: بما في قلبها، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فثبَّتْناهــا، فصبرتْ، ولم تُبْدِ بــه؛ ﴿لِتَكُونَ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنَّ العبد إذا أصابتْه مصيبةٌ فصبر وثبتَ ازداد بذلك إيمانُه، ودَلَّ ذلك على أنَّ استمرار الجزع مع العبد دليلٌ على ضعف إيمانه.

﴿وَقَالَتْ﴾ أمُّ موســى ﴿لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، أي: اذهبــي فقُصِّــي الأثرَ عن أخيك، وابحثي عنه، مــن غير أن يُحِــسَّ بك أحدٌ أو يشــعروا بمقصودك، فذهبتْ تقصُّه، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: أبصرتْه على وجهٍ،

كأنَّها مارَّةٌ لا قصدَ لها فيه، وهذا من تمام الحـزم والحذر؛ فإنَّها لو أبصرتْه، وجاءتْ إليهم قاصدةً؛ لظنُّوا بها أنها هي التي ألقتْه، فربَّما عزموا على ذبحه عقوبةً لأهله، ومن لُطْفِ الله بموسى وأمه أنْ مَنَعَهُ من قبول ثدي امرأةٍ، فأخرجوه إلى السوقِ رحمةً به، ولعل أحدًا يطلبُهُ، فجاءت أختُه وهو بتلك الحال، ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، وهذا جُلُّ غرضِهم؛ فإنَّهم أحبُّوه حبًّا شديدًا، وقد منعهُ الله من المراضع، فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت بتمام حِفْظه وكفالته والنُّصح له بادروا إلى إجابتها، فأعْلمتْهم ودلَّتْهم على أهل هذا البيت، ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ كما وعدْناها بذلك، ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بحيث إنَّه تربَّى عندها على وجهٍ تكون فيه آمنةً مطمئنةً تفرح به وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، فأريْناها بعضَ ما وعدْناها به عيانًا؛ ليطمئنَّ بذلك قلبُها، ويـزدادَ إيمانها، ولِتَعْلم أنَّه سيحصُلُ وعدُ الله في حفظه ورسالته، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فإذا رأوا السبب متشوِّشًا شـوَّشَ ذلك إيمانهم؛ لعدم علمهم الكامل أنَّ الله تعالى يجعلُ الـمِحَنَ والعقباتِ الشاقَّةَ بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة.

فاستمرَّ موسى عليه السلام عند آلِ فرعونَ، يتربَّى في سلطانهم، ويركبُ مراكِبَهم، ويلْبسُ ملابسـهم، وأمُّه بذلك مطمئنةٌ، قد اسـتقرَّ أنَّها أمُّه من الرضاع، ولم يُسـتنكَرْ ملازمتُه إيَّاها وحُنوُّها عليه، وتأمَّل هذا اللطف، وصيانة نبيِّه موسى من الكذب في منطقه، وتيسـير الأمر الذي صار به التعلُّق بينه وبينها، الذي بانَ للناس أنه هو الرضاعُ الذي بسـببه يسـمِّيها أُمًّا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كلّه صدقًا وحقًّا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ

عَدُوِّهِۦ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ۝ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ۝ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ۝ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص: ١٤ ـ ٢٢].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ من القوَّة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾، كملت فيه تلك الأمورُ، ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ أي: حُكمًا يعرف به الأحكام الشرعيَّة، ويحكُم به بين الناس، وعلمًا كثيرًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في عبادة الله، المحسنين لخلْق الله؛ نعطيهم علمًا وحكمًا بحسب إحسانهم، ودَلَّ هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام. ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾، إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾، أي: يتخاصمان ويتضاربان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ القبط، ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾؛ لأنَّه قد اشتهر، وعَلِم الناس أنَّه من بني إسرائيل، واستغاثتُهُ لموسى دليلٌ على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغًا يُخافُ منه، ويُرجَى من بيت المملكة والسلطان، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾، أي: وَكَزَ[1] الذي من عدوِّه استجابةً لاستغاثة الإسرائيليِّ، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: أماته من تلك الوكزة؛

---

(١) الوَكْز: الطَّعْن، والدَّفع، والضَّرب بجميع الكفِّ.

لشدَّتها وقوَّة موسى، فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: مــن تزيينه ووسوســته، ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، فلذلك أجريتُ ما أجريتُ بسبب عداوته البيِّنة، وحرصه على الإضلال، ثم استغفر ربَّه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، خصوصًا للمُخْبِتين، المبادرين للإنابة والتوبة؛ كما جرى من موسى عليه السلام، فقال موسى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أي: مُعينًا ومســاعدًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: لا أُعِيــن أحدًا علــى معصيةٍ، وهــذا وَعْدٌ من موسى عليه السلام، بسبب مِنَّة الله عليه أنْ لا يُعينَ مجرِمًا، كما فعل في قتل القبطيِّ، وهذا يفيدُ أنَّ النعم تقتضي من العبد فعل الخير، وترك الشر.

فلمَّا جرى منه قتْل الذي هو مِن عَدُوِّه أصبح ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ هل يشعرُ به آلُ فرعون أم لا؟ وإنما خاف؛ لأنَّه قد علِم أنَّه لا يتجرَّأ أحدٌ على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إســرائيل، فبينما هو على تلك الحال؛ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ على عدوِّه ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ على قبطيٍّ آخر، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ موبِّخًا له على حاله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، أي: بيِّنُ الغواية، ظاهر الجراءة، ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ موســى ﴿بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: له وللمخاصم المستصرخ لموسى، أي: لم يَزَل اللِّجاجُ بين القبطيِّ والإسرائيليِّ، وهو يستغيثُ بموسى، فأخذته الحميَّة، حتى همَّ أن يبطش بالقبطي، فقال له القبطيُّ زاجرًا له عن قتله: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ من أعظم آثار الجبَّــار فــي الأرض قتلَ النفــس بغير حــق، ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ وإلَّا فلو أردت الإصلاح لحُلْت بيني وبينه من غير قتل أحدٍ، فانكفَّ موسى عن قتله، وارْعوى لوعظه وزجره، وشاع الخبرُ بما جرى من موسى في هاتين القضيَّتين، حتــى تراوَد ملأُ فرعون وفرعونُ على قتله، وتشــاوروا على ذلك، فقيَّض الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع

عليه رَأْيُ مَلَئِهم، فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ أي: ركضًا على قدميه من نُصْحِهِ لموسى، وخوفِهِ أن يوقِعوا به، قبلَ أن يشعر، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك؛ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فامتثل نُصحه. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أن يُوْقع به القتل، ودعا الله و﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنَّه قد تاب من ذنبه، وفَعَلَهُ غضبًا من غير قصدٍ منه للقتل؛ فتوعَّدُهم له ظلمٌ منهم وجراءةٌ، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قاصدًا بوجهه مدينَ، وهو جنوبيُّ فلسطين حيث لا مُلك لفرعون، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وسط الطريق المختصر الموصل إليها بسهولةٍ ورفقٍ، فهداه الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۝ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٨].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشيةٍ كثيرةٍ، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: دون تلك الأمة، ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنمهما عن حياض الناس؛ لعجْزِهما عن مزاحمة الرجال، وبُخْلِهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿قَالَ﴾ لهما موسى: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، أي: ما شأنكما بهذه الحالة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: قد جرتِ

العادةُ أنَّه لا يحصل لنا سقي حتى يُصْدِرَ الرعاء مواشيهم[1]؛ فإذا خلا لنا الجوُّ سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، أي: لا قوَّة له على السقي، فليس فينا قوةٌ نقتدِرُ بها، ولا لنا رجالٌ يزاحِمون الرعاء، فَرَقَّ لهما موسى عليه السلام ورحمهما، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غيرَ طالبٍ منهما الأجر، ولا له قصدٌ غيرَ وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حرٍّ وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾؛ مستريحًا لتلك الظلال بعد التعب، ﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة مسترزقًا ربَّه: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أي: إنِّي مفتقرٌ للخير الذي تسوقُهُ إليَّ وتيسِّرُه لي، وهذا سؤالٌ منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغُ من السؤال بلسان المقال، فلم يَزَل في هذه الحالة داعيًا ربه متملِّقًا، وأما المرأتان فذهبتَا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، وهذا يدلُّ على كرم عنصرِها، وخُلُقها الحسن؛ فإنَّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء، ويدلُّ على أنَّ موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يُستحى منه عادة، وإنَّما هو عزيزُ النفس، رأتْ من حُسْن خُلُقه ومكارم أخلاقه ما أوجبَ لها الحياء منه، فقالت له: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، أي: لا لِيمُنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنَّما قصدُه أن يكافِئَك على إحسانك، فأجابها موسى، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾، من ابتداء السبب الموجِب لهربه، إلى أن وصل إليه، ﴿قَالَ﴾ مسكِّنًا رَوْعه، جابرًا قلْبَه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: ليذهبْ خوفك ورَوْعك؛ فإنَّ الله نجَّاك منهم، حيث وصلتَ إلى هذا المحلِّ الذي ليس لهم عليه سلطانٌ، ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾، أي: إحدى ابنتَيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، أي: اجْعَلْه أجيرًا عندك يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي:

(١) أي: يردُّ الرعاةُ أغنامَهم عن الماء.

إنَّ موسى أَوْلى مَنِ استُؤْجِر؛ فإنَّه جمع القوَّة والأمانة، وخير أجيرٍ استُؤْجِر مَن جمعهما؛ أي: القوَّة والقدرة على ما استُؤْجِر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغي اعتبارُهما في كلِّ من يتولَّى للإنســان عملًا بإجارة أو غيرها؛ فإنَّ الخلل لا يكون إلا بفقدهمــا، أو فَقْد إحداهما، وأمَّا باجتماعهما فإنَّ العمل يتمُّ ويكمُلُ، وإنَّما قالت ذلك لأنَّها شــاهدت من قوة موسى عند السَّقْي لهما ونشــاطه ما عرفتْ به قوَّته، وشــاهدتْ من أمانته وديانته، وأنَّه رحمهما في حالةٍ لا يُرجى نفعهما، وإنَّما قصْدُه بذلك وجه الله تعالى.

فقال صاحبُ مدْين لموسى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي: تصير أجيــرًا عندي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾، أي: ثماني ســنين، ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ تبرُّع منك لا شيء واجبٌ عليك، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ فأُحتِّم عشــر السنين، أو ما أريد أن أســتأجِرك لأكلِّفك أعمالًا شاقَّة، وإنَّما استأجرتك لعمل سهل يسيرٍ لا مشقَّة فيه، ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فرغَّبه في سهولة العمل، وفي حُسْن المعاملة، وهذا يدلُّ على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يُحسِّن خُلُقَهُ مهما أمكنه، وأنَّ الذي يُطْلب منه أبلغُ من غيــره، فقال موســى عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ مجيبًا له فيما طلبــه منه ـ: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾، أي: هذا الشــرط الذي أنت ذكرت رضيتُ به، وقد تمَّ فيما بيني وبينك، ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾ سواء قضيتُ الثماني الواجبة، أم تبرَّعْت بالزائد عليهــا، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ حافــظٌ يراقِبُنا، ويعلم ما تعاقدنا عليه.

وهذا الرجلُ أبو المرأتين صاحبُ مدين ليس بشعيب النبيِّ المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس؛ فإنَّ هذا قولٌ لم يدلَّ عليه دليلٌ، وغايةُ ما يكون أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قد كانت بلده مدين، وهذه القضيةُ جرتْ في مدين؛ فأين الملازمة بين الأمرَين؟! وأيضًا فإنَّه غير معلوم أن موســى أدركَ زمان شــعيبٍ، فكيف

بشـخصه؟! ولو كان ذلك الرجلُ شـعيبًا لذكره الله تعالى، ولسمَّتْه المرأتان، وأيضًا فإنَّ شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إيَّاه، ولم يبقَ إلا منْ آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين أن يرضوا لبنتَيْ نبيِّهم بمنعهما عن الماء وصدِّ ماشيتهما حتى يأتيَهُما رجلٌ غريبٌ، فيُحسِنُ إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيبٌ ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادمًا له وهو أفضلُ منه وأعلى درجةً، إلا أنْ يُقال: هذا قبل نبوَّة موسى فلا منافاة، وعلى كلِّ حال لا يُعتمد على أنَّه شعيبٌ النبيُّ بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ، والله أعلم.

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۞ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۞ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۞ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۞ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٢٩ ـ ٣٥].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ يُحتمل أنَّه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظنُّ بموسى ووفائه؛ اشتاق إلى الوصول إلى أهله ووالدته وعشيرته ووطنه، وظنَّ من طـول المدَّة أنَّهم قد تناسـوْا ما صدر منه، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قاصدًا مصر، ﴿ءَانَسَ﴾، أي: أبصر، ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، وكان قد أصابهم البردُ، وتاهُوا في الطريـق، فلمَّا أتاها نُودِي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ

﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، فأخبر بألوهيَّته وربوبيَّته، ويلزم من ذلك أنْ يأمُره بعبادته وتألُّهه، كما صرَّح به في الآية الأخرى، ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾، فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تسـعى سـعيًا شديدًا، ولها صورةٌ مَهِيلة ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ ذَكَرُ الحيَّات العظيم، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أي: يرجع لاسـتيلاء الرَّوْع على قلبه، فقال الله له: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾، وهذا أبلغُ ما يكون في التأمين، وعدم الخوف؛ فإنَّ قوله: ﴿أَقْبِلْ﴾ يقتضي الأمـر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قـد يكونُ إقباله، وهو لم يَزَل في الأمـرِ الـمَخُوف، فقـال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾، أمر له بشـيئين: إقباله، وأن لا يكون في قلبه خـوفٌ، ولكن يبقى احتمـالٌ، وهو أنَّه قـد يُقْبِل وهو غير خائفٍ، ولكـن لا تحصل له الوقايـة والأمن من المكـروه، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾، فحينئذٍ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنًّا واثقًا بخبر ربه، قـد ازداد إيمانه، وتمَّ يقينه، فهذه آيةٌ أراه الله إيَّاهـا قبل ذهابه إلى فرعون؛ ليكون علـى يقين تام، فيكون أجرأ له، وأقوى وأصلب، ثـم أراه الآية الأخرى، فقـال: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ﴾، أي: أَدْخِلْهـا ﴿فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، فسـلكها وأخرجها، كما ذكر الله تعالـى، ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، أي: ضُـمَّ جناحـك ـ وهـو عضُدُك ـ إلى جنبك؛ ليزول عنك الرَّهْب والخوف، ﴿فَذَٰنِكَ﴾: انقلاب العصا حيةً، وخروج اليـد بيضاء من غير سـوء، ﴿بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، أي: حُجَّتان قاطعتان من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾، فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إيَّاهم، بل لا بدَّ من الآيات الباهرة، إن نفعت، فقال موسـى عليه السلام معتذرًا من ربه، وسـائلًا له المعونة على ما حَمَّلَـه، وذاكرًا له الموانع التي فيه؛ ليُزيل ربُّه ما يحـذَره منها: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾، أي: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۞ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾، أي:

معاونًا ومساعدًا ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ فإنَّه مع تضافُر الأخبار يقوى الحقُّ، فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، أي: نعاونُك به ونقوِّيك، ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾، أي: تسلُّطًا، وتمكُّنًا من الدعوة بالحجَّة، والهيبة الإلهيَّة من عَدُوِّهما لهما، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾، وذلك بسبب آياتنا، وما دلَّت عليه من الحق، وما أزعجت به مَن باشَرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيدُ عدوكم، وصارت لكم أبلغ من الجنود أولي العَدَدِ والعُدَدِ، ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، وهذا وعدٌ لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريدٌ، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريدًا، فلم تَزَل الأحوال تتطوَّر، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكَّنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبةُ والظهورُ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۞ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۞ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ۞ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۞ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ۞ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۞ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ۞ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ۞ ۩ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۞ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۞ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۞ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۞ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۞ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۞ وَمَا تَنقِمُ

مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۝ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٣٥].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلى فرعــون يدعوه إلى الإيمان: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: إني رسولٌ من مُرْسِل عظيم، وهو ربُّ العالمين، الشامل للعالم العلوي والسـفلي، مربِّي جميع خَلْقِه بأنواع التدابير الإلهيَّة، التي من جملتها أنه لا يتركهم سـدى، بل يُرْسِـل إليهم الرُّسُـل مبشِّـرين ومنذرين، وهــو الذي لا يقدر أحــدٌ أن يتجرَّأ عليه، ويدَّعي أنه أرسـله ولم يُرْسِله، فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته؛ فحقيقٌ عليَّ أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحقَّ؛ فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخْذَ عزيـز مقتدر، فهذا مُوجِبٌ لأن ينقــادوا له ويتَّبعوه، خصوصًا وقد جاءهم ببيِّنة من الله واضحة على صحَّــة ما جاء به من الحقّ، فوجب عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان: إيمانهم به،

واتِّباعهم له، وإرسال بني إسرائيل الشعب الذي فضَّله الله على العالمين أولاد الأنبياء، وسِلسِلة يعقوب عليه السلام، الذي موسى عليه السلام واحدٌ منهم، فقال له فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾. ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ في الأرض، ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، أي: حية ظاهرةٌ تسعى، وهم يشاهدونها، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه، ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ من غير سوء؛ فهاتان آيتان كبيرتان دالَّتان على صحة ما جاء به موسى وصِدْقه، وأنَّه رسولُ ربِّ العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم؛ فلهذا ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من الآيات ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، أي: ماهرٌ في سحره، ثم خوَّفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول بأنه ﴿يُرِيدُ﴾ موسى بفعله هذا ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، أي: يريد أن يُجليكم من أوطانكم، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، أي: إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم؛ فإنَّ ما جاء به إن لم يقابَلْ بما يبطِلُه ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس، فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾، أي: احبسهما وأَمْهِلْهُما، وابعثْ في المدائن أناسًا يحشُرون أهل المملكة، ويأتون بكل سحَّارٍ عليم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة؛ ليقابلوا ما جاء به موسى، فقالوا: يا موسى ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

وقال هنا: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجزاء إن غلبوا، فقالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾؟ فقال فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم أجر، ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعُلُوَّ المنزلة عنده؛ ليجتهدوا ويبذُلوا وسعهم وطاقتهم في مغالبة موسى، فلما حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم، ﴿قَالُوا۟﴾ على وجه التألِّي وعدم المبالاة بما جاء به

موسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ ما معك، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾، فقال موسى: ﴿أَلۡقُواْ﴾ لأجل أن يرى الناسُ ما معهم وما مع موسى، ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ حبالهم وعصيَّهم إذا هي مِن سِحْرِهم كأنها حياتٌ تسعى، فسحروا ﴿أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ لم يوجدْ له نظيرٌ من السحر، ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ فألْقاها، ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ حيَّةٌ تسعى، فتلقف جميعَ ﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾، أي: يُكَذِّبون به ويُمَوِّهون، ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾، أي: تَبَيَّنَ، وظهر واستعلن في ذلك المجمع، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾، أي: في ذلك المقام، ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾، أي: حقيرين قد اضمحلَّ باطلهم، وتلاشى سِحْرُهم، ولم يحصُل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله، وأعظم مَن تبيَّن له الحقُّ العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله، لا يَدانِ لأحد بها، فأُلْقِي ﴿ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، أي: وصدَّقنا بما بُعِثَ به موسى من الآيات البينات، فقال لهم ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ متهدِّدًا على الإيمان: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾، كان الخبيث حاكمًا مستبِدًّا على الأبدان والأقوال، قد تقرَّر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذٌ فيهم، ولا خروج لأحدٍ عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحطُّ الأمم وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾، وقال هنا: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾، أي: فهذا سوءُ أدبٍ منكم وتجرُّؤ عَليَّ، ثم موَّه على قومه، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَا﴾، أي: إن موسى كبيركم الذي علَّمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تنغلِبوا له فيظهرَ فتتَّبعونه، ثم يتَّبعكم الناس أو جمهورهم، فتُخْرِجوا منها أهلها، وهذا كذب يعلم هو ومَن سبر الأحوال أن موسى ﵇ لم يجتمع بأحدٍ منهم، وأنهم

جُمِعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهيَّة، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبيَّن لهم الحق، فاتبعوه، ثم توعَّدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أحِلُّ بكم من العقوبة.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ زعم الخبيثُ أنَّهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين؛ من تقطيع الأيدي والأرجل من خلافٍ، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ في جذوع النخل؛ لتَخْتَزُوا[1] بزعمه ﴿أَجْمَعِينَ﴾، أي: لا أفعل هذا الفعل بأحدٍ دون أحدٍ، بل كلُّكم سيذوق هذا العذاب. فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهدَّدهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، أي: فلا نبالي بعقوبتك؛ فالله خيرٌ وأبقى، فاقضِ ما أنت قاضٍ، ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾، أي: وما تعيب منَّا على إنكارك علينا وتوعُّدك لنا، فليس لنا ذنبٌ ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، فإنْ كان هذا ذنبًا يُعاب عليه، ويستحقُّ صاحبه العقوبة، فهو ذنبُنا، ثم دعوا الله أن يثبِّتهم ويصبِّرهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾، أي: أَفِضْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، أي: عظيمًا، كما يدلُّ عليه التنكير؛ لأنَّ هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير؛ ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، أي: منقادين لأمرك، متَّبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعَّدهم عليه، وأنَّ الله تعالى ثبَّتهم على الإيمان.

هذا وفرعون وملؤه وعامَّتهم المتَّبِعون للملأ قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلمًا وعُلُوًّا، وقالوا لفرعون مهيِّجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكنَّ الظالمين لا يبالون بما يقولون،

---

(١) أي: ليصيبكم الخزيُ والهوان.

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، أي: يدعك أنت وآلهتك، وينهـى عنك، ويصد الناس عن اتباعك، فقال فرعونُ مجيبًا لهم بأنه سَيَدَعُ بني إسرائيل مع موسى بحالةٍ لا يَنْمُون فيهـا، ويأمنُ فرعـونُ وقومهُ بزعمه مـن ضررهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، أي: نستبقيهنَّ فلا نقتلهنَّ، فإذا فعلْنا ذلك أَمِنَّا من كثرتهم، وكنَّا مستخدمين لباقيهم، ومسـخِّرين لهم على ما نشاء من الأعمال، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتوّ والقسوة.

فقال ﴿مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موصيًا لهم ـ في هـذه الحالة التي لا يقدرون معها على شيء ولا مقاومة ـ بالمقاومة الإلهية، والاسـتعانة الربانيَّة: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾، أي: اعتمدوا عليه في جَلْب ما ينفعكـم، ودفع ما يضرُّكم، وثِقوا بالله أنه سيتمُّ أمركم، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾، أي: الزموا الصبر على ما يحلُّ بكم، منتظرين للفرج، ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ ليسـت لفرعون ولا لقومه حتى يتحكَّموا فيها، ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتَّقين؛ فإنَّهم وإن امتُحِنوا مدةً ابتلاءً من الله وحكمة فإنَّ النصر لهم، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدة لهم على قومهم، وهذه وظيفة العبد؛ أنَّه عند القدرة أن يفعل من الأسـباب الدافعة عنه أذى الغير ما يقدر عليه، وعند العجز أن يصبر ويستعين الله، وينتظر الفرج، ﴿قَالُوٓاْ﴾ لموسى متضجِّرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعـون وأذيَّته: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾، فإنهم يسوموننا سـوء العذاب، يذبِّحون أبناءنا ويستحيون نسـاءنا، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ كذلك، فقال لهم موسـى مُرجِّيًا لهم الفرج والخلاص من شـرِّهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: يمكِّنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، هل تشـكُرون أم تكفُرون، وهذا وعدٌ أنجزه الله لمَّا جاء الوقت الذي أراده الله.

قال الله تعالى في بيان ما عامَلَ بــه آلَ فرعون في هذه المدة الأخيرة: إنها على عادته وســنته في الأمــم ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ الآيات: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾، أي: بالدُّهور والجدب، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾، أي: يتَّعظون أنَّ ما حلَّ بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلَّهم يرجِعون عن كفرهم، فلم ينجعْ فيهم ولا أفاد، بل استمرُّوا على الظُّلم والفساد، ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾، أي: الخصب وإدرار الــرزق، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، أي: نحن مستحقُّون لها، فلم يشــكروا الله عليها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾، أي: قحط وجــدب، ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾، أي: يقولوا: إنما جاءنا بســبب مجيء موسى، واتِّبَاع بني إسرائيل له.

قال الله تعالــى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، أي: بقضائه وقَدَرِه، ليس كما قالــوا، بــل إن ذنوبهم وكفرهــم هو الســبب في ذلك، بــل ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ مبيِّنين لموسى أنهم لا يزالون ولا يَزُولُون عن باطلهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: قــد تقــرَّر عندنا أنك ساحرٌ؛ فمهما جئت بآية جزمنا أنها ســحرٌ، فلا نؤمن لك ولا نصدِّق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾، أي: المــاء الكثيــر الــذي أغــرق أشــجارهم وزروعهم، وأضرَّ بهم ضررًا كثيرًا، ﴿وَٱلْجَرَادَ ﴾، فأكل ثمارهم وزروعهم ونباتهم، ﴿وَٱلْقُمَّلَ ﴾، قيل: إنه الدُّباء، أي: صغــار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ ﴾، فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم، وآذتهم أذيَّة شديدةً، ﴿وَٱلدَّمَ ﴾ إما أن يكونَ الرُّعَاف، أو كما قال كثير من المفسرين: إنَّ ماءهم الذي يشربون انقلب دمًا، فكانوا لا يشربون إلا دمًا، ولا يطبخون إلا بدم، ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾، أي: أدلَّة

وبيّنـات على أنّهم كانـوا كاذبين ظالميـن، وعلى أن ما جاء به موسـى حقٌّ وصدقٌ، ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ لمـا رأوا الآيـات، ﴿وَكَانُواْ﴾ في سـابق أمرهم ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، فلذلك عاقبهم الله تعالى بأن أبقاهم على الغي والضلال.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾، أي: العذاب، يحتمل أنَّ المراد به: الطاعون، كما قاله كثيرٌ من المفسـرين، ويحتمل أن يُـراد به ما تقدَّم من الآيـات: الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدَّم، فإنها رجزٌ وعـذابٌ، وإنهم كلَّما أصابهم واحد منها؛ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، أي: تشفَّعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشـرع، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وهم في ذلك كَذَبةٌ، لا قصـدَ لهم إلا زوالُ ما حلَّ بهم من العذاب، وظنُّوا إذا رُفِـع لا يصيبهم غيره، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾، أي: إلى مدة قدَّر الله بقاءهم إليها، وليس كشفًا مؤبَّدًا، وإنما هو مؤقت، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل؛ فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمرُّوا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۞ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۞ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٩].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ موصيًا لقومه بالصبر، ومذكرًا لهم ما يسـتعينون به على ذلك، فقـال: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فقومـوا بوظيفة الإيمـان، وعلى الله

﴿ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾، أي: اعتمدوا عليه، والجؤوا إليه واستنصروه، ﴿ فَقَالُواْ ﴾ ممتثلين لذلك: ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أي: لا تسلِّطهم علينا فيفْتِنُونا، أو يغْلِبُونا، فيفْتتنون بذلك، ويقولون: لو كانوا على حقٍّ لما غُلِبوا، ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لنَسْلَم من شرِّهم، ولنقيم على ديننا على وجهٍ نتمكَّن به من إقامة شرائعه، وإظهاره من غير معارض ولا منازع، ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ ﴾ حين اشتدَّ الأمر على قومهما من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم، ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا ﴾، أي: مُرُوهم أن يجعلوا لهم بيوتًا يتمكَّنون من الاستخفاء فيها، ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾، أي: اجعلوها محلًّا تُصَلُّون فيها حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبِيَع العامَّة، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فإنها معونةٌ على جميع الأمور، ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم؛ فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا، وحين اشتدَّ الكرب، وضاق الأمر؛ فرَّجه الله ووسَّعه، فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون ومَلَئِه دعا عليهم وأمَّن هارونُ على دعائه، فقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ ﴾ يتزينون بها من أنواع الحليِّ والثياب، والبيوت المزخرفة، والمراكب الفاخرة، والخُدَّام، ﴿وَأَمۡوَٰلٗا﴾ عظيمةً ﴿ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾، أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فيضِلُّون ويُضِلُّون، ﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾، أي: أتلفها عليهم؛ إما بالهلاك، وإما بجَعْلها حجارةً غير مُنتفَعٍ بها، ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾، أي: قَسِّها، ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ قال ذلك غضبًا عليهم، حيث تجرؤوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدُّوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربِّه بأنَّ الله سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم، ﴿قَالَ ﴾ الله تعالى: ﴿ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا ﴾، **هذا** دليلٌ على أن موسى كان يدعو، وهارون يؤمِّن على دعائه، وأن الذي يؤمِّن

يكون شــريكًا للداعي في ذلك الدعاء، ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على دينكما، واســتمِرَّا على دعوتكمــا، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا تتبعانِّ ســبيل الجهَّال الضُلَّال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتَّبِعين لطرق الجحيم.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٦].

فلمَّا يئِس موســى من إيمانهم، وحقَّتْ عليهم كلمــةُ العذاب، وآنَ لبني إســرائيل أن ينجيهم من أَسْــرِهِم، ويمكِّنَ لهم فــي الأرض؛ أوحى الله إلى موســى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾، أي: اخرُجْ ببني إســرائيلَ أولَ الليــل؛ ليتمادَوْا ويتمهَّلوا في ذهابهم، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، أي: ســيتبعُكم فرعون وجنوده، ووقع كما أخبر؛ فإنَّهم لما أصبحوا وإذا بنو إســرائيل قد سَــرَوْا كُلُّهم مع موسى. ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يجمعون الناس؛ ليُوقِع ببني إسرائيل، ويقولُ مشــجعًا لقومــه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: بنــي إســرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، فنريد أن ننفِّذ غيظنا في هؤلاء العبيد، الذين أَبَقُوا منَّا، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، أي: الحذر علــى الجميع منهم، وهم أعــداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، ونفيرٍ عامٍّ، لم يتخلَّف منهم سوى أهل الأعذار الذين منعهم العجزُ.

قال الله تعالــى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: بســاتين مصر وجنانها الفائقة، وعيونها المتدفِّقة، وزروع قد ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم

وبواديهم، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يُعجِبُ الناظرين، ويُلهي المتأمِّلين؛ تمتَّعوا به دهرًا طويلًا، وقضوا بلذَّاته وشهواته عمرًا مديدًا على الكفر والفساد، والتكبُّر على العباد والتيه العظيم، ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾، أي: هذه البساتين والعيون، والزُّروع، والمقام الكريم، ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين جعلوهم من قبْلُ عبيدَهم، وسُخِّروا في أعمالهم الشاقَّة، فسبحان مَنْ يؤتي الملك مَنْ يشاءُ، وينزِعُه عمَّن يشاءُ، ويُعزُّ من يشاءُ بطاعته، ويذلُّ من يشاء بمعصيته.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾، أي: اتَّبع قومُ فرعون قومَ موسى وقتَ شُروقِ الشمس، وساقوا خلفهم مُحِثِّين على غَيْظٍ وحنقٍ قادِرين، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾، أي: رأى كلٌّ منهما صاحبه، ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ﴾ شاكِين لموسى وحَزِنين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، فقال موسى مُثَبِّتًا لهم، ومُخْبِرًا لهم بوعدِ ربِّه الصادق: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما ذكرتُم أنَّكم مُدْركون، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتُكم، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه، ﴿فَانفَلَقَ﴾ اثني عشر طريقًا، ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ﴾، أي: الجبل ﴿الْعَظِيمِ﴾، فدخله موسى وقومه، ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ في ذلك المكان ﴿الْآخَرِينَ﴾، أي: فرعون وقومه، قرَّبْناهم، وأدخلْناهم في ذلك الطريق الذي سلك منه موسى وقومه، ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ استكْملوا خارجين، لم يتخلَّفْ منهم أحدٌ، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ لم يتخلَّفْ منهم عن الغرقِ أحدٌ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

حتى إذا أدرك فرعونَ الغرقُ، وجزم بهلاكه؛ ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، وهو الله الإله الحقُّ الذي لا إله إلا هو، ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾،

أي: المنقاديــن لدين الله، ولِمَا جاء به موســى، قال الله تعالــى مُبَيِّنًا أنَّ هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ تؤمن، وتُقِرُّ برسول الله، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾، أي: بــارزت بالمعاصــي والكفــر والتكذيب، ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فلا ينفعُك الإيمان كما جرتْ عــادةُ الله أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالــة الاضطراريَّة أنَّــه لا ينفعهم إيمانهــم؛ لأنَّ إيمانهم صــار إيمانًا مشاهَدًا؛ كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفعُ إنما هو الإيمان بالغيب، ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾، قال المفسِّــرون: إنَّ بني إسرائيل لِما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون كأنَّهم لم يصدِّقوا بإغراقه، وشــكُّوا في ذلك، فأمر الله البحر أن يُلقِيَهُ على نَجْوَةٍ[1] مرتفعةٍ ببدنه؛ ليكون لهم عبرة وآيــة، ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾، فلذلك تمــرُّ عليهم وتتكرَّر فلا ينتفعون بها؛ لعدم إقبالهم عليها، وأما مَن له عقلٌ وقلبٌ حاضر فإنَّه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحَّة ما أخبرت به الرُّسُل.

❋ ❋ ❋

(١) النَّجْوة: ما ارتفع من الأرض.

فوائد من هذه القصة

فمنها: أنَّ آياتِ الله تعالى وعِبَرَه وأيامَه في الأمم السابقة إنَّما يستفيدُ بها ويستنيرُ المؤمنون؛ فعلى حسب إيمان العبد تكون عِبْرَتُهُ، وإنَّ الله تعالى إنَّما يسوقُ القصص لأجلهم؛ كما قال الله تعالى في هذه القصة: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وأمَّا غَيْرُهم فلا يعبأ الله بهم، وليس لهم منها نورٌ وهدى.

ومنها: أنَّ الله تعالى إذا أراد أمرًا هَيَّأ أسبابَه، وأتى بها شيئًا فشيئًا بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أنَّ الأمَّة المستضعَفة ـ ولو بلغت في الضعف ما بلغتْ ـ لا ينبغي لها أنْ يستولي عليها الكسلُ عن طلبِ حقِّها، ولا الإياسُ من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصًا إذا كانوا مظلومين؛ كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل الأمَّة الضعيفة من أَسْر فرعون ومَلَئِه، ومكَّنهم في الأرض، وملَّكهم بلادَهم.

ومنها: أنَّ الأمة ما دامت ذليلةً مقهورةً لا تأخُذُ حقَّها ولا تتكلَّم به لا يقوم لها أمرُ دينها ولا دُنياها، ولا يكون لها إمامةٌ فيه.

ومنها: لطف الله بأمِّ موسى بذلك الإلهام الذي به سَلِم ابنها، ثم تلك البشارة من الله لها بِرَدِّه إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها، ثم رَدَّهُ إليها بإلجائه إليها قَدَرًا بتحريم المراضع عليه، وبذلك وغيره يُعْلَم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصوَّرها العقول، ولا تعبِّر عنها العبارات، وتأمَّل موقع هذه البشارة، وأنه أتاها ابنها ترضعه جهرًا، وتأخذ عليه أجرًا، وتسمى أمه شرعًا وقَدَرًا، وبذلك اطمأن قلبها، وازداد إيمانها، وفي هذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة ٢١٦]،

فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة.

ومنها: أنَّ الله يُقدِّرُ على عبده بعضَ المشاقِّ؛ لِيُنيلَه سرورًا أعظم من ذلك، أو يدفعَ عنه شرًّا أكثر منه، كما قدَّر على أمِّ موسى ذلك الحزن الشديد، والهمَّ البليغ الذي هو وسـيلةٌ إلى أن يَصِلَ إليها ابنُها على وجهٍ تطمئنُّ به نفسـها، وتَقَرُّ به عينُها، وتزداد به غبطةً وسرورًا.

ومنها: أنَّ الخـوف الطبيعيَّ من الخلق لا يُنافي الإيمـان ولا يُزيلُه؛ كما جرى لأمِّ موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أنَّ الإيمان يزيد وينقـص؛ لقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأنَّ من أعظم ما يزيدُ به الإيمان، ويتمُّ به اليقينُ: الصبرُ عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلِقات، كما قـال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليزداد إيمانُها بذلك ويطمئنَّ قلبُها.

ومنها: أنَّ من أعظم نِعَم الله على عبدِهِ، وأعظم معونةٍ للعبد على أمورِهِ؛ تثبيتُ الله إيَّاه، ورَبْطُ جأشِـهِ وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة؛ فإنَّه بذلك يتمكَّن من القول الصواب، والفعل الصواب؛ بخلاف من استمرَّ قلقُه ورَوْعُه وانزعاجُه؛ فإنَّه يضيع فِكْرُه، ويذهل عقله؛ فلا ينتفعُ بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أنَّ العبـد ولو عرف أنَّ القضاء والقدر حـق، ووَعْد الله نافذٌ لا بدَّ منه؛ فإنَّه لا يهمل فِعْلَ الأسباب التي أُمِرَ بها، فإن الأسباب والسعي فيها من قَدَر الله، ولا يكون ذلك منافيًا لإيمانه بخبر الله؛ فإنَّ الله قد وعد أمَّ موسى أن يردَّه عليها، ومع ذلك اجتهدت على ردِّه لما التقطه آل فرعون، وأرسلتْ أخته لتقُصَّه وتطلُبَه.

ومنها: جـواز خروج المرأةِ فـي حوائِجِها، وتكليمهـا للرجال، من غير محذورٍ، كما جرى لأخت موسى وابنتَيْ صاحب مدينَ.

ومنها: جوازُ أخْذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على مَن يفعلُ ذلك، كما فعلت أم موسى، فإن شَـرْعَ مَن قبلنا شرع لنا ما لم يَرِد من شرعنا ما ينسخه.

ومنها: أنَّ الله مـن رحمته بعبده الضعيف الذي يريـد إكرامه أنه يُرِيه من آياته، ويُشْهِده من بيِّناته، ما يزيدُ به إيمانه، كما ردَّ الله موسى على أمِّه؛ لتعلمَ أنَّ وعد الله حقٌّ.

ومنها: أنَّ قَتْـل الكافـر الذي له عهـدٌ بعقـدٍ أو عُرفٍ لا يجـوزُ؛ فإنَّ موسى عليه السلام عدَّ قتلَه القبطيَّ الكافر ذنبًا، واستغفر الله منه وتاب إليه.

ومنها: أنَّ الذي يقتُلُ النفوس بغير حقٍّ يُعَدُّ من الجبارين الذين يفسِدون في الأرض.

ومنها: أنَّ مَن قتل النفوس بغير حقٍّ، وزعم أنَّه يريد الإصلاح في الأرض، وتهييب أهل المعاصي؛ فإنَّه كاذبٌ في ذلك، وهو مفسدٌ؛ كما حكى الله قولَ القبطـيِّ: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

ومنها: أنَّ إخبارَ الرجلِ غيرَه بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شرٍّ يقع فيه؛ لا يكـونُ ذلك نميمةً، بل قـد يكونُ واجبًا، كما سـاق الله خبر ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى محذِّرًا لموسى على وجه الثناء عليه.

ومنها: أنَّه إذا خاف القتل والتَّلَف في إقامته في موضع؛ فإنَّه لا يُلْقِي بيده إلى التَّهلكة، ولا يستسـلم للهلاك، بل يَفِرُّ من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى.

ومنها: أنَّه عند تزاحُم المفسدتين إذا كان لا بدَّ من ارتكاب إحداهما فإنَّه يرتكبُ الأخفَّ منهما والأسلم؛ دفعًا لما هو أعظم وأخبر، فإنَّ موسى لما دار الأمرُ بين بقائه في مصر ولكنَّه يُقتل، أو يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعْرفُ الطريق إليها، وليس معه دليلٌ يدلُّه غير ربِّه، ولكن هذه الحالة أرجى للسلامة من الأولى، فتبِعَها موسى.

ومنها: أنَّ الناظــر في العلم عنــد الحاجة إلى العمــل أو التكلُّم فيه إذا لم يترجَّحْ عنده أحدُ القولَين؛ فإنَّه يســتهدي ربَّه، ويســألُه أن يهْدِيَه الصواب من القولين، بعد أن يقصِدَ بقلبه الحقَّ ويبحث عنه؛ فإنَّ الله لا يُخَيِّبُ مَن هذه حاله؛ كما جرى لموســى لما قصد تلقاءَ مدينَ، ولا يدري الطريق الـمُعِين إليها، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقد هداه الله، وأعطاه ما رجاه وتمنَّاه.

ومنها: أنَّ الرحمة بالخَلْق، والإحسان على من يعْرِفُ ومن لا يعْرِفُ؛ من أخلاق الأنبياء، وأنَّ من جملة الإحسان الإعانة على سَقْي الماشية، وخصوصًا إعانة العاجز، كما فعل موســى مع ابنتَيْ صاحب مدين حين سقى لهما لَمَّا رآهما عاجزتَيْن عن سَقْي ماشيتهما قبل صدور الرعاة.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشــرحها، ولو كان الله عالِمًا بها؛ لأنَّه تعالى يحبُّ تضرُّع عبده، وإظهار ذُلِّه ومسكنته؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ومنها: أنَّ الله كمــا يحبُّ من الداعي أن يتوسَّــلَ إليه بأســمائه وصفاته، ونِعَمِه العامة والخاصة، فإنَّه يحبُّ منه أن يتوسَّــلَ إليه بضعفه وعجزه وفقره، وعدم قدرته على تحصيل مصالحه، ودفع الأضرار عن نفسه؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ لمــا فــي ذلــك مــن إظهــار التضرع والمسكنة، والافتقار لله الذي هو حقيقة كل عبد.

ومنها: أنَّ الحياء ـ خصوصًا من الكرام ـ من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يَزَل دأبَ الأمم الصالحين.

ومنها: أنَّ العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأةٌ عليه من غير قصدٍ بالقصد الأول؛ فإنَّه لا يُـلام على ذلك، ولا يخلُّ بإخلاصه وأجره؛ كما قَبِل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغِ له، ولم يستشرفْ بقلبه على عوض.

ومنها: مشـروعيَّة الإجارة، وأنَّها تجوز على رعاية الغنـم ونحوها، مما لا يُقدَّرُ به العمل، وإنَّما مرده العرف.

ومنها: أنَّه تجوز الإجـارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعـة بُضْعًا؛ كما قال صاحب مدين: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ الآية.

ومنها: أنَّ خطبة الرجل لابنته الرجل الـذي يتخيَّره لا يلام عليه، بل قد يكون نفعًا وكمالًا؛ كما فعل صاحب مدين مع موسى.

ومنها: قوله: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾، هذان الوصفان بهما تمام الأعمـال كلها، فكل عمـل من الولايـات، أو من الخدمـات، أو من الصناعات، أو مـن الأعمال التي القصد منها الحفـظ والمراقبة على العمال والأعمال إذا جمع الإنسان الوصفين؛ أن يكون قويًّا على ذلك العمل بحسب أحوال الأعمال، وأن يكـون مؤتمنًا عليه، تمَّ ذلـك العمل وحصل مقصوده وثمرته، والخللُ والنقص سببُه الإخلال بهما أو بأحدهما.

ومنها: من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخُلُق مع كل مَن يتَّصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومعامـل وغيرهم، ومن ذلـك تخفيف العمل عن العامل؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾،

وفيه أنه لا بأس أن يرغب المعامــل في معاملته بالمعاوضات والإجارات؛ بأن يصف نفسه بحُسن المعاملة بشرط أن يكون صادقًا في ذلك.

ومنها: جوازُ عقد المعاملات؛ من إجارة وغيرها بغير إشهاد؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، وتقدم أن الإشهاد به تنحفظ الحقوق، وتقل المنازعات، والناس في هذا الموضع درجات متفاوتة، وكذلك الحقوق.

ومنها: الآيات البينات التي أيَّد الله بها موســى مــن انقلاب عصاه التي كان يعرفها: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، ثم عَوْدِها سيرتَها الأولى، وأن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء من غير سوء للناظرين، ومِن عصمة الله وحمايته لموسى وهارون من فرعون ومَلَئه، ومن انفلاق البحر لَمَّا ضربه موسى بعصاه فصار اثنَيْ عشر طريقًا، وســلكه هؤلاء فنجوا، وقوم فرعون فهلكوا، وغير ذلك من الآيات المتتابعات التي هي براهين وآيات لمن رآها وشــاهدها، وبراهين لمن سمعها، فإنَّها نقلتها معظم مصادر اليقين؛ الكتب الســماوية، ونقلتهــا القرونُ كلُّها، ولم ينكرْ مثلَ هذه الآياتِ إلا جاهلٌ مكابرٌ زنديقٌ، وجميعُ آياتِ الأنبياءِ بهذه المثابة.

ومنها: أن آيــات الأنبياء، وكرامات الأولياء، ومــا يخرقه الله من الآيات، ومن تغيير الأسباب، أو منع سببيتها، أو احتياجها إلى أسباب أُخَر، أو وجود موانع تعوقها؛ هي من البراهين العظيمة على وحدانية الله، وأنه على كل شيء قديــر، وأن أقــدار الله لا يخرج عنهــا حادث جليــل ولا حقيــر، وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييــرات لا تنافي ما جعل الله في هذه المخلوقات من الأسباب المحسوسة، والنظامات المعهودة، وإنك لا تجد لسُنَّة الله تبديلًا ولا تحويلًا؛ **فإنَّ سنن الله في جميع الحوادث السابقة واللاحقة قسمان:**

أحدهما: وهو جمهور الحوادث والكائنات، والأحكام الشرعية والقدرية، وأحكام الجزاء لا تتغير، ولا تتبدل عما يعهده الناس، ويعرفون أســبابه، وهذا القسم أيضًا مندرج في قدرة الله وقضائه، ويُستفاد من هذا العلم بكمال حكمة

الله في خلقه وشرعه، وأن الأسباب والمسببات مَن سَلَك طرقها على وجه كامل أفضت به إلى نتائجها وثمراتها؛ ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه ناقص لم يحصل له الثمرات التي رُتِّبَت على الأعمال شرعًا ولا قدرًا، وهذه توجب للعبد أن يَجِدَّ ويجتهد في الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانته بالله، والثناء على ربه في تيسيرها، وتيسير أسبابها وآلاتها، وكل ما تتوقف عليه.

والقسم الثاني: حوادث معجزات الأنبياء التي تواترت تواترًا لا يتواتر مثله في جميع الأخبار، وتناقلتها القرونُ كلُّها، وكذلك ما يُكرِمُ الله به عباده من إجابة الدعوات، وتفريج الكربات، وحصول المطالب المتنوعة، ودَفْع المكاره التي لا قدرة للعبد على دفعها، والفتوحات الربانية، والإلهامات الإلهية، والأنوار التي يقذفها الله في قلوب خواصِّ خَلْقِه، فيحصل لهم بذلك من اليقين والطمأنينة والعلوم المتنوعة ما لا يُدْرَك بمجرَّد الطلب وفعل السبب، ومنْ نصْرِه للرسل وأتباعهم، وخذلانه لأعدائهم، وهو مشاهَد في كثير من الأوقات.

فهذا القسم ليس عند الخلق اهتداء إلى أسباب هذه الحوادث، ولا جُعِلَ لهم في الأصل وصولٌ إلى حقيقتها وكُنهها، وإنما هي حوادث قدَّرها الربُّ العظيمُ الذي هو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، بأسبابٍ وحكمٍ وسننٍ لا يعقلها الخَلْق، ولا لحواسهم وتجاربهم وصول إليها بوجه من الوجوه، وبها آمن الرسل من أولهم إلى آخرهم، وأتباعهم الأوَّلون منهم والآخرون، وبها يُعرف عظمة الباري، وأنَّ نواصي العباد بيده، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأْ لم يكنْ، ويُعرف بذلك صحة ما جاءت به الرسل، كما يُعرف أيضًا بالقسم الأول.

وكما أنه لا سبيل إلى العباد في هذه الدار إلى إدراك كُنْه صفات اليوم الآخر، وكُنْه ما في الجنة والنار، وإنما يعلمون منها ما علَّمتهم به الرسل، ونزلت به الكتب، ولا سبيل إلى أهل هذا الكون الأرضي للوصول إلى العالم

السماوي، ولا سبيل لهم إلى إحياء الموتى، وإيجاد الأرواح في الجمادات، فكذلك هذا النوع العظيم من حوادث الكون.

وإنما أَطَلْنا الكلام على هذه المسألة، وإن كانت تستحق من البسط أكثر من هذا؛ **لأمرين:**

أحدهما: أن الزنادقةَ المتأخِّرين الذين أنكروا وجودَ الباري، وأنكروا جميعَ ما أخبرت به الرسلُ، والكتبُ الســماوية من أمور الغيب، ولم يُثبتوا من العلوم إلا ما وصلت إليه حواسُّهم وتجاربُهم القاصرة على بعض علوم الكون، وأنكروا ما ســوى ذلك، وزعموا أن هذا العالم وهذا النظام الموجــود فيه لا يمكن أن يغيِّره مُغَيِّر، أو يغير شيئًا من أسبابه، وأنه وُجِد صدفة من غير إيجاد مُوجِد، وأنه آلة تمشي بنفســها وطبيعتها، ليس لها مُدَبِّر، ولا رب ولا خالق، وهؤلاء جميع أهل الأديان يعرفون مكابرتهــم ومباهتتهم؛ لأنهم كما عدموا الدين بالكلية فقد اختلَّت عقولهم الحقيقة؛ إذ أنكروا أجلى الحقائق وأوضحها، وأعظمها براهين وآيات، وتاهوا بعقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة، هؤلاء أمرهم معلوم، ولكن...

الأمــر الثاني: أن بعــض أهل العلــم العصريين الذيــن يتظاهرون بنصر الإسلام، والدخول مع هؤلاء الزنادقة في الجدال عنه، يريدون باجتهادهم، أو اغترارهــم أن يُطَبِّقوا الســنن الإلهية وأمور الآخــرة؛ على ما يعرفــه العباد بحواسِّــهم، ويدركونه بتجاربهم، فحرَّفوا لذلك المعجزات، وأنكروا الآيات البينات، ولم يستفيدوا إلا الضرر على أنفســهم، وعلى من قرأ كتاباتهم في هذه المباحث؛ إذ ضعــف إيمانهم بالله بتحريفهم لمعجــزات الأنبياء تحريفًا يؤول إلى إنكارها، وإنكارهم هذا النوع العظيم من قضاء الله وقدره، وضعف إيمان مَــن وقف على كلامهم ممن ليســت له بصيرة، ولا عنــده من العلوم الدينية ما يُبطل هذا النــوع، ولم يحصل ما زعموه من جلــب الماديين إلى الهدى والدين، بل زادوهم إغراءً في مذاهبهم؛ لما رأَوا أمثالَ هؤلاء يحاولون

إرجاعَ النصوص الدينية، ومعجزات الأنبياء، وأمور الغيب إلى علومِ هؤلاء القاصرةِ على التجارب المُدركات بالحواس.

فيا عِظَمَ المصيبة! ويا شدة الجرم المزوَّق، ولكن ضعف البصيرة والإعجاب بزنادقة الدهريين أوجب الخضوع لأقوالهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنها: أنَّ من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إمامًا في الشر وداعيًا إليه، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته، كما أنَّ من أعظم نِعَم الله على العبد أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا مهديًّا، قال تعالى في فرعون ومَلَئِه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

ومنها: ذكر كثير من أهل العلم أنه يُستفاد من قوله تعالى عن جواب موسى لربه لما سأله عن العصا، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ الآية، استحبابُ استصحاب العصا؛ لما فيه من هذه المنافع المعينة والمجملة في قوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، وأنه يُستفاد منها أيضًا الرحمة بالبهائم، والإحسان إليها، والسعي في إزالة ضررها.

ومنها: أن قوله جلَّ ذِكْره: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾، أي: إن ذِكْر العبد لربه هو الذي خُلِق له العبد، وبه صلاحه وفلاحه، وأن المقصودَ من إقامة الصلاة إقامةُ هذا المقصود الأعظم، ولولا الصلاةُ التي تتكرَّرُ على المؤمنين في اليوم والليلة لتُذَكِّرهم بالله، ويتعاهدون فيها قراءة القرآن، والثناء على الله، ودعائه والخضوع له الذي هو روح الذِّكْر، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين.

وكما أن الذِّكْرَ هو الذي خُلِقَ الخَلْقُ لأجله، والعبادات كلها ذكر لله، فكذلك الذِّكْر يُعِين العبد على القيام بالطاعات وإن شَقَّت، ويُهَوِّن عليه الوقوف بين يدي الجبابرة، ويخفِّف عليه الدعوة إلى الله، قال تعالى في هذه القصة: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾، وقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾.

ومنها: إحسان موســى ﷺ على أخيه هارون؛ إذ طلب من ربه أن يكونَ نبيًّا معه، وطلبَ المعاونةَ على الخير والمساعدة عليه؛ إذ قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِي﴾، الآيات.

ومنها: أن الفصاحة والبيان مما يعين علــى التعليم، وعلى إقامة الدعوة، لهذا طلب موســى من ربه أن يَحُلَّ عقدةً من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وأن اللثغة لا عيبَ فيها إذا حصل الفهم للكلام، ومن كمال أدب موســى مع ربه أنه لم يسأل زوالَ اللُّثغة كلها؛ بل سأل إزالة ما يحصل به المقصود.

ومنها: أن الذي ينبغي في مخاطبة الملوك والرؤساء ودعوتهم وموعظتهم: الرفق، والكلام اللين الذي يحصل به الإفهام بلا تشــويش، ولا غِلظة، وهذا يُحتاج إليه في كل مقام، لكن هذا أهم المواضع، وذلك لأنه الذي يحصل به الغرض المقصود، وهو قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

ومنها: أن مَن كان في طاعة الله، مستعينًا بالله، واثقًا بوعد الله، راجيًا ثواب الله، فإن الله معه، ومن كان الله معه فلا خوف عليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ﴾، ثــم علَّلــه بقولــه: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقال تعالــى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

ومنها: أن أسبابَ العذابِ منحصرةٌ في هذينِ الوصفينِ: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: كذَّب خبر الله، وخبر رُسُلِه، وتولى عن طاعة الله وطاعة رسله، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

ومنها: أن قوله تعالــى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ استوعب الله بها الأسبابَ التي تُدرَكُ بها مغفرةُ الله:

أحدها: التوبة، وهو الرجوع عمَّا يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يُحِبُّه الله ظاهرًا وباطنًا، وهي تَجُبُّ ما قبلها من الذنوب صغارها وكبارها.

الثاني: الإيمان، وهو الإقرار والتصديق الجازم العام بكل ما أخبر الله به ورسوله، الموجِب لأعمال القلوب، ثم تتبعها أعمال الجوارح، ولا ريب أن ما في القلب من الإيمان بالله، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر الذي لا ريب فيه؛ أصل الطاعات وأكبرها وأساسها، ولا ريب أنه بحسب قوته يدفع السيئات، يدفع ما لم يقعْ، فيمنع صاحبه من وقوعه، ويدفع ما وقع بالإتيان بما ينافيه، وعدم إصرار القلب عليه، فإن المؤمنَ ما في قلبه من الإيمان ونوره لا يُجامعُ المعاصي.

الثالث: العمل الصالح، وهذا شامل لأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان، والحسنات يذهبن السيئات.

الرابع: الاستمرار على الإيمان والهداية والازدياد منها.

فمن كَمَّلَ هذه الأسباب الأربعة فَلْيُبْشر بمغفرة الله العامة الشاملة؛ ولهذا أتى فيه بوصف المبالغة، فقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمدٍ ﷺ؛ حيث أخبر بذلك تفصيلًا مطابقًا، وتأصيلًا موافقًا قصَّه قصًّا، صدَّق به المرسلين، وأيَّد به الحقَّ المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدةٍ لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوةٍ دَرَسَ فيها شيئًا من هذه الأمور، ولا مجالسةِ أحدٍ من أهل العلم، إنْ هو إلا رسالةُ الرحمٰن الرحيم، ووحيٌ أنزله عليه الكريمُ المنان؛ لينذِرَ به قومًا جاهلين، وعن النُّذُرِ والرسل غافلين؛ فصلوات الله وسلامُه على منْ مجرَّدُ خبره ينبئ أنه رسولُ الله، ومجرَّدُ أمره ونهيه يُنبِّه العقول النيِّرة أنَّه من عند الله؛ كيف وقد تطابَق على صحة ما جاء به، وصدَّقه خبرُ الأوَّلين والآخرين، والشرعُ الذي جاء به من ربِّ العالمين، وما جُبِلَ عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تُناسب، ولا تصلح إلا لأعلى الخلقِ درجةً،

والنصر المبين لدينه وأُمَّتِه، حتى بلغَ دينُه مبلــغَ الليل والنهار، وفتحتْ أُمَّتُه معظم بلدان الأمصار، بالسيف والسنان، وقلوبهم بالعلم والإيمان، ولم تَزَلِ الأممُ المعاندةُ، والملوكُ الكَفَرةُ المتعاضِــدةُ، ترميه بقوس واحدةٍ، وتكيدُ له المكايدَ، وتمكُــرُ لإطفائه وإخفائــه، وإخماده من الأرض، وهــو قد بهرها وعَلَاها، لا يــزداد إلَّا نموًّا، ولا آياتــه وبراهينه إلا ظهــورًا، وكلُّ وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة لِلْعالَمِينَ، وهداية لِلْعالمِينَ، ونورًا وبصيرةً للمتوسِّمين، والحمد لله وحده.





قصة موسى والخضر عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ۝ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ۝ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٦٠ ـ ٧١] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

ذلك أن موسى عليه السلام قام ذات يوم في بني إسرائيل مقامًا عظيمًا، علَّمهم فيه علومًا جَمَّة، وأعجب الناس بكمال علمه، فقال له قائل: يا نبي الله، هل يوجد، أو هل تعلم في الأرض أحدًا أعلم منك؟ فقال: لا، بناء على ما يعرفه، وترغيبًا لهم في الأخذ عنه، فأخبره الله أن له عبدًا في مجمع البحرين عنده علوم ليست عند موسى، وإلهامات خارجة عن الطَّوْر المعهود، فاشتاق موسى إلى لُقياه رغبة في الازدياد من العلم، فطلب من الله أن يأذن له في ذلك،

وأخبره بموضعه، فيخبر تعالى عن نبيه موســى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وشدَّة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال: ﴿لِفَتَـٰهُ﴾، أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشــع بن نون» الذي نبَّأه الله بعد ذلك: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، أي: لا أزال مســافرًا وإن طالت عليَّ الشُّــقَّة، ولحقتني المشقَّة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أُوْحِي إليه أنَّك ستجِد فيه عبدًا من عباد الله العالِمِين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أي: مسافة طويلة، المعنى: أنَّ الشوق والرغبة حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزمٌ منه جازم، فلذلك أمضاه.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: هــو وفتــاه ﴿مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وكان معهما حوت يتزوَّدان منــه ويأكلان، وقد وُعِد أنه متى فقد الحــوت فثَمَّ ذلك العبد الذي قصدته، ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ ذلك الحــوتُ ﴿سَبِيلَهُۥ﴾، أي: طريقه ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾، وهذا من الآيات، قال المفسرون: إنَّ ذلك الحوت الذي كانا يتزوَّدان منه لمَّا وصلا إلى ذلك المكان أصابه بللُ البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيًّا.

فلما جاوز موســى وفتاه مجمع البحرين قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾، أي: لقد تعبنا من هذا الســفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلَا به إلى مجمع البحرين لم يجدَا مَسَّ التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالَّة لموسى على وجود مطلبه، وأيضًا فإنَّ الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان ســهَّل لهما الطريق، فلما تجاوزَا غايتهما وجدَا مسَّ التعب، فلما قال موســى لفتاه هذه المقالــة قال له فتاه: ﴿أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾، أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ لأنه الســبب في ذلــك ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾، أي: لما انســرب في البحر

ودخل فيه؛ كان ذلك من العجائب. قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا، فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعدٌ من الله أنه إذا فقد الحوت وجد الخضِر، فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، أي: نطلب، ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، أي: رجعا يقُصَّان أثرهما إلى المكان الذي نَسِيَا فيه الحوت، فلما وصلا إليه وجدا ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾، وهو الخضر، وكان عبدًا صالحًا، لا نبيًّا، على الصحيح. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: أعطاه الله رحمةً خاصَّة؛ بها زاد علمه وحسن عمله، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿عِلْمًا﴾، وكان قد أُعطي من العلم ما لم يُعْطَ موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنَّه من أُولي العزم من المرسَلين الذين فضَّلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، أي: هل أتَّبِعك على أن تُعلِّمني مما علَّمك الله ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحقَّ في تلك القضايا؟ وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصُلُ له الاطلاع على بواطن كثيرٍ من الأشياء التي خَفِيَت حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنَّك ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، أي: لا تقدر على اتِّباعي وملازمتي؛ لأنَّك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غيرُ ذلك، ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على أمرٍ ما أحطت بباطنه وظاهره، ولا علمت المقصود منه ومآله؟

فقال موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، وهذا عزمٌ منه قبل أن يوجد الشيء الممتحَن به، والعزمُ شيء، ووجودُ الصبر شيء آخر؛ فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

فحينئذٍ قال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾، أي: لا تبتدِئْني بسؤال منك وإنكارٍ حتى أكون أنا الذي أُخبرك بحاله في الوقت الذي ينبغي إخبارُك به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يُوقِفَه على حقيقة الأمر.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾، أي: اقتلع الخضرُ منها لوحًا، وكان له مقصودٌ في ذلك سيبيِّنه، فلم يصبر موسى ﷺ؛ لأنَّ ظاهره أنه منكرٌ؛ لأنَّه عيْبٌ للسفينة، وسببٌ لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾، أي: عظيمًا شنيعًا، وهذا من عدم صبره ﷺ، فقال له الخضر: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسيانًا، فقال: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾، أي: لا تُعسِّر عليَّ الأمر، واسمح لي؛ فإنَّ ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخِذْني في أول مرة، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنَّه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدَّة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا﴾، أي: صغيرًا، ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ الخضر، فاشتدَّ بموسى الغضب، وأخذتْه الحميَّة الدينيَّة حين قتل غلامًا صغيرًا لم يُذْنِبْ، ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾، وأيُّ نُكْرٍ مثل قتل الصغير الذي ليس عليه ذنبٌ، ولم يقتلْ أحدًا؟!

وكانت الأولى من موسى نسيانًا، وهذه غير نسيانٍ، ولكن عدم صبرٍ، فقال له الخضرُ معاتبًا ومذكِّرًا: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾، فقال له موسى: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ﴾ بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِي﴾، أي: فأنت معذور بذلك، وبتَرْك صُحبتي، ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾، أي: أعذرت مني، ولم تُقَصِّر.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾، أي: استضافاهم فلم يُضيِّفوهُما، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أي: قد عاب واستهدم، ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضرُ، أي: بناه وأعاده جديدًا، فقال له موسى: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾، أي: أهل هذه القرية لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجرةٍ، وأنت تقدِرُ عليها!

فحينئذ لم يفِ موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضرُ منه، فقال له: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ﴾ فإنَّك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبقَ الآن عذرٌ، ولا موضعٌ للصُّحبة، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴾، أي: سأخبرك بما أنكرتَ عليَّ، وأنبّئك بما لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، يقتضي ذلك الرِّقَّة عليهم، والرأفة بهم، ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا ﴾، أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكلُّ سفينة صالحةٍ تمرُّ عليه ليس فيها عيبٌ غصبها وأخذها ظلمًا، فأردتُ أن أخْرِقها ليكون فيها عيبٌ، فتَسْلَم من ذلك الظالم.

﴿ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ ﴾ الذي قتلتُه ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنًا وَكُفۡرًا﴾، وكان ذلك الغلام قد قُدِّر عليه أنَّه لو بلغ لأرهق أبوَيْه طغيانًا وكفرًا، أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إمَّا لأجل محبَّتهما إيَّاه، أو للحاجة إليه، أو يحملهما على ذلك، أي: فقتلته؛ لاطلاعي على ذلك؛ سلامةً لدين أبويه المؤمنَين، وأيُّ فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟!

وهو وإن كان فيه إساءةٌ إليهما، وقطعٌ لذرِّيَّتهما؛ فإنَّ الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خيرٌ منه، ولهذا قال: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرًا مِّنۡهُ زَكَوٰةً

وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أي: ولدًا صالحًا، زكيًا، واصلًا لرحمه؛ فإنَّ الغلام الذي قُتِل لو بلغ لعقَّهما أشدَّ العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ الذي أقمته؛ ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما؛ لكونهما صغيرَين عَدِما أباهما، وحفظهما الله أيضًا بصلاح والدهما.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، أي: فلهذا هدمتُ الجدار، واستخرجتُ ما تحته من كنزهما، ورددتُهُ وأَعَدْتُه مجانًا؛ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: هذا الذي فعلتُه رحمةٌ من الله، آتاها الله عبده الخضر، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾، أي: ما أتيت شيئًا من قِبَلِ نفسي، ومجرَّد إرادتي، وإنَّما ذلك من رحمة الله وأمره، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي فسَّرتُه لك ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.



فوائد من هذه القصة

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيءٌ كثيرٌ، ننبّه على بعضِه بعون الله:

فمنها: فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى عليه السلام رحل مسافةً طويلةً، ولقي النَّصَب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهم فالأهم؛ فإنَّ زيادة العلم وعلم الإنسان أهمُّ من تَرْك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزوُّد من العلم، والجمعُ بين الأمرَين أكمل.

ومنها: جواز أخْذ الخادم في الحضَرِ والسفر؛ لكفاية المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.

ومنها: أنَّ المسافر لطلب علم أو جهادٍ أو نحوه إذا اقتضتِ المصلحةُ الإخبار بمطلبه، وأين يريده؛ فإنَّه أكمل من كتمه؛ فإنَّ في إظهاره فوائد من الاستعداد له عُدَّته، وإتيان الأمر على بصيرةٍ، وإظهارًا لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾، وكما أخبر النبيُّ ﷺ أصحابه حين غَزَا تبوك بوجهته، مع أنَّ عادته التَّورية، وذلك تبعٌ للمصلحة.

ومنها: إضافة الشرّ وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين، وإنْ كان الكلُّ بقضاء الله وقدره؛ لقول فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عمَّا هو من مقتضى طبيعة النفس؛ من نَصَبٍ أو جوعٍ، أو عطشٍ، إذا لم يكنْ على وجه التسخُّط وكان صِدْقًا؛ لقول موسى: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

ومنها: استحباب كون خادم الإنســان، ذكيًا فَطِنًا كيّسًا؛ ليتمَّ له أمره الذي يريده.

ومنها: استحباب إطعام الإنســان خادِمَه من مأكله، وأكلهما جميعًا؛ لأنَّ ظاهر قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إضافة إلى الجميع، أنَّه أكل هو وهو جميعًا.

ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حســب قيامــه بالمأمور به، وأنَّ الموافق لأمر الله يُعانُ ما لا يُعان غيره؛ لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، والإشــارة إلى الســفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول فلم يشْتكِ منه التعب مع طوله؛ لأنَّه هو السفر على الحقيقة، وأما الأخير فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنَّهم فقدوا الحوت حين أَوَوْا إلى الصخرة، فالظاهر أنَّهم باتوا عندها، ثم ســاروا من الغد، حتــى إذا جاء وقت الغــداء قال موســى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، فحينئذٍ تذكَّر أنه نَسِيَه في الموضع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أنَّ ذلك العبد الذي لَقِيَاه ليس نبيًّــا، بل عبدًا صالحًا؛ لأنَّه وصفه بالعبودية، وذكر منَّة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذْكر رسالته ولا نبوَّته، ولو كان نبيًّا لذكر ذلك كما ذكره غيره.

وأما قوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾؛ فإنَّه لا يدلُّ على أنَّه نبيٌّ، وإنَّما يدلُّ على الإلهام والتحديث، كما يكــون لغير الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾.

ومنها: أنَّ العلم الذي يعلِّمه الله لعباده نوعان: علمٌ مكتَسَــبٌ يدرِكُه العبد بجِدِّه واجتهاده، ونوعٌ: علمٌ لدُنِّيٌّ، يَهَبُــه الله لمن يَمُنُّ عليه من عباده؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، فالخضر أُعْطِي من هذا النوع الحظ الأوفر.

ومنها: التأدُّب مع المعلِّــم، وخطاب المتعلِّم إيَّــاه ألطف خطاب؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، فأخرج الكلام بصورة

الملاطفة والمشـــاورة، وأنَّك هل تأذنُ لي في ذلك أم لا؟ وإقراره بأنَّه يتعلَّم منه، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكِبْر الـــذي لا يُظْهِر للمعلِّم افتقاره إلى علمه، بل يدَّعي أنَّه يتعاون هو وإيَّاه، بل ربَّما ظنَّ أنه يعلِّم معلِّمه، وهو جاهلٌ جدًّا، فالذُّلُّ للمعلم، وإظهارُ الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلُّم ممَّن دونه؛ فإنَّ موسى بلا شك أفضل من الخضر.

ومنها: تعلُّم العالِم الفاضل للعلم الذي لم يتمهَّر فيه ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرةٍ؛ فإنَّ موســـى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يُعْطِ ســـواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلُّم منه؛ فعلى هذا لا ينبغي للفقيه المحدِّث إذا كان قاصرًا في علـــم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلَّمه ممن مهر فيه، وإنْ لم يكن محدِّثًا ولا فقيهًا.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشـــد إلى الخير، فكلُّ علم يكون فيه رشد وهداية لطرق الخير، وتحذيرٌ عن طريق الشر، أو وسيلة لذلك؛ فإنَّه من العلم النافع، وما ســـوى ذلك فإمَّا أن يكون ضارًّا، أو ليس فيه فائدةٌ؛ لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أنَّ مَـــن ليس له قوة الصبـــر على صحبة العالم والعلم، وحُسْـــن الثَّبات على ذلك؛ أنَّه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم؛ فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازَمَه أدرك به كلَّ أمرٍ سعى فيه؛ لقول الخضر يعتذر من موسى بذِكْر المانع لموسى في الأخذ عنه: إنَّه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علمًا وخبرةً بذلك الأمر الذي أُمِرَ بالصبر عليـه، وإلا فالذي لا يدريـه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فجعل الموجِب لعدم صبره، وعدم إحاطته خُبرًا بالأمر.

ومنها: الأمـر بالتأنّي والتثبُّت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشـيء، حتى يعرف ما يُراد منه وما هو المقصود.

ومنها: تعليقُ الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ومنها: مشـروعية تعليق إيجاد الأمور المسـتقبلة على مشيئة الله؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، وإن العزم على فِعْل الشـيء ليس بمنزلة فعله؛ فإنَّ موسى عزم على الصبر ولكن لم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعِه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يُوقِفه عليها؛ فإنَّ المصلحة تُتَّبَع، كما إذا كان فهمه قاصرًا، أو نهاه عن التدقيق في سؤال عن الأشـياء التي غيرُها أهمُّ منها، أو لا يدرِكُها ذهنُه، أو يسأل سؤالًا لا يتعلَّق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يُخاف منها.

ومنها: أنَّ الناسـي غيرُ مُؤاخَذٍ بنسـيانه؛ لا في حـق الله، ولا في حقوق العباد، إلا إن ترتَّب على ذلك إتلاف مال، ففيه الضمان حتى على الناسـي؛ لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

ومنها: أنَّه ينبغي للإنسـان أن يأخُذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفوَ منها، وما سمحتْ به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلِّفهم ما لا يُطيقون، أو يشقّ

عليهم ويرهِقهم، فإنَّ هذا مدعاةٌ إلى النفور منه والسآمة، بل يأخذ المتيسَّر ليتيسر له الأمر.

ومنها: أنَّ الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتُعلَّقُ بها الأحكام الدنيوية؛ في الأموال، والدماء، وغيرها؛ فإنَّ موسى عليه السلام أنكر على الخضر خَرْقَه السفينة، وقَتْلَ الغلام، وأنَّ هذه الأمور ظاهرها، أنها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صَحِب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادَرَ إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفتْ إلى هذا العارض الذي يُوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة، وهو أنَّه يُدْفَع الشرُّ الكبير بارتكاب الشر الصغير، ويُراعَى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فإنَّ قتل الغلام شرٌّ، ولكنَّ بقاءه حتى يفتن أبوَيْه عن دينهما أعظم شرًّا منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يظنُّ أنه خيرٌ؛ فالخير ببقاء دين أبوَيه، وإيمانهما خيرٌ من ذلك؛ فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحُم المصالح والمفاسد كلِّها داخلٌ في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة، أيضًا، وهي أنَّ عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنَّه يجوز، ولو بلا إذنٍ، حتى ولو ترتَّب على عمله إتلاف بعض مال الغير؛ كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتَسْلَم من غَضْب الملك الظالم؛ فعلى هذا لو وقع حرقٌ، أو غرقٌ، أو نحوهما، في دار إنسانٍ أو ماله، وكان إتلافُ بعض المال، أو هدمُ بعض الدار فيه سلامةٌ للباقي جاز للإنسان، بل شُرِع له ذلك حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالمٌ أخْذ مال الغير، ودفع إليه إنسانٌ بعض المال افتداءً للباقي؛ جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مالٌ لا يبلُغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأنَّ الله أخبر أنَّ هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبــر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾.

ومنها: أن القتل قصاصًا غير مُنْكرٍ؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين أو مَن يتعلَّق بهم أفضل من غيرها؛ لأنه علَّل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما بأنَّ أباهما صالحٌ.

ومنها: اســتعمال الأدب مع الله تعالى في الألفــاظ؛ فإنَّ الخضر أضاف عيْب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير فأضافه إلى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾، كما قال إبراهيــم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾، وقالت الجنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، مــع أنَّ الــكلَّ بقضـــاء الله وقدره.

ومنها: أنَّــه ينبغي للصاحب أن لا يفارِق صاحبه فــي حالة من الأحوال، ويترك صُحْبَته حتى يُعْتِبه، ويُعْذِر منه؛ كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقــة الصاحب لصاحبــه في غير الأمور المحــذورة مدعاةٌ وسببٌ لبقاء الصحبة وتأكُّدها، كما أنَّ عدم الموافقة سببٌ لقطع المرافقة.

ومنها: أن هــذه القضايا التي أجراها الخضر هي قَــدَرٌ محض أجراها الله وجعلها علــى يد هذا العبد الصالح؛ ليســتدل العباد بذلــك على ألطافه في أقضيته، وأنه يُقَدِّر على العبد أمــورًا يكرهها جدًّا، وهي صلاح دينه، كما في

قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجًا من لطفه وكرمه ليعرفوه، ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكروهة[١].

❋ ❋ ❋

---

(١) ومن فوائد قصة موسى والخضر عليهما السلام:
- أن النبي يجوز عليه الخطأ والنسيان.
- ما جُبِل عليه موسى عليه السلام من الشدة في أمر الله تعالى.
- أنه لا يُنْكَر إصابة الشيطان للأنبياء عليهم السلام بما لا يقدح في النبوة.
- إثبات كرامات الأولياء، على القول بعدم نبوة الخضر.
- أنه قد يكون عند غير النبي من العلم ما ليس عند النبي.
- أن الوعد على العمل الصالح ليس مختصًّا بالآخرة، بل يدخل فيه أمور الدُّنيا في الذرية بعد موت العامل.
- أن مِن المسائل ما لا يجوز السؤال عنها، ومنها ما لا ينبغي للمسؤول أن يُجِيب عنها.
- إعفاء المعلم مما يَكْرَه.
- مفارقة المتعلِّم إذا خالَف شرط المعلِّم.
- الترحُّم على الأنبياء، وأنه لا ينقص من قدرهم، بل هو من السُّنَّة.
- أنَّ تمنِّي العلم ليس من التمنِّي المذموم.
- التعزِّي باختيار الله وحُسْن الظن به فيما تكره النفوس.
- جواز سفر الاثنين من غير ثالث للحاجة.
- الحكم بالظاهر؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿نَفْسًا زَكِيَّةً﴾.
- أن المال قد يكون رحمة الله وإن كان مكنوزًا.
- أن فائدة طلب العلم للرشد.



قصة داود وسليمان عليهما السلام

كانَا من أعظم أنبياء بني إســرائيل، وجمع الله لهما بين النبوة والحكمة والـمُلــك العظيم القوي؛ أمــا داود عليه السلام فكان من جملة العســكر الذين مع طالوت الذي اختاره أحد أنبياء بني إسرائيل ملكًا على بني إسرائيل؛ لشجاعته وقوته، وعلمه في السياسة ونظام الجيوش، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ولما برزوا لجالوت وجنوده، وصبر عســكر طالوت، واســتعانوا بالله تفوّق داود عليه السلام على الجميع بالشــجاعة العظيمة، فباشَرَ بنفســه قَتْلَ ملكهم جالوت، وحصلت الهزيمة على بقيتهم، ونصر الله بني إسرائيل ذلك النصر؛ نبّأ الله داود وأعطاه الحكمة والملك القوي، كما قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وكان قد أعطاه الله قوة في العبــادة وبصيرة، ووصفه الله بهذين الوصفيــن اللَّذَيْن بهما كمال العبــد، فقــال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، فوصفه بالقوة العظيمة على ما أمر الله، وبأنه أوّاب؛ لكمال معرفته بالله.

وكان الله تعالى قد سخَّر له الطير والجبال تسبّح الله معه، وكان قد أُعطي من حُســن الصوت ورخامته ما لم يُؤْتِ أحدًا من العالمين، وكان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدســه، ويصوم يومًا ويُفطر يومًــا، وكان إذا لاقى العدو رأى الخَلْقُ من شــجاعته ما يعجب الناظرين، وقد ألان الله له الحديد،

وعلَّمه صنعة الدروع الواقية في الحروب، وهو أول من صنع الدروع السردية ذوات الحِلَق التي يحصل فيها الوقاية، وهي خفيفة المحمل، وقد عاتبه الله بسبب ذنب أذنبه بأن أرسل إليه ملَكَيْن بصورة خصمين، فدخلَا عليه وهو في محرابه ففزع منهما؛ لأنهما دخلَا عليه في وقت لا يدخل عليه فيه أحد، وتَسَوَّرَا المحراب، وقالَا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢]، ثم قصَّ عليه أحدهما القصة، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ ـ والمراد بها المرأة ـ ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، أي: صار خطابه أقوى مني فغلبني، فقال داود عليه السلام: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وعلم داود أنه هو المراد بهذه القضية فانتبه لذلك: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤ ـ ٢٥] فمحا الله عنه الذنب، وعاد به بعد التوبة أحسن مما كان قبل ذلك، حصل له القرب العظيم من ربه وحُسْن العاقبة، وقال الله له: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] الآية.

وأما سليمان بن داود عليه السلام فإن الله أعطاه النبوة وورث أباه؛ عِلْمَه ونبوته ومُلْكَه، وزاده الله ملكًا عظيمًا لم يحصل لأحد قبله ولا بعده؛ سخَّر الله له الريح تجري بأمره وتدبيره برخاء، أي: بسهولة حيث أراد، غُدُوُّها شهر ورَوَاحها[1] شهر، وسَخَّرَ الله له الجن والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسب إرادته، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجِفان

(١) غُدُوُّها: مَسِيرهَا مِن الْغُدْوَة، بِمَعْنَى الصَّبَاح إِلَى الزَّوَال، ورواحها: سَيْرهَا مِنَ الزَّوَال إِلَى الْغُرُوب.

كالجواب، وقدور راسيات، وتذهب وتجيء بأمره إلى حيث أراد، وسخر له من الجنود من الإنس والجن والطير، فهم يُوزَعُون[1] بتدبير عجيب ونظام غريب، وعلَّمه منطق الطير وسائر الحيوانات، فكانت تخاطبه ويفهم ما تكلَّم به، ولهذا خاطَب الهدهد وراجَعَه تلك المراجعة، وسمع النملة إذ نادت في قومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فحذَّرت وأمرت بما يَقِي من الخطر، واعتذرت عن سليمان وجنوده، فلهذا ابتسم سليمان ضاحكًا من قولها، وقال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، ومن حُسْن نظامه وحزمه أنه يتفقَّد الجنود بنفسه، مع أنه قد جعل لهم مدبِّرين، فإن قوله: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣] دليل على ذلك، حتى إنه تفقَّد الطيور لينظر هل هي لازمة لمراكزها، فقال: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين أنه طلبه لينظر له الأرض وبُعْد مائها، فإن هذا خلاف اللفظ القرآني، فإن الله لم يقل: وطلب الهدهد، بل وقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ [النمل: ٢٠]، ثم توعَّده لمخالفته لأمره، ولما كان ملكه مبنيًا على كمال العدل استثنى، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۞ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾، فجاء الهدهد ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢١ ـ ٢٦].

---

(١) أيْ: يُجْمَعُونَ بِرَدِّ آخِرِهِمْ إلى أولهم ثم يُساقون.

ففي هذه المدة القصيرة جـاء الهدهد بهذه المعلومـات العظيمة، أخبر سليمان عن مُلك الديار اليمانية، وأن ملكتهم امرأة، وأنها قد أُعْطِيَت من كل شيء يحتاج الملك إليه، وأن لها عرشًا عظيمًا، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فَهِم أيضًا دينهم، وأنهم مشركون يعبدون الشمس، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار.

هذا من الأدلة على أن الحيوانات تعرف ربها وتسبِّحه وتوحِّده، وتحب المؤمنين وتدين لربها بذلك، وتُبْغِض الكفار المكذِّبين، وتدين بذلك، فقال له سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٧ ـ ٢٨]، فذهب بالكتاب فألقاه في حجر المرأة ملكة سبأ، فلما قرأته عظَّمته جدًّا، وأُرعبت منه فزعًا، وجمعت رؤساء قومهـا، فقالـت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣١] كتاب مختصر جامع فيه المقصود كله، قالت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النمل: ٣٢]، أي: أشـيروا عليَّ، وهذا من حزمها، وحُسْن تدبيرها استعملت المشورة مع رؤساء قومها.

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٢ ـ ٣٣]، أي: مسـتعدُّون لما تقولين حربًا وسـلمًا، وأرجعنا الأمر إلى ما تختارين، فمن عزمهـا وحزمها وبُعْد نظرها عدلت عن الحرب، واختارت السلم لكن بصورة حازمة، فقالت: سأُهْدِي له هدية فاخرة: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، إن كان من الملوك الذي ليس لهم هَمٌّ إلا الدنيا فربما أن الهدية كسرت سَوْرَته[1]، وفَلَّت عزيمته، وسالَمَنا، وسالَمْناه من بعيد، وإن كان غير ذلك بَانَ لنا الأمر.

---

(١) أي: غضبه وشِدَّته.

فأرسلت أناسًا ذوي عقل وحزم وخبرة ومعرفة، فلما جاءوا لسليمان بالهدية قال: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦]، فبيَّن لهم أنه لا غرض له في الدنيا، وإنما غرضه إقامة الدين، ودخول عباد الله في الإسلام.

ثم وصَّى الرسل، واستغنى بذلك عن الكتاب، وقال للرسول: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٧]، وعلم سليمان أنهم سينقادون ويُسْلِمون، فقال لأهل مجلسه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٣٩]، وسليمان بالديار الشامية، وبينه وبينها مسافة شهرَين ذهابًا وشهرَين إيابًا، ثم قال الذي عنده علم من الكتاب: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠]، يحتمل أنه كما قال أكثر المفسرين: إنه رجل صالح قد أُعطي الاسم الأعظم الذي إذا دُعِي الله به أجاب، وأنه دعا الله فأُتِي به قبل أن يرتد إليه طرفه، ويحتمل أن الذي عنده علم من الكتاب عنده من الأسباب التي يسخِّرها الله لسليمان؛ أسباب يحصل بها تقريب المواصلات، وجلب الأشياء البعيدة.

وعلى كُلٍّ فهذا ملك عظيم بلحظة يحضر له هذا العرش العظيم، ولهذا لما رآه مستقِرًّا عنده حمد الله على ذلك، فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]، ثم خاطَب مَن حوله: ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، أي: غَيِّرُوا فيه وزِيدُوا وأَنْقِصوا، ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٤١]، وكان قد مُدح له رأيُها وعقلها، فأحبَّ أن يقف على الحقيقة، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢] وعُرِض عليها، فلما رأته عرفته، ورأت ما فيه من التنكير، فأنكرته، فقالت مُرَدِّدة للاحتماليـن: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]، لم تقل: هو؛ لِمَا فيه من

التغيير، ولم تنفِ أنه هو؛ لِما كانت تعرفه، فأتت بلفظ صالح للأمرين، فعرف سليمان رجاحة عقلها.

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، إن كان هذا من كلام سليمان فمعناه: إننا أُخْبِرْنا عن عقلها، وعلمنا بذلك قبل هذه الحالة فتحقَّقناها لما سبرناها، وإن كان الكلام كلام ملكة سبأ فإنها تقول: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ [النمل: ٤٢] عن ملك سليمان، وأنه ملك نبوة ورسالة وقوة هائلة من قبل هذه الحالة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢] مُذْعِنِين لما قاله سليمان بعدما تحقَّقنا أمره، فكأنه قيل: مع عقلها هذا ورأيها السديد فكيف كانت تعبد غير الله؟ وكيف اجتمع العقل وعبادة من لا ينفع ولا يضر، وإنما يضر مَن عبده؟

حاصل الجواب قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]، أي: العقائد التي نشأت عليها، والمذاهب الفاسدة تسيطر على عقل العاقل، وتُذْهِب لُبَّ اللبيب حتى يُقَيِّض له من الأسباب المباركة ما يُبَيِّن له الحق، ويَمُنُّ عليه باتباعه.

وكان له صرح من قوارير أجرى تحته الأنهار، فكان من ينظر إليه يظنه ماء يجري؛ لأن الزجاج شفاف، فلما قيل لها: ادخلي الصرح، فرأته لُجَّةً وكشفت عن ساقَيْها، قال: إنه صرح ممرَّد[1] من قوارير، قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] فأسلمت لله، واتَّبعها قومها، فيقال: إن سليمان تزوَّجها، فالله أعلم.

ولما كانت الشياطين زمن سليمان قد سخَّرهم الله له، وبلَّغه أنهم باجتماعهم بالإنس يُعَلِّمونهم السحر، فجمعهم وتوعَّدهم، وأخذ كُتُبَهم ودفنها، فلما توفي سليمان جاءت الشياطين للناس وقالوا: إن ملك سليمان

(١) أي: مُمَلَّس.

مشيَّد على السحر، واستخرجوا الكتب التي دفنها، وأشاعوا من إغوائهم للناس أنها مأخوذة من سليمان، وأن سليمان ساحر، وروَّج ذلك طائفة من اليهود، فبرَّأ الله سليمان من هذا الأمر، وبيَّن أن السحر من العلوم الضارَّة، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: بتعليم السحر والرضاء به، ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وهذا من عظمة القرآن أنه يأمر الخلق بالإيمان بجميع الرسل، ويذكِّرهم بأوصافهم الجميلة، وينزِّههم عما قاله الناس فيهم مما ينافي رسالتهم.

وكان الله قد ابتلى سليمان، وألقى ﴿عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾، أي: شيطانًا عتابًا له على بعض الهفوات، وإرجاعًا له إلى كمال الخضوع لربه، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤] إلى الله بقلبه ولسانه وبدنه بظاهره وباطنه، فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥]، فاستجاب الله له دعاءه، وأعطاه ما طلبه من مغفرة الذنب، وأعطاه جميع ما طلب كما تقدَّم.

وقد أثنى الله على داود وسليمان بالعلم والحكم، وخَصَّ سليمان بزيادة الفهم، فقال: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، أي: دخلت الغنم بستانهم ليلًا فرعت زرعه وأشجاره، فحكم داود بحسب اجتهاده وتقديره أن الغنم تكون لصاحب الحرث؛ لِظَنِّه أن الذي تلف من الحرث يقابل قيمتها، ثم رُفِعَت القضية إلى سليمان، فحكم على صاحب الغنم أن يقوم على حرث صاحب البستان بالسقي والتعمير والملاحظة حتى يعود كما كان قبل نفشها، ويدفع له صاحب الغنم الغنمَ ينتفع بدَرِّها ولبنها ودهنها وصوفها ومَغْلِها[1] مقابل ما كان بصدد أن ينتفع

(١) أي: لبنها الذي تُرضعه ولدها.

بحرثه في هذه المدة[١]، فكان هذا الحكم من سـليمان أقرب إلى الصواب، وأنفع لصاحب الغنم والحـرث، فلهذا قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

ونظير هذه القضية حكم داود وسليمان بين المرأتين اللتين خرجتَا ومع كل واحدة ابنها، فعَدَا الذئب على ابن الكبرى، فادَّعت الكبرى على الصغرى أن الذئب أكل ابن الصغرى، وأن الذي سَلِم من الذئب ابنها، والمرأة الصغرى أنكرت وقالت: بل الذئب أكل ابن الكبرى.

فتحاكَمَا إلى داود، فلم يَرَ لكل منهما بيِّنـة إلا قولها، رأى أن يحكم به للكبـرى؛ اجتهادًا ورحمـةً بها لكِبَرهـا، وأن الصغرى في مسـتقبل عمرها سيرزقها الله ولدًا بدله.

ثم رُفِعَت القضية إلى سـليمان فقال لهما: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فرضيت الكبرى، وقالت الصغرى لمَّا دار الأمـر بين تلفه أو بقائه بيد غيرها ـ وهو أهون الأمرين عليها ـ: هو ابنها يا نبي الله.

فعلم سليمان بهذا الأمر الطبيعي الذي هو من أقوى البيِّنات أنه ليس ابنًا للكبرى؛ لكونها رضيت بشقه وإتلافه، وأن دعواها على الأخرى إنما حملها عليه الحسد، وأنه ابن الصغرى حين فزعت من شقه إلى التنازل عن دعواها، فقضى به سـليمان للصغرى[٢]، ولا ريب أن اسـتخراج الصواب في القضايا بالبينات والقرائن وشواهد الأحوال من الفهم الذي يخص الله به من يشاء.



(١) أخرجه الحاكم (٤١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢٧، ٦٧٦٩)، ومسلم (١٧٢٠).

في بعض الفوائد المستنبَطة من القصة

فمنها: أن الله يقـصُّ على نبيه محمـد ﷺ أخبارَ مَن قبلـه لتثبيت فؤاده وتطمين نفسه، ويذكر له من عباداتهم، وشدة صبرهم وإنابتهم ما يُشَوِّق إلى منافستهم، والتقرُّب إلى الله الذي تنافسـوا في قربه والصبر على أذى قومه، ولهذا ذكر تعالى في أول سورة (ص) ما قاله المكذِّبون لمحمد ﷺ وما آذَوْه به، قال بعدها: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

ومنها: أن قولـه: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] مدح عظيـم من الله لهذين الوصفين: قوة القلب والبـدن على طاعة الله، والإنابة باطنًـا وظاهرًا إلى الله المسـتلزِمة لمحبَّته وكمال معرفته، وأن هذين الوصفيـن للأنبياء على وجه الكمال، ولمن بعدهم من أتباعهم على حسب اتباعهم، والثناء من الله عليهما يقتضي الحثَّ على جميع الأسباب التي تُعِين على القوة والإنابة، وأن يكون العبد رجَّاعًا إلى الله في حال السَّراء والضَّرَّاء، وفي جميع الأحوال.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام من حُسْـن الصـوت ورخامته، وأن الجبال الصُّمَّ والطيور البُهْم يجاوِبْنَه إذا رجَّع صوته بالتسبيح، ويسبِّحْن معه بالعشيِّ والإشراق، وذلك من زيادة درجاته ومقاماته العالية.

ومنها: أن مـن أكبر نِعَم الله على عبـده أن يرزقه العلـم النافع، ويعرف الحكم بين الناس في المقالات والمذاهب، وفي الخصومات والمشاحنات، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

ومنها: كمال اعتنـاء المولى بأنبيائـه وأصفيائه عندما يقـع منهم بعض الهفوات بفتنته إياهم وابتلائهم بما يـزول عنهم المحذور حتى يعودوا أكمل من أحوالهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان.

ومنها: أن الأنبياء معصومون فيما يبلغون عــن الله، فإن الله أمر بطاعتهم مطلقًا، ومقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وقد يجري منهم أحيانًا بعض مقتضيات الطبيعة من المخالفات، ولكن الله تعالى يبادرهم بلطفه، ويتداركهم بالتوبة والإنابة.

ومنها: أن داود كان في أغلب أوقاته ملازمًا محرابَه يخلو فيه لربه، وتَقَرُّ عينُه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أمــوره، وله وقت يجلس فيه لحوائج الخلق، فقد أتم القيام بحق الله وحق عباده.

ومنها: أنــه ينبغي اســتعمالَ الأدب في الدخول على النــاس، خصوصًا الحكام والرؤســاء؛ فإن الخصمين لما دخلَا على داودَ في حالة غير معتادة، ومن غير الباب فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحقّ ســوءُ أدبِ الخصم، وفِعْلُه ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلــم داود؛ فإنه ما غضب منهما حين جاءاه بغير اســتئذان وهو الملكُ، ولا انتهرهما، ولا وَبَّخَهُما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه: أنت ظلمتني، أو: يا ظالم ونحوه، أو: يا باغي؛ لقوله: ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [ص: ٢٢].

ومنها: أنَّ الموعوظ والمنصوح ولو كان كبير القــدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بقبول النصيحة والشكر لمن نصحه، ويحمد الله إذ قيّض لــه النصيحة على يــد الناصح؛ فــإن داود لم يشــمئز من قول الخصمين: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢] بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب والمعاملين، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية؛ مُوجِبة للتعـــادي، وبَغْي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن هذا الداء العضال إلا التقوى والصبـــر بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: إكـــرام الله لـــداود وســـليمان بالزلفـــى عنده وحســـن المآب، فلا يتوهَّم أحد أن ما جرى منهما مُنْقِص لدرجتهما عند الله، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، وأنـــه إذا غفر لهم، وأزال عنهم أثر الذنوب، أزال الآثار المترتبة عليها حتى ما يقع في قلـــوب الخلق، وما ذلك على فضل الكريم بعزيز.

ومنها: أنَّ الاســـتغفار والعبادة، خصوصًا الصلاة، من مكفِّرات الذنوب؛ فإنَّ الله رتَّب مغفرةَ ذنبِ داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: أن مرتبة الحكم بين الناس مرتبة دينية تولَّاها رُسُـــل الله وخواصُّ خَلْقِه، وأن على القائم بها الحكم بالحق، وأن لا يتبع الهوى؛ فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الأحكام الشرعية الكلية، فالجاهل بواحد من هذه الأمور لا يحل له الإقدام على الحكم بين الناس.

ومنها: أنَّـــه ينبغي للحاكم أن يحْـــذر الهوى ويجْعله منـــه على بال؛ فإنَّ النفوس لا تخْلو منه، بل يجاهدُ نفســـه بأن يكونَ الحقُّ مقصوده، وأن يُلْقي عنه وقتَ الحُكْم كلَّ محبةٍ أو بُغضٍ لأحدِ الخصمين.

ومنها: أن سليمان يُعَدُّ من فضائل داود، ومن مِنَن الله عليه حيث وهبه له، وأنَّ مِن أكبر نِعَم الله على عبده أن يهب لـــه ولدًا صالحًا؛ فإن كان عالِمًا كان نورًا على نور.

ومنها: ثناءُ الله تعالى على سليمان ومدحُهُ في قوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، وهذا أعظم تزكية، وأكبر فخر لسليمان.

ومنها: كثرة خيــر الله وفضله على عبيده الأخيــار؛ يمنُّ عليهم بالأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ثــم يُثني عليهم بها ويرتِّــب عليها من الثواب أنواعًا منوعة، وهو المتفضِّل بالأسباب ومسبَّباتها.

ومنها: أن سليمان قدَّم محبة الله على محبة كل شيءٍ، وأتلف الخيل التي ألهتْه عن ذِكْر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب.

ومنها: أن كلَّ ما أشــغل العبد عــن طاعة مولاه فهو مشــؤوم، فليفارقْه، وليُقْبلْ على ما هو أنفع له.

ومنها: القاعــدة المشــهورة: مَن تَــرَكَ شــيئًا لله عوَّضه الله خيــرًا منه، فســليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفــوس تقديمًا لمحبَّة الله، فعوَّضه الله خيرًا من ذلك؛ بأنْ سخَّر له الريح الرُّخاء الليِّنة التي تجري بأمره إلى حيثُ أراد وقصد، غدوُّها شــهرٌ ورواحُها شهرٌ، وسخَّر له الشياطين أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدِرُ عليها الآدميُّون.

ومنها: أن تســخير الشياطين، وتســخير الريح على الوجه الذي سُخِّرَت لســليمان لا تكون لأحد بعد ســليمان، ولهذا لما رأى النبــي ﷺ أن يأخذ الشــيطان الذي تفلَّت عليه ليلة فيربطه في سارية المسجد قال: «ذكرت دعوة أخي سليمان فتركته»[1].

ومنها: أن ســليمان كان مَلِــكًا نبيًّا مباحًــا له أن يفعــل ما يريد، ولكنه ـ لكماله ـ لا يريد إلا الخير والعدل، وهذا بخلاف النبي العبد، فإنه لا يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

له إرادة مســتقلة، بل إرادته تابعة لمراد الله منه، فلا يفعــل ولا يترك إلا تبعًا للأمر، كحال نبينا محمد ﷺ.

ومنها: أن الله أعطى ســليمان مُلكًا عظيمًا، فيه أمــور لا يمكن أن تُدْرَك بالأسباب، وإنما هي من تقدير الملك الوهاب، مثل: تسخير الريح تبعًا لأمره، وتسخير الشياطين، وكون جنوده من الإنس والجن والطير، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة، يرســلها للجهات توصل منه الأخبار، وتأتيه بأخبار تلك الجهات، وقد أعطاها الله من الفهــم ومعرفة أحوال الآدميين ما قصَّ الله علينا نبأه في هذه القصة، وكذلك الذي عنده علم من الكتاب حين استعدَّ أن يأتيه بعرش ملكة ســبأ قبل أن يرتدَّ إليه طَرْفُه، وهذه آيات أنبياء، فلهذا مهما بلغ الخَلْق في الترقي في علوم الطبيعة والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أُعطيه سليمان.

ومنها: أنــه ينبغي للملوك والرؤســاء أن يســألوا عن أحــوال الأمراء والرؤساء والرجال المتميِّزين، ولا يكتفوا بمجرد السؤال، بل يختبرونهم، ويختبــرون عقولهم ومعرفتهم للأمور؛ كما فعل ســليمان مع ملكة ســبأ؛ امتحنها ليستدل على كمال عقلها ورجاحته، ولم يكتفِ بالسؤال، وهذا فيه للملوك فوائد عظيمة، وهم محتاجون لهذا أشــد الحاجة، وتمام الملك أن يدير دفته الرجال الكاملون[1].

---

(١) **فوائد من قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ:**
- فضل النمل على كثير من المخلوقات ظهر في نُصْح النملة لأخواتها، وشَفَقَتِها عليهن.
- ذكاء النمل وفطنته مما أضحك سليمان عليه السلام متعجِّبًا منه.
- وجوب الشكر عند مشاهدة النعمة، ورؤية الفضل من الله عز وجل.
- مشروعية استعراض الجيوش، وتفقُّد أحوال الرعية.
- مشروعية التعزير لمن خالَف أمْرَ السلطان بلا عُذْر شرعي.

= - تحقُّق قول الرسول ﷺ: «لن يُفلِح قوم وَلَّوْا أمرهم امرأة» رواه البخاري؛ إذ لم يلبثوا أن تغلَّب عليهم سليمان عليه السلام.
- بيان أن هناك من كانوا يعبدون الشمس؛ إذ سجودهم لها عبادة.
- بيان أن الأحق بالعبادة الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم.
- مشروعية الاختبار، وإجراء التحقيق مع المتَّهَم.
- مشروعية استخدام السلطانِ أفرادَ رعيته لكفاية المستخدم.
- مشروعية إرسال العيون للتعرُّف على أحوال العدو، وما يدور عنده.
- مشروعية كتابة (بسم الله الرحمن الرحيم) في الرسائل والكتب الهامة ذات البال؛ لدلالتها على توحيد الله تعالى، وأنه رحمن رحيم.
- تقرير مبدأ الشورى في الحكم.
- مشروعية إبداء الرأي بصِدْق ونزاهة، ثم تَرْك الأمر لأهله.
- مشروعية إعداد العُدَّة، وتوفير السلاح، وتدرُّب الرجال على حَمْله واستعماله.
- دخول العدو المحارِب الغالب البلادَ عنوةً ذو خطورة، فلذا يتلافى الأمر بالمصالحة.
- بيان حُسْن سياسة الملِكة بلقيس، وفطنتها وذكائها، ولذا ورثت عرش أبيها.
- أهل الآخرة يفرَحون بالدنيا، وأهل الدنيا لا يفرحون بالآخرة.
- استعمال أسلوب التخويف مع القدرة على إنفاذه مع العدو أَلْيَق.
- تقرير أن سليمان عليه السلام كان يستخدم الجن، وأنهم يخدمونه في أصعب الأمور.
- استجابة الله تعالى لسليمان عليه السلام، فأحضر له العرش من مسافة شهرين من اليمن إلى الشام قبل ارتداد طرف الناظر إذا فتح عينه لينظر.
- وجوب رد الفضل إلى أهله، فسليمان عليه السلام قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾.
- وجوب الشكر، وعائدته تَعُود على الشاكر فقط، ولكرم الله تعالى قد لا يسلب النعمة فور عدم شكرها، وذلك لحِلْمه تعالى وكرمه.
- جواز اختبار الأفراد إذا أُرِيد إسناد أمرٍ لهم؛ لمعرفة قدرتهم العقلية والبدنية.
- بيان حصافة عقل بلقيس، ولذا أسلمت، ظهر ذلك في قولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾.
- مضارُّ التقليد، وما يترتَّب عليه من التنكُّر للعقل والمنطق.
- حرمة كشف المرأة ساقَيْها حتى ولو كانت كافرة، فكيف بها إذا كانت مسلمة.
- فضيلة الائْتِساء بالصالحين، كما ائْتَسَتْ بلقيس بسليمان عليه السلام في قولها: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.



قصة إلياس عليه السلام

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٢].

يمدحُ تعالى عبده ورسوله إلياس ﷺ بالنبوّة والرسالة، والدَّعوة إلى الله، وأنَّه أمر قومه بالتَّقوى، وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنمًا لهم يُقال له «بَعْل»، وتَرْكِهم عبادة الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلْقهم، وربَّاهم فأحسن تربيتهم، وأدرَّ عليهم النِّعم الظاهرة والباطنة، وأنَّكم كيف تركتم عبادة مَن هذا شأنه إلى عبادة صنم لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يخلُق، ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلَّم، وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسَّفه والغيّ؟! ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعدًا لهم: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾، أي: يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبةً دنيويةً، ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾، أي: الذين أخلصهم الله، ومنَّ عليهم باتباع نبيهم؛ فإنَّهم غير مُحْضَرين في العذاب، وإنَّما لهم من الله جزيل الثواب، ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ ﴾، أي: على إلياس ﴿ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ثناءً حسنًا.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾، أي: تحية من الله، ومن عباده عليه، ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فأثنى اللهُ عليه كما أثنى على إخوانه، صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين[1].

❋ ❋ ❋

(١) **فوائد من قصة إلياس عليه السلام:**

- الدعوة إلى التمسُّك بعبادة الله الأحد الصمد.
- أنه لا يجوز لأحد أن يعبد إلا مَن خلقه.
- أنه ليس على الرسول إلا البلاغ والبيان للناس، وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم فمن الله تعالى.
- إنذار المشركين بالله أن العذاب آتيهم لا محالة؛ إما عاجلًا أو آجلًا.
- أن عاقبة الكافرين إذا استمروا على كفرهم وإعراضهم العذابُ.
- الثناء الحَسَن على مَن آمَنَ بالله في الدنيا، والجنة له في الآخرة.
- ابتلاء الله الناسَ بالشدة وانقطاع الخير عنهم ليرجعوا إليه.
- إنعام الله على الكافرين بالرزق من صور رحمته بهم ليؤمنوا.
- كل ما أصابَ الناسَ من شرٍّ إنما هو بما كسبت أيديهم.
- طغيان الكافرين وجحودهم إذا كشف الله عنهم كَرْبَهم.
- إمهال الله للكافرين مع جحودهم حتى يحين أجلهم.



قصة يونس عليه السلام

هو من أنبياء بني إسرائيل العظام، بعثه الله إلى أهل (نينوى) ـ من أرض الموصل ـ فدعاهم إلى الله تعالـى فأبوا عليه، ثم كرَّر عليهـم الدعوة فأبَوْا، فوعدهم العذاب، وخرج مـن بين أظهُرِهم، ولم يصبـر الصبر الذي ينبغي، ولكنه أَبَقَ مغاضبًا لهم، وهم لمَّـا ذهب نبيُّهم أُلْقِي في قلوبهم التوبة إلى الله والإنابة بعدما شاهدوا مقدمات العذاب، فكشف الله عنهم العذاب.

والظاهر أن يونس علم انكشاف العذاب عنهم، واستمرَّ في ذهابه عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الصافات: ١٤٠]، فركب في سـفينة مُوقِـرة[1] من الرُّكَّاب والأحمال، فلما توسَّطوا البحر شـارفت على الغرق، ودار الأمر بين أن يبقوا جميعًا فيها فيهلكوا، وبين أن يُلْقُوا بعضهم بمقدار ما تخِفُّ السـفينة فيسلم الباقون، فاختاروا الأخير؛ لعَدْلِهم وتوفيقهم، فاقترعوا، فأصابت القرعة أناسًا منهـم، ومنهـم يونـس عليه السلام، ولهـذا قـال: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافـات: ١٤١]، أي: المغلوبين في القرعـة، فأُلْقُوا فابتلعه حـوت في البحر ابتلاعًا، لم يكسر له عظمًا، ولم يمضغ له لحمًا.

---

(١) أي: محملة حملاً ثقيلاً.

فلما صار في جوف الحوت في تلك الظلمات نادى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فأمر الله الحوت أن يُلْقِيَه بالعراء، فخرج من بطنه كالفرخ الممعوط من البيضة في غاية الضعف والوهن، فلطف الله به، وأنبت عليه شجرة من يقطين، فأظلَّتْه بظلها الظليل حتى قَوِي واشتد، وأمره الله أن يرجع إلى قومه فيعلِّمهم ويدعوهم، فاستجاب له أهل بلده، ﴿مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

* * *

فوائد من قصة يونس عليه السلام

وفي هذه القصة: عتاب الله ليونس عليه السلام اللطيف، وحبسه في بطن الحوت؛ ليكون كفارة، وآية عظيمة، وكرامة ليونس، ومن نعمة الله عليه أنه استجاب له هذا العدد الكثير من قومه، فكثرة أتباع الأنبياء من جملة فضائلهم.

وفيها: استعمال القرعة عند الاشتباه في مسائل الاستحقاق والحرمان، إذا لم يكن مُرَجِّح سواها، وفي عمل أهل السفينة هذا العملَ دليل على القاعدة المشـــهورة؛ أنه يُرْتَكب أخفُّ الضررَين لدفع الضرر الذي هو أكبر منه، ولا ريب أن إلقاء بعضهم وإن كان فيه ضرر فعطبُ الجميع إذا لم يُلْقَ أحدٌ أعظمُ.

وفيها: أن العبد إذا كانت له مقدِّمة خاصة مع ربه، وقد تعرَّف إلى ربه في حال الرخاء؛ أن الله يشكر له ذلك، ويَعْرِفه في حال الشدة بكشفها بالكلية أو تخفيفها، ولهـــذا قال في قصة يونـــس: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

وفيها: ما قاله النبي ﷺ: «دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرَّج الله عنه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]».

وفيها: أن الإيمان يُنَجِّي من الأهوال والشـــدائد؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، أي: إذا وقعوا فيها لإيمانهم(١).

---

(١) **ومن فوائد قصة يونس عليه السلام:**
- مشروعية الركوب في السفن البحرية.
- مشروعية الاقتراع لفَضّ النزاع في قسمة الأشياء ونحوها.
- فضل الصلاة، والذِّكْر، والدُّعاء، والتسبيح، وعظيم نفعها عند الوقوع في البلاء.
- بركة أَكْل اليقطين؛ إذ كان النبي ﷺ يأكلها، ويلتقطها من حافة القصعة.
- فضل قوم يونس إذ آمنوا كلهم، ولم تؤمن أمةٌ بكاملها إلا هم.



قصة عيسى وأمه، وزكريا ويحيى عليهم السلام

كانت زوجة عمران ـ وهو من أكابر بني إسرائيل ورؤسائهم وذوي المقامات العالية عندهم ـ نذرت حين ظهر حملها أن تُحَرِّر ما في بطنها لبيت المقدس، يكون خادمًا لبيت الله، مُعَدًّا لعبادة الله، ظنًّا أن الذي في بطنها ذَكَرٌ، فلما وضعتها قالت معتذرة إلى الله شاكية إليه الحال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، أي: إن الذَّكَر الذي له القوة والقدرة على ما يراد منه من القيام بخدمة بيت المقدس، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فحصَّنتها بالله من عدوها هي وذريتها، وكان هذا أول حفظ وحماية من الله لها، ولهذا استجاب الله لها في هذه الدنيا: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فجمع الله لها بين التربية الجسدية والتربية الروحية، حيث قُدِّر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بني إسرائيل في ذلك الوقت؛ فإن أمها لما جاءت بها لأهل بيت المقدس تنازعوا أيهم يكفلها؛ لأنها ابنة رئيسهم، فاقترعوا وألقوا أقلامهم، فأصابت القرعة زكريا رحمة به وبمريم، فكفلها أحسن كفالة، وأعانه على كفالتها بكرامة عظيمة منه، فكانت قد نشأت نشأة الصالحات الصدِّيقات، وعكفت على عبادة ربها، ولزمت محرابها، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا، قال: أنى لك هذا؟ فإنه ليس لها كافل غير زكريا،

قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي: رِزْقه تعالى يأتي بطرق معهودة وبطرق أخرى، والله على كل شيء قدير.

فحين رأى هذه الحالة ذَكَّرَه ذلك لطف ربه، ورَجَّاه إلى رحمته، فدعا الله أن يهب له ولدًا يرثه علمه ونبوته، ويقوم بعده في بني إسرائيل في تعليمهم وهدايتهم: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، أي: عظيمًا عند الله، وعند الخلق؛ لِمَا جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة، والعلوم العظيمة، والأعمال الصالحة، ﴿وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، أي: ممنوعًا بعصمة الله وحفظه، ووقايته من مواقعة المعاصي، فوصفه الله بالتوفيق لجميع الخيرات، والحماية من السيئات والزلات، وهذا غاية كمال العبد، فتعجب زكريا من ذلك وقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٨ ـ ٩]، وهذا أعجب من حملها وهي عاقر على كِبَرِك، فمن فرحه ورغبته العظيمة في طمأنينة قلبه قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وهذه آية كبرى؛ يُمْنَع من الكلام الذي هو أسهل ما يقدر عليه الإنسان، وهو سَوِيٌّ، فلا يقدر أن يُكلم أحدًا إلا بالإشارة، ومع ذلك لسانه منطلق بذِكْر الله وتسبيحه وتحميده، فحينئذ تمت له البشارة من الله، وعرف أنه لا بد أن يكون، فولدت زوجته يحيى، وأنشأه الله نشأة عجيبة، فتعلَّم وهو صغير، ومهر في العلم وهو صغير، ولهذا قال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۞ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۞ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥]، ومضمون هذا وصفه بالقيام بحقوق الله، وحقوق والديه، وحقوق الخلق، وأن الله سيُحْسِن له العواقب في أحواله كلها.

وأما مريم فإنها انتبذت[1] من أهلها مكانًا شـرقيًا، متجـرِّدة لعبادة ربها: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧]؛ لئلا يشـغلها أحد عمـا هي بصدده؛ فأرسل الله لها الروح الأمين جبريل في صورة بشر سَـوِيٍّ من أكمل الرجال وأجملهم، فظنَّت أنه يريدها بسوء، فقالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]، فتوسَّلَت بالله في حفظها وحمايتها، وذكَّرته وجوب التقوى على كل مسلم يخشـى الله، فكان هذا الوَرَع العظيم منها في هذه الحالة التي يُخْشَى منها الوقوع في الفتنة، ورفع الله بذلك مقامهـا، ونعتها بالعفة الكاملة، وأنها أحصنت فرجها، فقال لها جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريـم: ١٩ ـ ٢١]، فلا تعجبي مما قدَّرَهُ الله وقضاه.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾، أي: ابتعدت به عن الناس ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ خشية الاتهام والأذية منهم، ﴿فَأَجَآءَهَا﴾، أي: ألجأها ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾، أي: الطَّلْق ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ لمـا تعرفه مما هي متعرِّضة له من الناس، وأنهم لا يصدقونها، ولم تَدْرِ ما الله صانع لها.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ الملك ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾، وكانت في مكان مرتفع، ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، أي: نهـرًا جاريًا، ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ من دون أن تحوجك إلى صعود، ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، أي: طريًّا ناضجًا، ﴿فَكُلِي﴾ من الرُّطَب، ﴿وَٱشْرَبِي﴾ من السَّـرِيِّ، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بولادة عيسـى، وليذهب رَوْعُكِ وخوفـك، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ

---

(١) أي: اعتزلت.

لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾، أي: سكوتًا، وكان معهودًا عندهم أنهم يتعبَّدون بالصمت في جميع النهار، ولهذا فسَّره بقوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، فاطمأن قلبها، وزال عنها ما كانت تجد.

ثم لما تعالَت[1] من نِفاسها، وأصلحت من شأنها، وقويت بعد الولادة: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم: ٢٧] علنًا غير هائبة ولا مبالية، فلما رآه قومها، وقد علموا أنه لا زوج لها، جزموا أنه من وجه آخر، فقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٢٩] كما أُمِرَت بذلك، فقالوا منكرين عليها مقالتها لهم: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ٢٩] فقال، وهو في تلك الحال له، أيام يسيرة بعد ولادته: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]، فكان هذا الكلام منه في هذه الحال من آيات الله، وأدلة رسالته، وأنه عبد الله لا كما يزعمه النصارى، وحصل لأمه البراءة العظيمة مما يُظَنُّ بها من السوء؛ لأنها لو أتت بألف شاهد على البراءة وهي على هذه الحال ما صدَّقها الناس، ولكن هذا الكلام من عيسى وهو في المهد جَلَّى كل ريب يقع في القلوب، فانقسم الناس فيه بعد هذا ثلاثة أقسام:

قسم: آمنوا به وصدَّقوه في كلامه هذا، وفي الانقياد له بعد النبوة، وهم المؤمنون حقيقة.

وقسم: غلَوْا فيه، وهم النصارى، فقالوا فيه المقالات المعروفة، ونزَّلوه منزلة الرب، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

---

(١) أي: قامت وطهُرت.

وقسم: كفروا به وجفوه ـ وهم اليهود ـ ورموا أمه بما برّأها الله منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

ولما أرسله الله إلى بني إسرائيل آمن به مَن آمن، وكفر به من كفر، وجعل يريهم الآيات والعجائب، فكان يصوّر الطين فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويُبْرِئ الأكمه[1] والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وينبئهم عن كثير مما يأكلون، ويدَّخرون في بيوتهم، ومع ذلك فتكالبت عليه أعداؤه وأرادوا قتله، فألقى الله شَبَهه على واحد من الحواريين أصحابه أو من غيرهم، ورفعه الله إليه، وطهَّره من قتلهم، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه، وباءوا بالإثم العظيم والْجُرم الجسيم، وصدَّقهم النصارى أنهم قتلوه وصلبوه، ونزَّهه الله من هذه الحالة، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقد قام عيسى في بني إسرائيل فبشَّر وأعلن برسالة محمد ﷺ، فلما جاءهم محمد الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣] كما قالوا في عيسى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].



(١) الذي وُلِد أعمى.

وفي هذه القصة من الفوائد

منها: أن النذر ما زال مشروعًا في الأمم السابقة؛ والنبي ﷺ قال فيه كلمة جامعة للصحيح النافذ منه للباطل، فقال: «مَن نذر أن يطيع الله فليُطِعْهُ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يَعْصِه»[1].

ومنها: أن من نعمة الله على العبد أن يكون في كفالة الصالحين الأخيار؛ فإن المربي والكافل له الأثر الأعظم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه، ولهذا أَمَرَ الله المربِّين بالتربية الطيبة المشـتملة على الحث على الأخلاق الجميلة، والترهيب من مساوئ الأخلاق.

ومنها: إثبات كرامات الأولياء؛ فإن الله كرَّم مريم بأمور: يسَّر لها أن تكون في كفالة زكريا بعدما حصل الخصام في شأنها، وأكرمها بأن كان رزقُها يأتيها من الله بلا سبب، وأكرمها بوجود عيسى، وولادتها إياه، وبخطاب الملك لها بما يطمئن قلبها، ثم بكلامه فـي المهد، فهذه الأخيـرة جمعت كرامة ولي ومعجزة نبي.

ومنها: الآيات العظيمة التي أجراها الله على يد عيسى ابن مريم؛ من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحوهما.

ومنها: ما أكرم الله به عيسـى بأن جعل له حواريـن وأنصارًا في حياته، وبعد مماته في بَثِّ دعوتـه والنصر لدينه، ولذلك كثـر تابِعوه، ولكن منهم المستقيم؛ وهو الذي آمَن به حقيقةً، وآمن بجميع الرسل، ومنهم المنحرف، وهم الذين غَلَوْا فيه، وهم جمهور من يدَّعي أنه من أتباعه، وهم أبعد الناس عنه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

ومنها: أن الله أثنى على مريم بالكمال بالصدِّيقية، وأنها صدَّقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين، وهذا وَصْف لها بالعلم الراسخ، والعبادة الدائمة، والخشوع لله، وأنه اصطفاها وفضَّلها على نساء العالمين.

ومنها: أن إخبار الله للنبي ﷺ بهذه القصة وغيرها مفصَّلةً مطابقة للحقيقة من أدلة رسالته وآيات نبوته؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٤٤][1].

---

(١) ومن فوائد قصة عيسى وأمه، وزكريا ويحيى عليهم السلام:
- بيان أنَّ عيسى عليه السلام ليس بابن الله ولا هو الله، ولا ثالث ثلاثة، بل هو عبد الله ورسوله، أمُّه مريم، وجدته حنَّة، وجده عمران، من بيت شرف وصلاح في بني إسرائيل.
- استجابة الله تعالى لدعاء أوليائه كما استجاب لحنة ورزقها الولد، وأعاذ بنتها وولدها من الشيطان الرجيم.
- النَّذْر لله تعالى هو التزام المؤمن الطاعة تقرُّبًا إلى الله تعالى.
- بيان فضل الذَّكَر على الأنثى في باب النهوض بالأعمال والواجبات.
- جواز التحسُّر والتأسُّف لما يفوت العبد من الخير الذي كان يأمله.
- الاعتبار بالغير؛ إذ زكريا دعا بالولد لما رأى كرامة الله تعالى لمريم.
- مشروعية الدُّعاء، وكونه سرًّا أقرب إلى الإجابة، وكونه في الصلاة كذلك.
- جواز تلبيس إبليس على المؤمن، ولكن الله تعالى يُذهِب كيده ووسوسته.
- جواز سؤال الولد الصالح.
- فضل الإكثار من الذِّكْر، وفضيلة صلاتَيِ الصبح والعصر، وفي الحديث: «مَن صلَّى البَرْدَيْن دخل الجنة». متفق عليه.
- مشروعية الاقتراع عند الاختلاف، وهذه وإن كانت في شرع مَن قَبْلَنا إلا أنها مقرَّرة في شرعنا، والحمد لله.
- بيان شرف مريم، وكرامتها على ربها؛ إذ كلَّمَها جبريل عليه السلام وبشَّرَها بعد أن تمثَّل لها بشرًا.
- بيان شرف عيسى عليه السلام، ووجاهته في الدنيا والآخرة، وأنه من المقرَّبين والصالحين.
- تكلُّم عيسى عليه السلام في المهد آيةٌ من آيات الله تعالى، حيث لم تَجْرِ العادة أن الرضيع يتكلَّم في زمان رضاعه.
- جواز طلب الاستفسار عما يكون مخالِفًا للعادة؛ لمعرفة سِرِّ ذلك، أو عِلَّتِه، أو حِكْمته. =

=
- شرف الكتابة وفضلها.
- فضل الحكمة، وهي الفقه في أسرار الشرع، والإصابة في الأمور.
- تقرير قَبْض الله تعالى لعيســى، ورفعه إليه حَيًّا، ونزوله في آخر الدنيا ليحكم زمنًا، ثم يموت الموتة التي كتبها الله على كل إنسان، فلم يجمع الله تعالى له بين موتتَيْنِ.
- تقرير مبدأ أن الأنبيــاء لا يُوَرِّثُون فيما يُخَلِّفُون من المال؛ كالشــاء، والبعير، وإنما يُوَرِّثُهم الله أولادَهم في النبوة والعلم والحكمة.
- جواز طلب العلامات الدالة على الشيء للمعرفة.
- فضل التسبيح في الصباح والمساء.
- وجوب البر بالوالدين ورحمتهما، والحنان عليهما، والتواضع لهما.
- فضيلة العفة والحياء.
- مشروعية التعوُّذ بالله من كل ما يُخاف؛ من إنسان أو جانٍّ.
- التقوى مانعة من فِعْل الأذى بالناس، أو إدخال الضرر عليهم.





قصة خاتم النبيين وإمام المرسلين ﷺ

اعلم أن سيرة نبيِّنا محمدٍ ﷺ أعظمُ عونٍ على معرفة تفسير كتاب الله، والقرآن إنما كان ينزل تبعًا لمناسبات سيرته، وما يقوله للخلق، وجواب ما يقال له، وما يحصل به تحقيقُ الحقِّ الذي جاء به، وإبطال المذاهب التي جاء لإبطالها، وهذا من حكمة إنزاله مفرَّقًا، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]، وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ١٢٠].

فلنُشِرْ من سيرته ﷺ على الأحوال المناسبة لنزول آيات معينات، أو لجنس النوع من علوم القرآن؛ ليكون عونًا في هذا المقام.

فأول مقاماته في إنزال القرآن عليه: أنه كان قبل البعثة قد بُغِّضَت إليه عبادة الأوثان، وبُغِّضَ إليه كل قول وفعل قبيح، وفُطِر ﷺ فطرة مستعدة متهيئة لقبول الحق علمًا وعملًا، والله تعالى هو الذي طهَّر قلبه وزكَّاه وكمَّله، فكان من رغبته العظيمة فيما يُقرِّب إلى الله أنه كان يذهب إلى غار حراء الأيام ذوات العدد، ويأخذ معه طعامًا يُطعم منه المساكين، ويتعبَّد ويتحنَّث فيه، فقلبه في غاية التعلُّق بربه، ويفعل من العبادات ما وصل إليه علمه في ذلك الوقت الجاهلي الخالي من العلم، ومع ذلك فهو في غاية الإحسان إلى الخلق.

فلما تَمَّ عمره أربعين سنةً، وتمت قوَّته العقلية، وَصَلُحَ لتلقي أعظم رسالة أرسل الله بها أحدًا من خَلْقه؛ تبدَّى له جبريلُ ﷺ، فرأى منظرًا هَالَهُ وأزعجه؛ إذ لم يتقدم له شيءٌ من ذلك، وإنما قدَّم الله له الرؤيا التي كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح.

فأول ما أنزل الله عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، فجاءه بها جبريل، وقال له: اقرأ، فأخبره أنه ليس بقارئ[1] ـ، أي: لا يعرف أن يقرأ ـ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]. ونظيرها الآية الأخرى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فغَطَّه جبريل مرتين أو ثلاثًا ليهيِّئه لتلقِّي القرآن العظيم، ويتجرَّد قلبه وهِمَّته، وظاهره وباطنه لذلك.

فنزلت هذه السورة التي فيها نبوَّته، وأمْرُه بالقراءة باسم ربه، وفيها أصناف نعمه على الإنسان بتعليمه البيان العلمي والبيان اللفظي والبيان الرسمي، فجاء بها إلى خديجة تُرْعَدُ فرائصه من الفَرَق[2]، وأخبرها بما رآه وما جرى عليه، فقالت خديجة ﵂: أَبْشِر، فوالله لا يُخْزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتَقْري الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق[3].

أي: ومَن كانت هذه صفته فإنها تستدعي نِعَمًا من الله أكبر منها وأعظم، وكان هذا من توفيق الله لها ولنبيه، ومن تهوين القلق الذي أصابه.

وبهذه السورة ابتدأت نبوته، ثم فتر عنه الوحي مدة؛ ليشتاق إليه؛ وليكون أعظم لموقعه عنده، وكان قد رأى الملك على صورته فانزعج، فجاء إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) أي: ترجف من الخوف، والفرائص: عصب الرقبة وعروقها، والمفرد: فَرِيصة.

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

خديجة، أيضًا تُرْعَد فرائصه، فقال: «دَثِّروني دَثِّروني»؛ فأنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٥][(١)]، فكان في هذا: الأمر لـــه بدعوة الخلق وإنذارهم، فشـــمَّر ﷺ عن عزمـــه، وصَمَّم على الدعوة إلى ربه، مع علمه أنه سيقاوَم بهذا الأمر البعيد والقريب، وسيلقى كل معارضة من قومه ومن غيرهم وشـــدة، ولكن الله، أيَّده وقـــوَّى عزمه، وأيَّده بروح منه، وبالدِّين الذي جاء به، وجاءته سورة الضحى في فترة الوحي لَمَّا قال المكذِّبون: إن رب محمد قلاه. قـــال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣] إلى آخرها[(٢)].

وهذا اعتناء عظيم من الله برسوله، ونفي لكل نقص، وبشارة بأن كل حالة له أحســـن مما قبلها وخير منها، وأن الله ســـيعطيه من النصر والأَتباع والعز العظيم وانتشار الدين ما يرضيه.

فكان أعظم مقامات دعوتـــه: دعوته إلى التوحيـــد الخالص، والنهي عن ضده؛ دعا الناس لهذا، وقرَّره الله في كتابه، وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبيِّن وجوب التوحيد وحُسْـــنه، وتُعيِّنه طريقًا إلى الله وإلى دار كرامته، وقرَّر إبطال الشرك والمذاهب الضارَّة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن، **وهي أغلب السور المكية**، فاستجاب له في هذا الواحدُ بعد الواحد على شدة عظيمة من قومه، وقاوَمَه قومه وغيرهم، وبغوا له الغوائل، وحرصوا على إطفاء دعوته بجهدهم وقولهم وفعلهم، وهـــو يجادلهم ويتحداهم أن يأتوا بمثـــل هذا القرآن، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين، ولكنهم يكابـــرون ويجحدون آيات الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩٧).

ولهذا لما كان استــماعهم للقرآن على وجه الكفــر والجحد والتكذيب، وتوطين نفوســهم على معاداته، أخبر الله تعالى أنه جعل على قلوبهم أكِنَّة أن يفقهوه، وفي آذانهم وقرًا؛ وأنهم لا يهتدون بســبب ما أسَّسوا من هذا الأصل الخبيث، المانع لصاحبه من كل خير وهدى، وهذا مما يُعلم به حكمة الباري في إضلال الضالِّين، وأنهم لما اختاروا لأنفسهم الضلال ورغبوا فيه، ولَّاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وتركهم في طغيانهم يعمهون؛ وأنهم لما ردُّوا نعمة الله عليهم حين جاءتهم قلب الله أفئدتهم، وأصمَّ أسماعَهم، وأعمى أبصارهم وأفئدتهم.

وهذا الوصف الذي أشــرنا إليه قد ذكره الله في كتابه عنهم، وهو يُعِينك على فَهْم آيات كثيرة يخبر الله فيها بضلالهم، وانســداد طرق الهداية عليهم، وعدم قبول محالِّهم وقلوبهم للهدى، والذنب ذنبهم، وهم السبب في ذلك، قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وبضده تُعْرَف الحكمــة في هدايته للمؤمنين، وأنهــم لما كانوا منصفين ليــس غرضهم إلا الحــق، ولا لهم قصــد إلا طلب رضا ربهــم؛ هداهم الله بالقــرآن، وازدادت به علومهم ومعارفهم وإيمانهــم وهدايتهم المتنوعة، قال تعالــى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦].

وهذا الوصف الجليل للمؤمنين هو الأســاس لهدايتهم، وزيادة إيمانهم وانقيادهم، وبــه ينفتح لك الباب في فهــم الآيات في أوصــاف المؤمنين، وسرعة انقيادهم للحق أصوله وفروعه.

ومن مقامات النبي ﷺ مع المكذِّبين له: أنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلهم بالتي هي أحسن؛ ويدعوهم أفرادًا ومجتمعين، ويُذَكِّرهم بالقرآن، ويتلوه في الصلاة وخارجها، وكانوا إذا ســمعوه صَمُّوا آذانهم، وقد

يسبُّونه ويسبُّون مَن أنزله، فأنزل الله على رســوله آيات كثيرة في هذا المعنى يُبيِّن حالهم مع سماع القرآن، وشــدة نفورهم: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثــر: ٥٠، ٥١]، وأن شياطينهم ورؤساءهم في الشــرّ فكَّروا وقدَّروا، ونظروا فيما يقولون عن القرآن ويصفونه به؛ ليُنَفِّروا عنه الناس، حتى قرَّ قرار رئيسهم الوليد بن المغيرة الذي سمَّاه الله وحيدًا، فقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثــر: ٢٤، ٢٥]، ولكن أبى الله إلا أن يعلــو هذا الكلام كلَّ كلام، ويُزهق هذا الحقُّ كلَّ باطلٍ.

وكانوا من إفكهم يقولون في القرآن الأقوال المتناقضة، يقولون: إنه سحر، إنه كهانة، إنه شعر، إنه كذب، إنه أساطير؛ فجعلوا القرآن عِضِين[1]، كل هذا أثر البُغض الذي أحرق قلوبهم، حتى قالوا فيه مقالة المجانين، وكلما قالوا قولًا من هذه الأقوال أنزل الله آيات يُبْطِل بها ما قالوا، ويُبَيِّن زورهم وافتراءهم وتناقضهم.

وكان من الأدلة والبراهين على رسالة محمد ﷺ، وأن القرآن من عند الله، مقابلة المكذِّبين له، فإن مَن نظر إليها علم أنها سلاح عليهم، وأكبر دليل على أنهم مقاومون للحق، ساعون في إبطاله، وأنهم على الباطل الذي ليس له حظ من العقل، كما ليس له حظ مــن الدِّين، وكانوا أيضًــا يقولون في النبي ﷺ الأقوالَ التــي ليس فيها دلالــة على ما كانــوا يعتقدون، وليــس فيها نقص بالنبي ﷺ؛ يقولون: لو أن محمدًا صادق لأنزل الله ملائكة يشهدون له بذلك، ولأغناه الله عن المشي في الأسواق، وطلب الرزق كما يطلبه غيره، ولجعل له كذا وكذا مما توحــي إليهم عقولهم الفاســدة، ويذكرها الله فــي القرآن في مواضع متعددة؛ تارةً يُصوِّرها للعباد فقط؛ لأن مــن تصوَّرها عرف بطلانها، وأنها ليست من الشُّــبَه القادحة، فضلًا عن الحجج المعتبَرة، وتارة يصوِّرها، ويذكر ما يبطلها من الأمور الواضحة، وهذا كثير في القرآن.

---

(١) أي: مُفَرَّقًا، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

ومن مقاماتهم مع النبي ﷺ: أنهم يسعون أشـــد السعي أن يَكُفَّ عن عيب آلهتهم، والطعن في دينهم، ويحبـــون أن يتاركهم ويتاركوه؛ لعلمهم أنه إذا ذكر آلهتهم، ووصفها بالصفات التي هي عليها من النقص، وأنها ليس فيها شيء من الصفات يُوجب أن تستحق شـــيئًا من العبادة، يعرفون أن الناس يعرفون ذلك، ويعترفون به، فلا أَحَبَّ إليهم من التزوير، وإبقـــاء الأمور على عِلَّاتها من غير بحث عن الحقائق؛ لأنهم يعرفون حق المعرفة أن الحقائق إذا بانت ظهر للخلق بطلان ما هم عليه، وهذا الذي منه يفرون، وهذا المقام أيضًا ذكره الله في آيات متعددة مثل قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، ونحوها من الآيات.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فهذا إذا ترتَّب على السب المذكور سبُّهم لله فإنه يُتْرَك؛ لما يترتب عليه من الشر.

ومن مقاماتهم المتنوعة مع النبي ﷺ: أنهم كانوا يقترحون الآيات بحسب أهوائهم، ويقولون: إن كنت صادقًا فأتنا بعذاب الله، أو بما تَعِدُنا، أو أَزِل عنا جبال مكة، واجعل لنا فيها أنهارًا وعيونًا، أو حتى يحصل لك كذا وكذا مما ذكـــره الله عنهم، فيجيبهـــم الله عن هذه الأقوال بأن رســـوله ﷺ قـــد أيَّده الله بالآيات، والله أعلم بما يُنَزِّل من آياته، وأعلم بما هو أنفع لهم، وأنه قد حصل المقصود من بيان صدقه، وقامـــت الأدلة والبراهين على ذلك، فقول الجاهل الأحمق: لو كان كذا وكذا، جهلٌ منه وكِبْر، ومشاغبة مَحْضَة.

وتارة يخبرهم أنه لا يمنعه مـــن الإتيان بها إلا الإبقـــاء عليهم، وأنها لو جاءت لا يؤمنون، فعند ذلك يعاجلهم الله بالعقاب.

وتارة يُبَيِّن لهم أن الرســـول إنما هو نذير مبين، ليس له من الأمر شيء، ولا من الآيات شيء، وأن هذا من عند الله، فطَلَبُهم من الرسول مَحْضُ الظلم والعدوان، وهذه المعاني في القرآن كثيرة بأساليب متعددة.

وأحيانًا يقدحون في الرسول قدحًا يعترضون فيه على الله، وأنه لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، ومحمد ليس كذلك، وإنك يا محمد لست بأولى بفضل الله منا؛ فلأي شيء تَفْضُلُ علينا بالوحي، ونحوه من الأقوال الناشئة عن الحسد.

فيجيبهم الله بذِكْر فضله، وأن فضله يؤتيه من يشاء، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته، والمحل اللائق بها، ويشرح لهم من صفات رسوله التي يشاهدونها رأي عين ما يعلمون هم وغيرهم أنه أعظم رجل في العالم، وأنه ما وُجِد ولن يوجد أحد يقاربه في الكمال، مؤيَّدًا ذلك بالأمور المحسوسة والبراهين المسلَّمة، وقد أبدى الله هذه المعاني، وأعادها معهم في مواضع كثيرة.

ومن مقاماته ﷺ مع المؤمنين: الرأفة العظيمة، والرحمة لهم، والمحبة التامة، والقيام معهم في كل أمورهم، وأنه بهم أرحم وأرأف من آبائهم وأمهاتهم، وأحنى عليهم من كل أحد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فلم يَزَل يدعو إلى التوحيد وعقائد الدين وأصوله، ويقرّر ذلك بالبراهين والآيات المتنوعة، ويحذر من الشرك والشرور كلها منذ بُعِث إلى أن استكمل بعد بعثته نحو عشر سنين وهو يدعو إلى الله على بصيرة.

ثم أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ ليُرِيَه من آياته، وعَرَج به إلى فوق السماوات السبع، وفرض الله عليه الصلوات الخمس بأوقاتها وهيئاتها، وجاءه جبريل على أثرها فعلَّمه أوقاتها وكيفيَّاتها، وصلى به

يومين؛ اليوم الأول صلَّى الصلوات الخمس في أول وقتها، واليوم الثاني في آخر الوقت، وقال: الصلاة ما بين هذين الوقتين، ففُرِضت الصلوات الخمس قبل الهجرة بنحو ثلاث سـنين، ولم يُفْرَض الأذان في ذلك الوقت، ولا بقية أركان الإسلام.

وانتشر الإســلام في المدينة وما حولها، ومن جملة الأسباب أن الأوس والخزرج كان اليهود في المدينة جيرانًا لهم، وقد أخبروهم أنهم ينتظرون نبيًّا قد أَظَلَّ زمانه، وذكروا من أوصافه ما دلَّهم عليه، فبادر الأوس والخزرج لمَّا اجتمعــوا بالنبي ﷺ في مكة، وتيقَّنوا أنه رســول الله، وأما اليهود فاســتولى عليهم الشقاء والحسد، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩][١].

وكان المسلمون في مكة في أذى شــديد من قريش، فأَذِن لهم النبي ﷺ في الهجرة أولًا إلى الحبشــة، ثم لما أســلم كثير من أهــل المدينة صارت الهجرة إلى المدينة.

وحين خاف أهل مكة من هذه الحال اجتمع مَلَؤُهم ورؤســاؤهم في دار الندوة يريدون القضاء التام على النبي ﷺ؛ فاتَّفق رأيهم أن ينتخبوا من قبائل قريش مــن كل قبيلة رجلًا شــجاعًا، فيجتمعون ويضربونه بســيوفهم ضربة واحدة[٢].

قالوا: لأجل أن يتفرَّق دمه في القبائل، فتعجز بنو هاشم عن مقاومة سائر قريش فيرضون بالدية، فهم يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

فجاء الوحي إلى النبي ﷺ وعــزم على الهجرة، وأخبــر أبا بكر بذلك، وطلب منه الصحبة، فأجابه إلى ذلك، وخرج في تلــك الليلة التي اجتمعوا

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٢٣٧).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٦٨).

على الإيقاع به، وأمر عليًا أن ينام على فراشه، وخرج هو وأبو بكر إلى الغار، فلم يزالوا يرصدونه حتى برق الفجر، فخرج إليهم عليٌّ، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري.

ثم ذهبوا يطلبونه في كل وجهة، وجعلوا الجِعالات(١) الكثيرة لمن يأتي به، وكان الجبل الذي فيه الغار قد امتلأ من الخلق يطلبون رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى قدَمَيْه لأبصرنا. فقال: «يا أبا بكر، ما ظَنُّك باثنين الله ثالثهما؟»(٢)، وأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

فهاجَرَ إلى المدينة، واستقرَّ بها، وأُذِن له في القتال بعدما كان قبل الهجرة ممنوعًا لحكمة مشاهَدة، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، وجعل يُرْسِل السرايا.

ولما كانت السنة الثانية فرض الله على العباد الزكاة والصيام، فآيات الصيام والزكاة إنما نزلت في هذا العام، وكان وَقْتَ فرضها، وأما قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] فإن المراد زكاة القلب وطهارته بالتوحيد وتَرْك الشرك.

وفي السنة الثانية أيضًا كانت وقعة بدر، وسببها أن عِيرًا لقريش تحمل تجارة عظيمة من الشام، خرج النبي ﷺ بمن خَفَّ من أصحابه لطلبها،

(١) هي الأجر على الشيء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

فخرجت قريش لحمايتها، وتوافَوْا في بدر على غير ميعاد، فالعير نجت، وكان النفير؛ التقوا مع الرسول وأصحابه، وكانوا ألفًا كاملي العدد والخيل، والمسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر على سبعين بعيرًا يعتقبونها، **فهزم الله** المشركين هزيمة عظيمة، قُتِلت سَرَواتُهم[1] وصناديدُهم، وأُسِرَ من أُسِرَ منهم، وأصاب المشركين مصيبةٌ ما أُصيبوا بمثلها، وهذه الغزوة أنزل الله فيها وفي تفاصيلها **سورة الأنفال**، وبعدما رجع إلى المدينة منها مُظَفَّرًا منصورًا ذلّ من بقي ممن لم يُسْلِمْ من الأوس والخزرج، ودخل بعضهم في الإسلام نِفاقًا، ولذلك كانت جميع الآيات التي نزلت في المنافقين إنما كانت **بعد غزوة بدر**.

ثم في السنة الثالثة كانت غزوة أحد، غَزَا المشركون وجيَّشوا الجيوش على المسلمين حتى وصلوا إلى أطراف المدينة، وخرج إليهم رسول الله ﷺ بأصحابه وعبَّأهم ورتَّبهم، والتقوا في أُحُد عند الجبل المعروف شمالي المدينة، وكانت الدائرة في أول الأمر على المشركين، ثم لما ترك الرماة مركزهم الذي رتَّبهم فيه رسول الله ﷺ وقال لهم: «لا تبرحوا عنه؛ ظَهَرنا أو غُلبنا»[2]، وجاءت الخيل مع تلك الثغرة، وكان ما كان، حصل على المسلمين في أُحُد مَقْتَلَة أكرمهم الله بالشهادة في سبيله، وذكر الله تفصيل هذه الغزوة في **سورة آل عمران**، وبسط متعلَّقاتها، فالوقوف على هذه الغزوة من كتب السير يُعِين على فَهْم الآيات الكثيرة التي نزلت فيها كبقية الغزوات.

ثم في السنة الرابعة تواعَد المسلمون والمشركون فيها - في بدر - فجاء المسلمون لذلك الموعد، وتخلَّف المشركون معتذرين أن السَّنَة مُجْدِبة، فكتبها الله غزوة للمسلمين، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

(١) أي: أشرافهم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٤٣).

ثم في سنة خمس كانت غزوة الخندق، اتَّفَق أهل الحجاز وأهل نجد، وظَاهَرَهُم بنو قُرَيْظة من اليهود على غـزو النبي ﷺ، وجمعوا ما يقدرون عليه من الجنود، فاجتمع نحو عشـرة آلاف مقاتل وقصدوا المدينة، ولما سـمع بهم النبي ﷺ خندق على المدينة، وخرج المسلمون نحو الخندق، وجاء المشـركون كما وصفهم الله بقوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحـزاب: ١٠]، ومكثوا محاصِرين المدينة عدة أيام، وحال الخندقُ بينهم وبين اصطدام الجيوش، وحصلت مناوشات يسـيرة بين أفرادٍ من الخيل، وسـبَّب الله عدة أسباب لانخذال المشركين، ثم انشمروا إلى ديارهم، فلما رجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا جازميـن على حصوله **تفرَّغ النبي** ﷺ لبني قريظـة الذين ظَاهَرُوا المشـركين بقولهم وتشـجيعهم على قَصْد المدينة، ومظاهرتهم الفعلية، ونَقْضهـم ما كان بينهـم وبين النبـي ﷺ فحاصَرهم، فنزلـوا على حُكْم سعد بن معاذ رضي الله عنه، **فحكم** أن تُقْتَل مقاتلتهم، وتُسْبَى ذَراريُّهم، وفي هذه الغزوة أنزل الله صدر سـورة **الأحزاب** من قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩] إلى قولـه: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ثم في سـنة سـت من الهجرة اعتمر ﷺ وأصحابه عمرة الحديبية، وكان البيت لا يُصَدُّ عنه أحد، فعزم المشـركون على صدِّ النبي ﷺ عنه، ولما بلغ الحديبية، ورأى المشـركين قد أَخَذَتْهم الحمية الجاهلية جازمين على القتال دخل معهم في صُلْحٍ لحقـن الدماء في بيت الله الحـرام، ولِمَا في ذلك من المصالح، وصار الصلح على أن يرجع النبيُّ ﷺ عامَه هذا ولا يدخل البيت، ويكون القضاء من العام المقبل، وتضع الحرب أوزارها بينهم عشـر سنين،

فكره جمهور المسلمين هذا الصلح حين تَوَهَّمُوا أن فيه غضاضة على المسلمين، ولم يطَّلِعوا على ما فيه من المصالح الكثيرة.

فرجع ﷺ عامَه ذلك، وقضى هذه العمرة في **عام سبع من الهجرة**، **فأنزل الله في هذه القضية سورة الفتح** بأكملها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، فكان هذا الفتح؛ لما فيه من الصلح الذي تمكَّن فيه المسلمون من الدعوة إلى الإسلام، ودخول الناس في دين الله، حين شاهدوا ما فيه من الخير والصلاح والنور، وقد تقدَّم أن قصة بني قريظة دخلت في ضمن قصة الخندق، **أما قبيلة بني النضير** من اليهود فإنها قبل ذلك حين همُّوا بالفتك بالنبي ﷺ، وكانوا على جانب المدينة غزاهم ﷺ، واحتموا بحصونهم، ووعدهم المنافقون حلفاؤهم بنصرتهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، وأنزلهم رسولُ الله ﷺ على أن يَجْلُوا عن ديارهم، ولهم ما حَمَلَتْ إبلهم، ويدعوا الأرض والعقار، وما لم تحمله الإبل للمسلمين، فأنزل الله في هذه القضية أول **سورة الحشر**: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢] إلى آخر القصة.

وفي سنة ثمانٍ من الهجرة، وقد نقضت قريش العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ غزا مكة في جند كثيف من المسلمين يقارب عشرة آلاف، فدخلها فاتحًا لها، ثم تَمَّمَها بغزوة حُنَين[١] على هوازن وثقيف، فتَمَّ بذلك نصر الله لرسوله وللمسلمين، وأنزل الله في ذلك أول **سورة التوبة**.

وفي سنة تسع من الهجرة غزا تبوك، وأوعب[٢] المسلمون معه، ولم يتخلَّف إلا أهل الأعذار وأناس من المنافقين، وثلاثة من صلحاء المؤمنين: كعب بن مالك وصاحباه، وكان الوقت شديدًا، والحر شديدًا، والعدو كثيرًا،

---

(١) حُنَيْن: اسم ماء بين مكة والطائف.

(٢) أي: خرج.

والعُسْرة مشتدة، فوصل إلى تبوك، ومكث عشرين يومًا، ولم يحصل قتال، فرجع إلى المدينة، فأنزل الله في هذه الغزوة آيات كثيرة من **سورة التوبة**، يذكر تعالى تفاصيلها وشدتها، ويُثني على المؤمنين، ويَذُمُّ المنافقين وتخلُّفهم، ويذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبَعوه في ساعة العُسْرة، ويدخل معهم الثلاثة الذين خُلِّفوا بعد توبتهم وإنابتهم.

وفي مطاوي هذه الغزوات يذكر الله آيات الجهاد وفرضه، وفضله وثواب أهله، وما للناكلين عنه من الذُّلِّ العاجل والعقاب الآجل، كما أنه في أثناء هذه المدة يُنْزِل الله الأحكام الشرعية شيئًا فشيئًا بحسب ما تقتضيه حكمته.

وفي سنة تسع من الهجرة أو سنة عشر فرض الله الحج على المسلمين، وكان أبو بكر حَجَّ بالناس سنة تسعٍ، ونبذ إلى المشركين عهودَهم، وأتمَّ عهود الذين لم ينقضوا.

ثم حج النبي ﷺ بالمسلمين سنة عشر، واستوعب المسلمين معه، وأعلمهم بمناسك الحج والعمرة بقوله وفعله، وأنزل الله الآيات التي في الحج وأحكامه، وأنزل الله يوم عرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣][1].

❋ ❋ ❋

(١) وفي سنة إحدى عشرة من الهجرة توفي النبي ﷺ، ودُفِن في المدينة حيث قُبِض. ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٥٤) وما بعدها.



قصة ذي القرنين

كان ذو القرنَيــن ملــكًا صالحًا، وقد أعطــاه الله من القوة وأســباب الملك والفتوح ما لم يكن لغيره، فذكر الله مِن حُسْن سيرته ورحمته، وقوة ملكه وتَوَسُّعه في المشــارق والمغارب ما يحصل به المقصود التام من سيرته ومعرفة أحواله، ولهذا قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، أي: من بعض أخبــاره، ومن المعلوم أن ما قَصَّه الله في كتابه هو أحســن وأنفع ما يُقَصُّ على العباد، فأخبر أنه أعطاه من كل شــيء سببًا يحصل به قوة الملك، وعلم السياسة، وحُسْن التدبير، والسلاح الْمُخْضِع للأمم، وكثرة الجنود، وتسهيل المواصلات وجميع ما يحتاجه، ومع ذلك فقد عمل بالأسباب التي أُعْطِيها، فما كل أحد يُعطَى الأسباب النافعة، ولا كل مَن أُعْطِيها يتَّبعها ويعمل بها.

أما ذو القرنَين فإنه تَمَّ له الأمران؛ أُعْطِي ســببًا فأتبع سببًا، فغَزَا بجيوشه الجرَّارة أدنى أفريقية وأقصاها حتى بلغ البحــر المحيط الغربي، فوصل إلى محل إذا غربت الشمس ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]، أي: رآها في رؤية العين كأنها تَغْرُب في البحر، والبحر لونه أسود كالحَمَأة[1]، والقصد أنه وصل إلى حيث منتهى الخُفّ والحافــر من بلاد أفريقية، ووجد في ذلك المحل وتلك الأقطار قومًا، منهم المسلم والكافر، والبَرُّ والفاجر، بدليل قوله:

(١) الحمأة: الطين الأسود.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، إما أن القائل له نبي من أنبياء الله، أو أحد العلماء، أو أن المعنى أنه بسبب قدرته كان مخيَّرًا قَدَرًا، وإلا فمن المعلوم أن الشرع لا يُسَوِّي بين الأمرَين المتفاوتَين في الإحسان والإساءة.

فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧ ـ ٨٨]، وهذا يدل على عدله، وأنه ملك صالح، وعلى حُسْن تدبيره.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٩]، أي: ثم عمل بالأسباب التي أوتيها، بعدما أخضع أهل المغارب رجع يفتح الأرض قُطرًا قُطرًا حتى وصل إلى مطلع الشمس من بلاد الصين وشواطئ البحر المحيط الهادي، وهذا منتهى ما وصل إليه الفاتحون.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠]، أي: لا ستر لهم عن الشمس، لا ثياب ينسجونها ويلبسونها، ولا بيوت يبنونها ويأوون إليها، أي: وجد هؤلاء القوم الذين في أقصى المشرق بهذه الصفة والوحشية بمنزلة الوحوش التي تأوي إلى الغياض[1] والغِيرَان[2] والأسراب منقطعين عن الناس، وكانوا في ذلك الوقت على هذه الحالة التي وصف الله، والمقصود من هذا أنه وصل إلى ما لم يَصِلْ إليه أحد.

ثم كَرَّ راجعًا وأتبع سببًا يُمَكِّنه من مناهج[3] البلاد وتخضيع العباد قاصدًا نحو الشمال، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٣]، أي: بلغ محلًّا متوسطًا بين

(١) الغِيَاض: جَمْعُ غَيْضَة، وَهِيَ الشَّجَرُ الملتَفُّ.
(٢) الغيران: جمع غار، وهو الجُحْرُ الَّذِي يأوي إِلَيْهِ الْوَحْشِيُّ.
(٣) أي: مسالك.

السَّدين الموجودَين منذ خلق الله الأرض، وهما سلاسل جبال عظيمة شاهقة متواصلة من تلك الفجوة، وهي الريع إلى البحار الشرقية والغربية، وهي في بلاد التُّرك، على هذا اتَّفق المفسّرون والمؤرِّخون، وإنما اختلفوا: هل هي سلاسل جبال القفقاس(١) أم دون ذلك في أذربيجان، أم سلاسل جبال ألتاي(٢)، أم الجبال المتصلة بالسور الصيني في بلاد منغوليا؟ وهو الظاهر، وعلى الأقوال كلها فقد وجد عند تلك الفجوة التي بين سلاسل هذه الجبال قومًا لا يكادون يفقهون قولًا؛ من بُعْد لغتهم، وثِقَل فَهْمِهم للغات الأمم، ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤]، وهم أمم عظيمة من نسل يافث بن نوح من العناصر التركية وغيرهم، كما هو مذكور مُفَصَّل من أحوالهم ومشروح من صفاتهم، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٤ ـ ٩٥] من القوة والأسباب والاقتدار خير، فأعينوني بقوة، أي: إن هذا بناء عظيم يحتاج في الإعانة عليه إلى مساعدة قوية في الأبدان.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] ولم يقل: سَدًّا؛ لأن الذي بُنِي فقط هو تلك الثنية والريع الواقع بين السَّدَّيْن الطبيعيَّيْن، أي: بين سلاسل تلك الجبال، فدبَّرهم على كيفية آلاته وبنيانه، فقال: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: اجمعوا لي جميع قِطَع الحديد الموجودة من صغار وكبار، ولا تَدَعُوا من الموجود شيئًا، واركموه بين السدين، ففعلوا ذلك حتى كان الحديد تُلُولًا عظيمة موازنة للجبال، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: الجبلَين المكتنفَيْن لذلك الرَّدْم قال: ﴿ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: أمر بالنحاس، فأُذِيب بالنيران، وجعل يسيل بين قطع الحديد، فالتحم بعضها ببعض، وصارت جبلًا هائلًا متَّصلًا

(١) هي بلاد القوقاز بين أوروبا وآسيا.

(٢) هي سلسلة جبال في آسيا الوسطى حيث تلتقي روسيا والصين ومنغوليا وكازاخستان.

بالسَّدَّيْن، فحصل بذلك المقصود من عَيْث[1] يأجوج ومأجوج، ولهذا قال: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: يصعدوا ذلك الردم.

﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۞ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٧ ـ ٩٨]، أي: ربي الذي وفَّقني لهذا العمل الجليل، والأثر الجميل، فرحمكم إذ منعكم من ضرر يأجوج ومأجوج بهذا السبب الذي لا قدرة لكم عليه.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الكهف: ٩٨]، أي: هذا العمل، والحيلولة بينكم وبين يأجوج ومأجوج مُؤَقَّت إلى أجل، فإذا جاء ذلك الأجل قَدَّرَ الله للخلق من أسباب القوة والقدرة والصناعات والاختراعات الهائلة ما يُمَكِّن يأجوج ومأجوج من وطء بلادكم، أيها المجاورون، بل وَمِن وطء مشارق الأرض ومغاربها وأقطارها، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، أي: من كل مكان مرتفع، سواء مثل هذه السدود والبحار وجو السماء ﴿يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، أي: يسرعون فيها غير مكترثين، ولا حاجز يحجزهم، فلفظة ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ تشمل جميع المواضع والأقطار؛ سهلها وصعبها، منخفضها ومرتفعها، وإنما نَصَّ الله على المرتفعات؛ لأن السهول والأماكن المنخفضة من باب أولى وأحرى، وقد ورد في صفاتهم أحاديث في الصحيحَين تؤيد ما في هذه الآيات من صفاتهم، وأورد أصحاب السير والتواريخ الأول من صفاتهم وهيئاتهم آثارًا لا خطام لها ولا زمام، شَوَّشَت أفكار أكثر الناس، ومنعتهم من الاستدلال بالآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة النبوية، وتطبيقها على الواقع، فعليك بلزوم ما دَلَّ عليه الكتاب والسنة، ودَعْ ما سوى ذلك؛ فإن فيه الهدى والرشد والنور[2].

---

(١) أي: فساد.

(٢) **فوائد من قصة ذي القرنين:**

ـ الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض، ورِزْقِه مَن يشاء بغير حساب مُلْكًا ومالًا؛ لما له من خَفِيِّ الحِكَم وباهر القدرة، فلا إله سواه. =

= - الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل، وأن على قَدْر بَذْل الجهد يكون الفوز والظفر، فإنَّ ما قصَّ عن ذي القرنين من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس ومطلعها وشمالها، وعدم فُتوره، ووجدانِه اللذةَ في مواصلة الأسفار، وتَجَشُّم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار، ثم إحرازه ذلك الفَخَار، الذي لا يُشَــقُّ له غبــار؛ أكبر عبرة لأولي الأبصار.
- اتِّباع السبب الذي يصل به ذو الرأي والإرادة إلى تحقيق ما هو كالمعجزات.
- أن مَن قَــدَرَ على أعدائه وتمكَّن منهم فلا ينبغي له أن تُســكِرَه لذة الســلطة بسَــوْقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غُصَص الاســتعباد والنكال، بل يُعامل المحسِن بإحسانه، والمسيء بقَدْر إساءته.
- بيان وجود أمم بدائية إلى عهد ما بعد ذي القرنين، لا يلبســون ثيابًا، ولا يســكنون ســوى الكهوف والمغارات، ويوجد في البلاد الكينية إلى الآن قبائل لا يرتدون الثياب، وإنما يضعون على فروجهم خيوطًا وسيورًا لا غير.
- تقرير أن هذا الملك الصالح قد ملك الأرض، فهو أحد أربعة حكموا الناس شرقًا وغربًا.
- أنَّ على الملك إذا اشــتُكِيَ إليه جَوْرُ مُجاوِرين أن يبذل وُسْــعَه في الراحة والأمن؛ دفاعًا عن الوطن العزيز، وصيانــةً للحرية والتَّمدن، من مخالب التوحُّش والخــراب، قيامًا بفريضة دَفْع المعتدين، وإمضاء العدل بين العالمين.
- مشروعية الجَعَالة للقيام بالمهام من الأعمال.
- أنَّ على الملك التَّعفُّف عن أموال رعيتــه، والزهد في أخْذ أجرة في مقابلة عمل يأتيه ما أغناه الله عنه، ففي ذلك حفظ كرامته، وزيادة الشغف بمحبته.
- التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام.
- فضيلة التبرع بالجهد الذاتي والعقلي.
- مشروعية التعاون على ما هو خير، أو فيه دفع للشر.
- مشــاطرة الملك العمال في الأعمال، ومشاركتهم بنفســه إذا اقتضى الحال؛ تنشيطًا لهِمَّتِهم، وحَفْزًا لهم، وترويحًا لقلوبهم.
- الاعتبــار بتخليد جميــل الثناء وجليل الآثار، عن طريق حُسْــن الســجايا، وجميــل المزايا، والشجاعة، والهمة، والعفو، والعطاء، والإحسان إلى الآخرين.
- الاهتمام بتوحيد الكلمة ووحدة الصف لمن يملك أممًا متباينةً.
- تقرير وجود أمة يأجوج ومأجوج، وأن خروجهم من أشراط الساعة.
- تقرير البعث والجزاء بعد الموت.



قصة لقمان

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٢ ـ ١٩].

يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته؛ فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام؛ فقد يكون الإنسـان عالِمًا، ولا يكون حكيمًا، وأما الحكمة فهي مستلزِمةٌ للعلم، بل وللعمل، ولهذا فُسّرت الحكمة بالعلم النافع، والعمل الصالح.

ولَمَّا أعطاه الله هذه المنَّة العظيمة أمره أن يشكره على ما أعطاه؛ ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أنَّ شكر الشاكرين يعودُ نَفْعُه عليهم، وأنَّ مَن كفر فلم يشــكُر الله عاد وَبالُ ذلك عليــه، والله غنيٌّ عنه حميــدٌ فيما يقدِّره ويقضيه على منْ خالَف أمره؛ فغِناه تعالى من لــوازم ذاته، وكونُه حميدًا في صفات كماله حميدًا في جميل صنعه من لوازم ذاته، وكلٌّ واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدِهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون؛ هل كان لقمانُ نبيًّا، أو عبدًا صالحًا؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمــة، وذكر بعض ما يدلُّ علــى حكمته في وَعْظِه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾، أو قال له قولًا به يَعِظُه، **والوعــظ**: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشــرك، وبَيَّن له الســبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾، ووجه كونه عظيمًا أنَّه لا أفظع ولا أبشع ممن سَــوَّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسَــوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمن له الأمر كلُّه، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالربِّ الكامل الغنيِّ من جميع الوجوه، وســوَّى من لم يُنْعِم بمثقال ذرَّةٍ من النِّعَم، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهــم وأخراهم، وقلوبهم وأبدانهم؛ إلا منه، ولا يصرف الســوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شــيء؟! وهل أعظم ظلمًا ممن خَلَقَه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أَخَسِّ المراتب، جعلها عابدةً لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا؟!

ولما أمر بالقيام بحقِّه بترك الشــرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد أمر بالقيام بحق الوالدَين، فقــال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾، أي: عَهِدْنا إليه، وجعلناه وصيةً عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفِظها أم لا ؟

فوصيناه ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾، وقلنا له: ﴿ٱشۡكُرۡ لِي﴾ بالقيام بعبوديَّتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنِعَمِي على معصيتي، ﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بمئونتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كلِّ وجه بالقول والفعل.

فوصَّيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أنَّ ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصَّاك، وكلَّفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل، أم ضيَّعْتها، فيعاقبك العقاب الوَبِيل[1].

ثم ذكر السبب الموجِب لبِرِّ الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٍ﴾، أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تُلاقي المشاقَّ من حين يكون نطفة؛ من الوَحم، والمرض، والضعف، والثِّقَل، وتغيُّر الحال، ثم وجع الولادة ذلك الوجع الشديد، ثم ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾، وهو ملازِمٌ لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسُنُ بِمَنْ تَحمَّل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب أن يؤكِّد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾، أي: اجتهد والداك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾، ولا تظنَّ أنَّ هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأنَّ حق الله مقدَّم على حقِّ كل أحدٍ، و«لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»[2]، ولم يقلْ: «وإنْ جاهداك على أن تُشْرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فعُقَّهما»، بل قال: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾، أي: في الشرك، وأمَّا بِرُّهما فاستمِرَّ عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾، أي: صحبة إحسانٍ إليهما بالمعروف، وأما اتِّباعُهما وهما بحالة الكفر والمعاصي فلا تتَّبِعْهما، ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وهم

---

(١) أي: الشديد.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩).

المؤمنون بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، المستسلمون لربهم، المُنِيبون إليه، واتِّباع سبيلهم، أن يسلُك مسلكهم في الإنابة إلى الله التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعُها سعي البدن فيما يُرضي الله، ويُقرِّبُ منه، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: الطائع والعاصي والمنيب وغيره، ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فلا يخفى على الله من أعمالهم خافيةٌ.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغرُ الأشياء وأحقرُها، ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾، أي: في وسطها، ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، في أي جهة من جهاتهما؛ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾؛ لسعة علمه، وتمام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أي: لطُف في علمه وخبرته حتى اطَّلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا الحثُّ على مراقبة الله، والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيبُ من عمل القبيح؛ قَلَّ أو كَثُرَ.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، حَثَّه عليها، وخصَّها لأنَّها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وذلك يستلزم العلم بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى عنه، والأمر بما لا يتمُّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به؛ من الرفق والصبر، وقد صرَّح به في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلًا لما يأمر به، كافًّا لما يُنْهَى عنه، فتضمَّن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك بأمره ونهيه.

ولما عُلِم أنَّه لا بدَّ أن يُبتلى إذا أمر ونهى، وأنَّ في الأمر والنهي مشقَّة على النفوس؛ أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يُعْزم عليها، ويهتمُّ بها، ولا يوفَّق لها إلا أهلُ العزائم.

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: لا تُمِلْهُ وتعبس بوجهك الناس تكبُّرًا عليهم وتعاظُمًا، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾، أي: بَطَرًا، فخرًا بالنعم، ناسيًا المُنعِم، معجبًا بنفسك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ في نفسه وهيئته وتعاظُمه، ﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ أي: امْشِ متواضعًا مستكينًا، لا مَشْيَ البَطَر والتكبُّر، ولا مشي التماوُت، ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ أدبًا مع الناس ومع الله، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ ﴾، أي: أفظعها وأبشعها، ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾، فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدةٌ ومصلحةٌ لَمَا اختصَّ بذلك الحمار الذي قد عُلِمَتْ خسَّته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصَّى بها لقمان ابنه تجمع أمَّهات الحِكَم، وتستلزم ما لم يُذكَر منها، وكلُّ وصية يُقرَن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمرًا، وإلى تركها إن كانت نهيًا، وهذا يدلُّ على ما ذكرنا في تفسير الحكمة أنها العلم بالأحكام، وحِكَمِها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له الموجِب لتركه، وأمره ببِرِّ الوالدين، وبَيَّن له السبب الموجِب لبرِّهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأنَّ محلَّ بِرِّهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمرَا بمعصية، ومع ذلك فلا يعقُّهما، بل يُحسن إليهما، وإن كان لا يطيعُهما إذا جاهداه على الشرك.

وأمره بمراقبة الله، وخَوَّفه القدوم عليه، وأنَّه لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً من الخير والشر إلا أتى بها، ونهاه عن التكبُّر، وأمره بالتواضُع، ونهاه عن البَطَر[1] والأشر[2] والمرح[3]، وأمره بالسُّكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضدِّ ذلك.

---

(١) البَطَر: الطغيان عند النعمة وطول الغنى.

(٢) الأَشَر: أشد درجات البَطَر والطغيان.

(٣) المَرَح: الكِبْر والفخر والخُيَلاء.

وأمره بالأمر بالمعـروف، والنهي عن المنكر، وإقامـة الصلاة وبالصبر اللَّذَيْن يسهل بهما كلُّ أمر، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

فحقيقٌ بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصًا بالحكمة، مشهورًا بها، ولهذا فإن مِن منَّة الله عليه وعلى سـائر عباده أن قصَّ عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوةٌ حسنةٌ[1].



---

(١) فوائد من قصة لقمان:

- أن الحكمة قد ينالها من ليس بنبي؛ لأنَّ لقمان ـ على قول الجمهور ـ ليس نبيًّا.
- بيان الحكمة، وهي شكر الله تعالى بطاعته وذِكْره؛ إذ لا يشكر إلا عاقل فقيه.
- أنَّ الشاكر ثوابه لنفسه.
- أنَّ الكافر لا يضر الله شيئًا.
- ملاطفة المخاطب باستدعاء قبوله لما يوجَّه إليه.
- مشروعية الوعظ والإرشاد للكبير والصغير، والقريب والبعيد.
- التهويل في شأن الشرك، وإنه لظُلْم عظيم.
- بيان مدة الرضاع، وهي في خلال العامين لا تزيد.
- وجوب بِرّ الوالدين وصِلَتهما.
- تقرير مبدأ (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) بعدم طاعة الوالدين في غير المعروف.
- أنَّ فسوق الوالدين وكفرهما لا يُسقِط حقَّهما من البر.
- وجوب اتباع سبيل المؤمنين من أهل السنة والجماعة، وحرمة اتِّباع سبيل أهل البدع والضلالة.
- أنَّ جميع الخلائق ـ مؤمنهم وكافرهم ـ مرجعهم إلى الله.
- وجوب مراقبة الله تعالى، وعدم الاستخفاف بالحسنة والسيئة مهما قَلَّت وصغرت.
- وجوب إقام الصـلاة، والأمر بالمعروف، والنهـي عن المنكر، والصبر علـى ما يلحق الآمر والناهي من أذى.
- أنه ينبغي للإنسان عند محادثة غيره أن يكون مُقبِلًا إليه بوجهه.
- حرمة التكبُّر والاختيال في المشي، ووجوب القصد في المشي والصوت، فلا يُسرع، ولا يرفع صوته إلا على قَدْر الحاجة.

قصة طالوت وجالوت

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٤٨].

يَقُصُّ تعالى على نبيه ﷺ قصة الملأ من بني إسرائيل، وهم الأشراف والرؤساء، وخَصَّ الملأ بالذِّكْر؛ لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا، فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام فقالوا له: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾، أي: عيِّن لنا ملكًا، ﴿نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ليجتمع متفرّقنا ويقاوم بنا عدوّنا، ولعلهم في ذلك

الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يُرضي الطرفين، ويكون تعيينه خاصًا لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تَسُوسُهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر[1]، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾، أي: لعلكم تطلبون شيئًا وهو إذا كُتِب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾، أي: أيُّ شيء يمنعنا من القتال وقد أُلْجِئْنَا إليه بأن أُخْرِجْنا من أوطاننا، وسُبِيَتْ ذراريُّنا، فهذا مُوجِب لكوننا نقاتل ولو لم يُكْتَب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لمَّا لم تكن نياتهم حسنة ولم يَقْوَ توكُّلُهم على ربهم، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾، فجَبُنوا عن قتال الأعداء، وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخَوَرُ والجُبْن، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، فعصمهم الله وثَبَّتَهم، وقَوَّى قلوبهم فالتزموا أمر الله، ووَطَّنُوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ مجيبًا لطلبهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، فكان هذا تعيينًا من الله الواجب عليهم فيه القبول والانقياد وتَرْك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾، أي: كيف يكون ملكًا، وهو دوننا في الشرف والنسب، ونحن أحق بالملك منه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزِم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدَّمة عليها، فلهذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾، فلزمكم الانقياد لذلك، ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾، أي: فَضّله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي والجسم اللَّذَيْن بهما تتم أمور الملك؛ لأنه إذا تم رأيه وقَوِي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرَين اختلَّ عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع؛ قوة على غير حكمة، ولو كان عالِمًا بالأمور وليس له قوة على تنفيذها لم يُفِدْه الرأي الذي لا يُنفذُه شيئًا، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبرِّه العام أحدًا عن أحد، ولا شريفًا عن وضيع، ولكنه مع ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة؛ لتبيينه أن أسباب الملك متوفِّرة فيه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، ليس له رادٌّ، ولا لإحسانه صادٌّ.

ثم ذكر لهم نبيُّهم أيضًا آية حسية يشاهدونها، وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زمانًا طويلًا، وفي ذلك التابوت سكينة تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرهم، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانًا.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ

فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥٢].

أي: لَمَّا تملَّك طالوت ببني إسرائيل واستقر له الملك تجهَّزوا لقتال عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل وكانوا عددًا كثيرًا وجَمًّا غفيرًا، امتحنهم بأمر الله ليتبيَّن الثابت المطمئن ممن ليس كذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ فهو عاصٍ، ولا يتبعنا؛ لعدم صبره وثباته، ولمعصيته، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾، أي: لم يشرب منه فإنه مني، ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء قد قلَّ عليهم ليتحقَّق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر الشرب المنهيَّ عنه، ورجعوا على أعقابهم، ونكصوا عن قتال عدوِّهم، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتطاول وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي العسكر ما يزداد به الثابتون توكلًا على الله، وتضرعًا واستكانةً وتبرؤًا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر؛ لقلَّتهم وكثرة عدوهم، فلهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾، أي: النهر، ﴿هُوَ﴾، أي: طالوت، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾، وهم الذين أطاعوا أمر الله ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه، فرأوا قِلَّتَهم وكثرة أعدائهم، ﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال كثير منهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾؛ لكثرتهم وعَدَدِهم وعُدَدِهم، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾، أي:

يستيقنون ذلك، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مُثبِّتين لباقيهم ومطمئنين لخواطرهم، وآمرين لهم بالصبر، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أي: بإرادته ومشيئته، فالأمر لله تعالى، والعزيز مَن أَعَزَّه الله، والذليل من أَذَلَّه الله، فلا تُغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضرُّ القلة مع نصره، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثَّرت معهم.

ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قَالُوا﴾ جميعهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، أي: قَوِّ قلوبنا، وأَوْزِعْنا[1] الصبر، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عن التزلزل والفرار، ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارًا، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء؛ لإتيانهم بالأسباب الموجِبة لذلك، ونصرهم عليهم، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ﴾ عليه السلام، وكان مع جنود طالوت، ﴿جَالُوتَ﴾، أي: باشَرَ قَتْلَ ملك الكفار بيده؛ لشجاعته وقوته وصبره، ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ﴾، أي: آتى الله داود ﴿الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾، أي: منَّ عليه بتملُّكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان مَن قَبْلَه من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كَيْدَ

---

(١) أي: أَلهِمْنا.

الفُجَّار وتكالُب الكفار لفســدت الأرض باســتيلاء الكفار عليها، وإقامتهم شعائر الكفر، ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، حيث شــرع لهم الجهــاد الذي فيه ســعادتهم والمدافعة عنهم، ومَكَّنَهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها.

ثم قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: بالصدق الذي لا رَيْبَ فيــه، المتضمِّن للاعتبار والاســتبصار وبيــان حقائق الأمور، ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، فهذه شهادة من الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قَصَّهُ الله عليه من أخبار الأمم السالفين والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم، بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدلَّ أنه رســول الله حقًّا ونَبِيُّه صدقًا الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.



فوائد من هذه القصة

وفي هذه القصة من الآيات والعِبَر ما يتذكَّر به أولو الألباب:

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحِفْظ الأبدان والأموال، وأنَّ المجاهدين ولو شَقَّت عليهم الأمور فإن عواقبهم حميدة، كما أن الناكلين ولو استراحوا قليلًا فإنهم سيتعبون طويلًا.

ومنها: الانتداب لرياسة مَن فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرَين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء؛ أنه ينبغي لأمير الجيوش أن يتفقَّدها عند فصولها؛ فيمنع مَن لا يصلح للقتال من رجال وخيل وركاب؛ لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيله، أو خوف الضرر بصحبته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس تقوية المجاهدين وتشجيعهم، وحَثُّهم على القوة الإيمانية، والاتِّكال الكامل على الله والاعتماد عليه، وسؤال الله التثبيت والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان ولكن عند حضوره تنحلُّ عزيمته، ولهذا من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»[1]، فهؤلاء الذين عزموا على القتال وأَتَوْا بكلام يدل على العزم المصمّم لمّا جاء الوقتُ نكص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ:

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٠٧)، وابن حبان (٩٣٥).

«وأسـألك الرضا بعد القضـاء»[1]؛ لأن الرضـا بعد وقوع القضـاء المكروه للنفوس هو الرضا الحقيقي.

ومنها: أن اجتماع أهل الكلمـة والحل والعقد، وبحثهم في الطريق الذي تسـتقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل بـه؛ أكبر سـبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملأ حين راجَعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم، ويَلُمُّ متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم.

ومنها: أن الحق كلما عُورِض وأُوردت عليه الشُّـبَه ازداد وضوحًا، وتميَّز وحصل به اليقين التام، كما جرى لهؤلاء؛ لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أُجِيبوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشُّبَه والريب.

ومنها: أن العلم والرأي مع القوة المُنفِذة بهما كمال الولايات، وبفقدهما أو فَقْد أحدهما نقصانها وضررها.

ومنها: أن الاتكال على النفس سـبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله، والصبر والالتجاء إليه سـبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾، فكأنه نتيجة ذلك أنه لما كتـب عليهم القتـال تَوَلَّـوْا، والثاني في قولـه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: أن مِن حكمة الله تعالى تمييز الخبيـث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لـم يكن ليذر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١٩٢٩).

ومنها: أن من رحمته وسـننه الجارية أن يدفع ضرر الكفـار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها[(١)].

---

(١) **ومن فوائد قصة طالوت وجالوت:**

- الحَثُّ على النظر والاعتبار.
- أنَّ في هذه القصـة عِبرًا لهذه الأمة، حيث إن هؤلاء القوم الذين كُتِـب عليهم القتال تَوَلَّوْا إلا قليلًا منهم، ففيها تحذير هذه الأمة من التولِّي عن القتال إذا كُتِب عليهم.
- أنه لا بد للجيوش من قائد يتولى قيادتها؛ لقولهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.
- أنَّ مرتبة النبوة أعلى من مرتبة المُلك؛ لقولهـم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ يخاطبون النبي، فالنبي إذن له السلطة أن يبعث لهم ملكًا يتولى أمورهم ويُدَبِّرهم.
- ذِكْر ما يشجِّع على إجابة الطلب فيما إذا طَلب الإنسان شيئًا من غيره أن يذكر ما يشجِّعه على إجابة الطلب؛ لقولهم: ﴿نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإن هذا يبعث النبي، ويُشَجِّعه على أن يبعث لهم الـمَلِك.
- الإشارة إلى الإخلاص في قولهم: ﴿نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.
- أن الإنسان بفطرته يكون مستعدًّا لقتال مَن قاتله؛ لقولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، ولهذا تجد الجَبَان إذا حُصِر يأتي بما عنده من الشجاعة، يستنفد كل شيء حتى وإن كان أجبن من النعامة، فإنه عندما يُحصَر يكون عنده قوة للمدافعة.
- أن من أسباب القتال إخراج الإنسان من نفسه وأهله.
- أن كثيرًا من الناس يَنْذِرُون النُّذْر وهم يظنون أنهم يُوَفُّون به، ثم لا يُوَفُّون به.
- تحريم الظلم، وتحذير الظالم منه.
- سعة علم الله سبحانه وتعالى.
- أن الـمُلك تتوطَّد أركانه إذا كان للإنسان مزية في حسبه أو نسبه، أو علمه أو قوته.
- أنه كلما كان الولي ذا بسطة في العلم وتدبير الأمور، والجسـم وقوته؛ كان أَقْوَمَ لملكه وأتم لإمرته.
- أن للسـكينة تأثيرًا على القلوب، فإذا نزلت في القلب اطمأن الإنسـان، وهدأ بالُه، وانشـرح صدره.
- أن الآيات إنما ينتفع بها المؤمن.
- أن أكثر عباد الله لا يُنفِّذ أمر الله، فالطائع قليل، والمعاند كثير.
- جواز إخبار الإنسان بالواقع إذا لم يقصد، أو إذا لم يترتَّب عليه مفسدة.

=
- أن الله ﷻ عند الابتلاء يرحم الخلق بما يكون فيه بقاء حياتهم.
- أن القليل من الناس هم الذي يصبرون عند البلوى.
- أنه ينبغي للإنسان إذا ذَكَر الشيء أن يقيّده بإذن الله، أو بمشيئة الله، أو ما أشبه ذلك.
- أن الْتِجَاءَ الإنسان إلى الله سببٌ لنجاحه، وأن اعتماده على نفسه واعتداده بها سببٌ لخذلانه.
- أن داود عليه الصلاة والسلام من أنبياء بني إسرائيل.
- شجاعة داود عليه الصلاة والسلام حيث قَتَلَ جالوت حين برز له، والشجاعة عند المبارزة لها أهمية عظيمة؛ لأنه إذا قُتِل المبارزِ أمام جنده لا شك أنه سيجعل في قلوبهم الوَهن والرعب.
- أن داود عليه الصلاة والسلام أُوتِي الملك والنبوة.
- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس عندهم من العلم إلا ما علّمهم الله.



قصة أصحاب الكهف

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۞ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۞ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۞ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٢].

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾، وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي، أي: لا تظنَّ أنَّ قصَّة أصحاب الكهف وما جرى لهم غريبةٌ على آيات الله، وبديعةٌ في حكمته، وأنَّه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثيرٌ، مِن جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يَزَل الله يُرِي عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبيَّن به الحقُّ من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي أن تكون قصَّة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنَّما المراد أن جنسها كثيرٌ جدًّا؛ فالوقوف معها وحدها في مقام العجب والاستغراب نقصٌ في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكُّر بجميع آيات الله، التي دعا الله العبادَ إلى التفكُّر فيها؛ فإنَّها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان، وأضافهم إلى الكهف الذي هو الغار

في الجبل، ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾، أي: الكتاب الذي قد رُقِمتْ[1] فيه أسماؤهم وقصَّتُهم؛ لملازمتهم له دهرًا طويلًا.

ثم ذكر قصَّتهم مجملةً، وفصَّلها بعد ذلك، فقال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾، أي: الشباب، ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصُّن والتحرُّز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، أي: تُثبِّتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفِّقنا للخير، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أي: يَسِّر لنا كلَّ سببٍ مُوصِل إلى الرشد، وأَصْلِحْ لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محلٍّ يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرُّعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتِّكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيَّض لهم ما لم يكن في حسابهم؛ قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾، أي: أَنَمْنَاهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾، وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظٌ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظٌ لهم من قومهم، وليكون آية بينة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾، أي: من نومهم، ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾، أي: لنعلم أيُّهم أحصى لمقدار مدَّتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لُبْثِهم ضبطٌ للحساب، ومعرفةٌ لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته؛ فلو استمرُّوا على نومهم لم يحصُل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٤].

---

(١) أي: كُتِبَتْ.

هذا شروعٌ في تفصيل قصَّتهم، وأنَّ الله يقصُّها على نبيِّه بالحقِّ والصدق، الذي ما فيه شكٌّ ولا شبهةٌ بوجه من الوجوه، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾، وهذا من جموع القلَّة، يدلُّ ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر اللهُ لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: صبَّرناهم وثبَّتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنَّة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبرِّه أن وفَّقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة، ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: الذي خلقنا ورزقنا، ودبَّرنا وربَّانا هو خالق السماوات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملِك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فاستدلوا بتوحيد الربوبيَّة على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾، أي: من سائر المخلوقات، ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا﴾، أي: إنَّ دعاءنا معه آلهةً بعدما علمنا أنَّه الربُّ الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شَطَطًا﴾، أي: ميلًا عظيمًا عن الحق، وطريقًا بعيدةً عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبيَّة، وتوحيد الإلهيَّة، والتزام ذلك، وبيان أنَّه الحقُّ، وما سواه باطلٌ، وهذا دليلٌ على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، لما ذكروا ما مَنَّ الله به عليهم من الإيمان والهدى التفتوا إلى ما كان عليه قومهم؛ من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبيَّنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل في غاية الجهل

والضلال، فقالــوا: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾، أي: بحجَّة وبرهان على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلًا إلى ذلك، وإنَّما ذلك افتراءٌ منهم على الله وكذبٌ عليه، وهذا أعظم الظُّلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾، أي: قال بعضهــم لبعض: إذ حصل لكم اعتزالُ قومكم في أجسامكم وأديانكم فلم يَبْقَ إلا النجاء من شرِّهم، والتسبُّب بالأســباب الـمُفْضِية لذلك؛ لأنَّه لا ســبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقائهم بين أظهرهم وهم على غير دينهــم، ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، أي: انضمُّوا إليه واختفوا فيــه، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ وفيما تقدَّم أخبر أنهم دَعَوْه بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، فجمعوا بين التبرِّي من حَوْلهم وقوَّتهــم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه ســيفعل ذلك، لا جرم أنَّ الله نشر لهم من رحمته، وهيَّأ لهم من أمرهم مِرْفقًا، فحفظ أديانهــم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خَلْقه، ونشــر لهم من الثناء الحســن ما هو من رحمته بهم، ويسَّــر لهم كلَّ سبب، حتى المحلَّ الذي ناموا فيه كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، أي: حفظهم الله من الشمس، فيسَّر لهم غارًا إذا طلعت الشــمس تميل عنه يمينًا، وعند غروبها تميل عنه شــمالًا، فلا ينالهم حرُّها فتفسد أبدانهم بها، ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾، أي: من الكهف، أي: مكان متَّسِع، وذلك ليطرُقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوَخَم والتأذِّي بالمكان الضيِّق، خصوصًا مع طول الـمُكث، و﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّة على قدرته

ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾، أي: لا سبيل إلى نَيْل الهداية إلا من الله؛ فهو الهادي المرشد لمصالح الدارَين، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، أي: لا تجد مَن يتولَّاه ويدبِّره على ما فيه صلاحه، ولا يرشِدُه إلى الخير والفلاح؛ لأنَّ الله قد حكم عليه بالضَّلال، ولا رادَّ لحكمه.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨].

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾، أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنَّهم أيقاظٌ، والحالُ أنَّهم نيامٌ، قال المفسرون: وذلك لأنَّ أعينهم منفتحةٌ لئلَّا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظًا وهم رقودٌ، ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، وهذا أيضًا من حفظه لأبدانهم؛ لأنَّ الأرض من طبيعتها أَكْلُ الأجسام المتَّصلة بها، فكان من قَدَر الله، أنْ قلَّبهم على جنوبهم يمينًا وشمالًا بقدر ما لا تُفْسِد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادرٌ على حفظهم من الأرض من غير تقليبٍ، ولكنَّه تعالى حكيمٌ، أراد أن تجرِي سنَّته في الكون، ويربط الأسباب بمسبَّباتها، ﴿وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾، أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطًا ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فِنائه، هذا حفظهم من الأرض، وأما حفظهم من الآدميين فأخبر أنَّه حماهم بالرُّعب الذي نشره الله عليهم، فلو اطَّلع عليهم أحدٌ لامتلأ قلبه رعبًا، وولَّى منهم فرارًا، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدَّة الطويلة وهم لم يَعْثُر عليهم أحدٌ، مع قُربهم من المدينة جِدًّا، والدليل على قربهم أنَّهم لما استيقظوا أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعامًا من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدلَّ ذلك على شدَّة قربهم منها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۞ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ١٩ ـ ٢٠].

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾، أي: من نومهم الطويل، ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ﴾، أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدَّة لُبْثهم، ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾، وهذا مبنيٌّ على ظنِّ القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباهٌ في طول مدَّتهم؛ فلهذا ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾، فردُّوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيءٍ جملةً وتفصيلًا، ولعلَّ الله تعالى بعد ذلك أطلعهم على مدَّة لُبْثهم؛ لأنَّه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنَّهم تساءلوا، وتكلَّموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بدَّ أن يكون قد أخبرهم يقينًا؛ عَلِمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثًا، ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب عِلْمُها، وسعى لذلك ما أمكنه؛ فإنَّ الله يوضِّح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾، فلولا أنَّه حصل العلم بحالهم لم يكونوا دليلًا على ما ذكر، ثم إنَّهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به؛ أرسلوا أحدهم بوَرِقِهم، أي: بالدراهم التي كانت معهم؛ ليشتري لهم طعامًا يأكلونه من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخيَّر من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألـذَّه، وأن يتلطَّف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويُخفي حال إخوانه، ولا يُشْعِرنَّ بهم أحدًا.

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾، وذكروا المحذور من اطِّلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم؛ أنَّهم

بين أمرَين: إما الرَّجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قِتْلَة؛ لحنقهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوهم عــن دينهم، ويردُّوهم في ملَّتهــم، وفي هذه الحال لا يُفلحون أبدًا، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأُخراهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

يخبر الله تعالــى أنَّه أَطْلَعَ النــاس على حال أهل الكهــف، وذلك ـ والله أعلم ـ بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرًا فيه صلاحٌ للناس، وزيادةُ أجرٍ لهم، وهو أنَّ الناس رأوا منهم آيةً من آيات الله المشــاهَدة بالعيان على أنَّ وعد الله حقٌّ لا شكَّ فيه ولا مِرْية ولا بُعْد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمِن مُثْبِتٍ للوعد والجزاء، ومن نافٍ لذلك، فجعــل قصَّتهم زيادة بصيرةٍ ويقيــنٍ للمؤمنين، وحجَّةً على الجاحدين، وصار لهم أجرُ هذه القضيَّة، وشهَّر الله أَمْرَهم، ورفع قَدْرَهم حتى عظَّمهم الذين اطَّلعــوا عليهــم، قالــوا: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم! وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، أي: نعبد الله تعالى فيه، ونتذكَّــر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورةٌ، نهى عنها النبيُّ ﷺ، وذمَّ فاعليهــا، ولا يدلُّ ذكرها هنا على عدم ذمِّها؛ فإنَّ السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأنَّ هؤلاء وصلت بهم الحالُ إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدًا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحَذَرِهم من الاطِّلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدَّة أصحاب الكهف اختلافًا صادرًا عن رَجْمِهِم بالغيب، وتقوُّلهم بما لا يعلمون، وأنَّهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم من يقولُ: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، ومنهم من يقول: ﴿خَمۡسَةٌ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، وهذان القــولان ذكر الله بعدهما أنَّ هذا رجمٌ منهــم بالغيب، فدلَّ على بطلانهما، ومنهــم من يقــول: ﴿سَبۡعَةٌ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾، وهــذا ـ والله أعلم ـ الصوابُ؛ لأنَّ الله أبطل الأوَّلَيْن ولم يبطِلْه، فدلَّ على صحَّته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحةٌ للناس دينيَّة ولا دنيويَّة، ولهذا قال تعالــى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وهــم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم، ﴿فَلَا تُمَارِ﴾، أي: تجادل وتُحاج ﴿فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾، أي: مبنيًّا على العلم واليقين، ويكــون أيضًا فيه فائدةٌ، وأما المماراة المبنيَّة على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها، إمــا أنْ يكون الخصمُ معاندًا، أو تكون المســألة لا أهميَّة فيها، ولا تحصُلُ فائدةٌ دينيَّةٌ بمعرفتها؛ كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك؛ فإنَّ في كثرة المناقشات فيها، والبحوث المتسلسلة تضييعًا للزَّمان، وتأثيرًا في مودَّة القلوب بغير فائدة، ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم﴾، أي: في شــأن أهل الكهــف ﴿مِّنۡهُمۡ﴾، أي: من أهل الكتــاب، ﴿أَحَدًا﴾، وذلــك لأنَّ مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظنِّ الذي لا يُغني من الحقِّ شيئًا؛ **ففيها** دليلٌ على المنع من استفتاء من لا يصْلُحُ للفتوى؛ إما لقصوره في الأمر المستفتَى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلَّم به، وليس عنده ورعٌ يحجزه، وإذا نُهِي عن اســتفتاء هذا الجنس فنهيُهُ هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضًا دليلٌ على أن الشخص قد يكون منهيًّا عن استفتائه في شيء دون آخر، فيُستفتَى فيما هو أهلٌ له بخلاف غيره؛ لأنَّ الله لم يَنْهَ عن استفتائهم مطلقًا، إنَّما نهى عن استفتائهم في قصَّة أصحاب الكهف، وما أشبهها.

* * *

فوائد من هذه القصة

ففيها آيات بينات، وفوائد متعددة:

ففي هذه القصة: دليلٌ على أنَّ مَن فرَّ بدينه من الفتن سلَّمه الله منها، وأنَّ من حرص على العافية عافاه الله، ومن أوى إلى الله آواه الله، وجعله هدايةً لغيره، ومن تحمَّل الذُّلَّ في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

ومنها: أن قصة أصحاب الكهف وإن كانت عجيبة فليست من أعجب آيات الله، فإن لله آيات عجيبة، وقصصًا فيها عبرة للمعتبِرين.

ومنها: أن مَن أوى إلى الله أواه الله، ولطف به، وجعله سببًا لهداية الضالين؛ فإن الله لطف بهم في هذه القَومة الطويلة؛ إبقاءً على إيمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم، وجعل هذه النَّوْمة من آياته التي يستدل بها على كمال قدرة الله، وتنوع إحسانه، وليعلم العباد أن وعد الله حق.

ومنها: الحثُّ على تحصيل العلوم النافعة والمباحثة فيها؛ لأن الله بعثهم لأجل ذلك، وببحثهم ثم بعلم الناس بحالهم حصل البرهان والعلم بأن وَعْدَ الله حقٌّ، وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها.

ومنها: الأدبُ فيمن اشتبه عليه العلم أن يَرُدَّه إلى عالمه، وأن يقف عند ما يعرف.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك؛ لقولهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

ومنها: جواز أكل الطيبات، والتخيُّر من الأطعمة ما يلائم الإنسان ويوافقه، إذا لم تخرج إلى حدِّ الإسـراف المنهي عنه؛ لقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

ومنها: الحثُّ والتحرُّز والاسـتخفاء، والبُعْد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان الذي يدرأ عن الإنسان الشر، وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: بيان رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة في دينهم، وتَرْكِهم لأوطانهم وعوائدهم في الله.

ومنها: ذِكْرُ ما اشـتمل عليه الشر من المضارّ والمفاسـد الداعية لبُغْضه وتَرْكه، وأن هذه الطريقة طريقة المؤمنين.

ومنها: أن قولـه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] فيه دليلٌ على أن هؤلاء القوم الذيـن بُعِثُوا في زمانهم أناس أهل تديُّن؛ لأنهـم عظَّموهم هذا التعظيم حتـى عزموا على اتخاذ مسـجد على كهفهم، وهذا إن كان ممنوعًا ـ وخصوصًا في شـريعتنا ـ فالمقصود بيان أن ذلك الخوف العظيم من أهل الكهف وقت إيمانهم ودخولهم في الغار أبدلهم الله به بعد ذلك أمنًا وتعظيمًا من الخلق، وهذه عوائد الله فيمن تحمَّل المشاقّ من أجله أن يجعل له العاقبة الحميدة.

ومنها: أن كثرة البحث وطوله في المسـائل التـي لا أهمّية لها لا ينبغي الانهماك به؛ لقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢].

ومنها: أن سـؤال مَن لا علم له في القضية المسؤول فيها، أو لا يُوثق به منهي عنه؛ لقوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢][1].

---

(١) **ومن فوائد قصة أصحاب الكهف:**

ـ تقرير التوحيد ضِمْنَ قصة أصحاب الكهف؛ إذ فرُّوا بدينهم خوفًا من الشِّرْك والكفر.

= - استجابة الله دعاءَ عبادِه المؤمنين الموحِّدين، حيث استجاب للفتية، فآواهم في الغار، ورعاهم حتى بعثهم بعد تغيُّر الأحوال وتبدُّل العباد والبلاد.
- أن الحكمة من الضرب على آذانهم حتى لا يسمعوا مَن حولهم، وهذا يدل على أن نومهم كان عميقًا.
- أن الله سَمَّى الاستيقاظ من النوم بعثًا؛ لأن النوم وفاة.
- أثر علم الحساب والتاريخ في الاعتبار والاتِّعاظ.
- تقرير زيادة الإيمان ونقصانه.
- فضيلة الجرأة في الحق والتصريح به، ولو أدَّى إلى القتل، أو الضرب، أو السجن.
- تقرير التوحيد، وأنه لا إله إلا الله على لسان أصحاب الكهف.
- بطلان عبادة غير الله؛ لعدم وجود دليل عقلي أو نقلي عليها.
- الشرك ظلم وكذب، والمشرك ظالم مُفْتَرٍ كذَّاب.
- مشروعية العزلة، والفرار من الظَّلَمة، وسُكنى الغِيرَان والجبال عند فساد الزمان.
- تقرير فَرْض الهجرة في سبيل الله.
- فضيلة الالتجاء إلى الله تعالى، وطلب حمايته لعبده، وكفاية الله مَن لجأ إليه في صِدْقٍ.
- بيان لطف الله تعالى بأوليائه بإكرامهم في هجرتهم إليه.
- تقرير أن الهداية بيد الله، فالمهتدي مَن هداه الله، والضالُّ من أضلَّه الله، ولازِمُ ذلك طلبُ الهداية من الله، والتعوُّذ به من الضلال؛ لأنه مالك ذلك.
- أن فِعْلَ النائم لا يُنسَب إليه، فالله أضاف تقلُّبهم إليه، والحكمة في تقليبهم من أجل توازُن الدم في الجسد.
- شدة خوف مَن يراهم؛ لأن الله يُنزِل الرهبة في قلبه حتى لا يحاول أحد أن يدنو منهم.
- جواز اتخاذ الكلب للحراسة.
- ذُكِر هذا الكلب لَمَّا صَحِب أهل الخير، وفيه دليل على أن مَن صحب أهل الخير اكتسب خيرًا، وهذا كلب معلوم أنه نجس العين، ومع ذلك ذكره الله وأضافه إليهم إضافةً تقتضي فضلًا وشرفًا.
- بيانُ عجيبِ تدبيرِ الله تعالى وتصرُّفه في مخلوقاته، فسبحانه من إله عظيم عليم حكيم.
- وجوب طلب الحلال في الطعام والشراب وغيرهما.
- جواز خَلْط دراهم الجماعة، والشراء والأكل من الطعام الذي بينهم بالسوية، وإن تفاوَتُوا في الأكل.
- أخْذ الحذر من الأعداء بكل وسيلة، إلا الوسائل المحرَّمة؛ فإنها محرَّمة.

= - الموت على الشرك والكفر مانع من الفَلَاح يوم القيامة أبدًا.
- تقرير معتقَد البعث والجزاء الذي ينكره أهل مكة.
- بيان اختلاف أهل الكتاب، وعدم ضَبْطهم للأحداث التاريخية.
- بيان عدد فتية أصحاب الكهف، وأنهم سبعة، وثامنهم كلبهم.
- لا ينبغي للإنسان أن يستفتي مَن ليس أهلًا للإفتاء، حتى وإن زعم أن عنده علمًا، فلا تستفتِه إذا لم يكن أهلًا.
- من الأدب مع الله تعالى أن لا يقول العبد: سأفعل كذا مستقبلًا، إلا قال بعدها: إن شاء الله.
- من الأدب أن مَن نَسِيَ الاستثناء أن يستثني ولو بعد حين، فإن حلف لا ينفعه الاستثناء إلا إذا كان متصلًا بكلامه.
- استحباب تقديم المشيئة في كل شيء.
- تقرير المدة التي لبثها الفتية في كهفهم، وهي ثلاثمائة وتسع سنين بالحساب القمري.
- من ادَّعى علم الغيب فهو كافر.



قصة مؤمن آل فرعون

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۞ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۞ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۞ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۞ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۞ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۞ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۞ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۞ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۞

مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۞ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۞ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۞ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۞ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٤٦].

ومن جملة الأسباب[١] هذا الرجل المؤمن الذي من آل فرعون من بيت المملكة، لا بدَّ أن يكون له كلمةٌ مسموعةٌ، وخصوصًا إذا كان يُظهِرُ موافقتهم ويكتم إيمانه؛ فإنهم يراعونه في الغالب ما لا يراعونه لو خالَفهم في الظاهر؛ كما منع الله رسوله محمدًا ﷺ بعمه أبي طالب من قريش؛ حيث كان أبو طالب كبيرًا عندهم، موافِقًا لهم على دينهم، ولو كان مسلمًا لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفَّق العاقل الحازم مقبِّحًا فِعْلَ قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، أي: كيف تستحلُّون قتله وهذا ذنبه وجُرْمه أنَّه يقول ربي الله؟! ولم يكن أيضًا قولًا مجرَّدًا عن البينات، ولهذا قال: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾؛ لأنَّ بيِّنته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يُوجب قتله، فهلَّا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يردُّه، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحلُّ قَتْلُه إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟! فأما وقد ظهرت حجَّته واستعلى برهانه فبينكم وبين حِلِّ قتله مَفاوزُ تنقطع بها أعناق الـمَطِيِّ.

(١) أي: الأسباب التي اندفع بها عن موسى شرُّ فرعون ومَلَئِه.

ثم قال لهم مقالةً عقليةً تُقنِع كلَّ عاقل بأيِّ حالة قُدِّرت، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾، أي: موسى بين أمرَين؛ إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه، وضرره مختصٌّ به، وليس عليكم في ذلك ضررٌ؛ حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنَّكم إنْ لم تجيبوه عذَّبكم الله عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة؛ فإنَّه لا بدَّ أن يصيبكم بعضُ الذي يعِدُكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حُسْن عقله، ولطف دَفْعه عن موسى؛ حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائرًا بين تلك الحالتَين، وعلى كلِّ تقدير فقَتْلُه سَفَهٌ وجهلٌ منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه، وغفر له ورحمه، إلى أمرٍ أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾، أي: متجاوز الحد بتَرْك الحق والإقبال على الباطل، ﴿كَذَّابٞ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب؛ لا في مدلوله، ولا في دليله، ولا يوفَّق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقليَّة والخوارق السماويَّة؛ فالذي اهتدى هذا الهُدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا، وهذا دليلٌ على كمال علمه وعقله ومعرفته بِرَبِّه.

ثم حذَّر قومه ونصحهم، وخوَّفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: في الدنيا ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على رعيَّتكم، تنفِّذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهَبْكم حصل لكم ذلك وتمَّ، ولن يتمَّ؛ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾، أي: عذابه، ﴿إِن جَآءَنَا﴾، وهذا من حُسْن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم بقوله:

﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾، وقولـه: ﴿إِن جَآءَنَا﴾؛ لِيُفهمهم أنَّه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

فقال ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ معارضًا له في ذلك، ومُغَرِّرًا لقومه أن يتَّبعوا موسى: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، وصدق في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، ولكن ما الذي رأى؟! رأى أن يستخفَّ قومه فيتابعوه؛ ليُقيم بهم رياسته، ولم يرَ الحقَّ معه، بل رأى الحقَّ مع موسى، وجحد به مستيقنًا له، وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، فإنَّ هذا قلبٌ للحقِّ؛ فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله لكان الشرُّ أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أنَّ في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ مكرِّرًا دعوة قومه، غير آيسٍ من هدايتهم؛ كما هي حالة الدُّعاة إلى الله تعالى؛ لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يردُّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يثنيهم عُتُوُّ من دَعَوْه عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، يعني: الأمم المكذِّبين الذين تحزَّبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بيَّنَهم، فقال: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾، أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، فيعذِّبُهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوَّفهم العقوبات الدنيوية خوَّفهم العقوبات الأخروية، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾، أي: يوم القيامة، حين ينادي أهلُ الجنة أهل النار: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ إلى آخر الآيات، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾،

وحين ينادي أهلُ النار مالكًا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، فيجيبهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، وحين يقال للمشركين: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾.

فخوَّفهم رضي الله عنه هـذا اليوم المهـول، وتوجَّع لهم أنْ أقاموا على شـركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾، أي: قد ذهب بكم إلى النار، ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوَّة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحدٍ، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأن الهدى بيـد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به لخبثه فلا سبيل إلى هدايته.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بـن يعقـوب عليه السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ إتيان موسـى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ في حياته، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شكُّكم وشرككم، و﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾، أي: هذا ظنُّكم الباطل وحسـبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنَّه تعالى لا يترك خلقه سُدًى، لا يأمرهم وينهاهم، بل يرسل إليهم رسله، وظنُّ أنَّ الله لا يرسل رسـولًا ظنٌّ ضلال، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، وهذا هو وصفهم الحقيقيُّ الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعُلُوًّا، فهم المسرفون بتجاوُزهم الحقَّ وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة حيث نسـبوا ذلك إلى الله، وكذَّبوا رسوله؛ فالذي وَصْفُه السـرف والكذب لا ينفكُّ عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفِّقه للخير؛ لأنه ردَّ الحقَّ بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثم ذكر وصف المسـرف الكذاب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي بيَّنت الحقَّ من الباطل، وصارت من ظهورها بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها؛ ليدفعوهـا ويُبطلوهـا ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾، أي: بغير حجَّة وبرهان، وهذا وصفٌ لازمٌ لكلِّ مَن جادل في آيات الله؛ فإنَّه من المحال أن يجادل بسـلطان؛ لأن الحقَّ لا يعارضه معارضٌ؛ فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلًا، ﴿كَبُرَ﴾ ذلك القـول المتضمِّن لردِّ الحقِّ بالباطل ﴿مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالله أشـد بُغْضًـا لصاحبه؛ لأنَّـه تضمَّـن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمورٌ يشتدُّ بُغْض الله لها ولمن اتَّصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشـدَّ المقت موافقـةً لربهم، وهؤلاء خواصُّ خَلْق الله تعالى؛ فمقتُهم دليلٌ على شناعة مَن مقتوه، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: كما طبع على قلوب آل فرعـون، ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ متكبِّر في نفسه على الحق بردِّه، وعلى الخلق باحتقارهم، جبارٍ بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ معارضًا لموسـى ومكذِّبًا له في دعوته إلـى الإقرار بربِّ العالمين، الذي على العرش اسـتوى، وعلى الخلـق اعتلى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾، أي: بناءً عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه: لَعَلِّي أَطَّلِعُ ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ في دعواه أن لنا ربًّا، وأنه فوق السـماوات، ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، فزُيِّن له العمل السيئ، فلم يَزَل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسِّنه، حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظَر مناظرة الـمُحِقِّين وهو من أعظم المفسدين، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الحق بسبب الباطل الذي زُيِّن لـه، ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويُوهِم به الناس أنه محقٌّ، وأن موسـى مبطلٌ، ﴿إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾، أي: خَسـارٍ وبَوارٍ، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ ﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، لا كما يقول لكم فرعون؛ فإنَّه لا يهديكم إلا طريق الغيِّ والفساد.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ﴾ يُتمتَّع بها ويُتنعَّم قليلًا، ثم تنقطع وتضمحلُّ؛ فلا تغرَّنَّكم وتخدعنَّكم عما خُلقتم له، ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ التي هي محلُّ الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملًا يسعِدُكم فيها.

﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ من شِرْك أو فسوق أو عصيان، ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، أي: لا يجازَى إلا بما يسوؤه ويحزنه؛ لأن جزاء السيئة السوء، ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾، أي: يُعْطَوْن أجرهم بلا حدٍّ ولا عَدٍّ، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ ﴾ بما قلت لكم، ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ بترْك اتِّباع نبيِّ الله موسى عليه السلام، ثم فسَّر ذلك فقال: ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أنَّه يستحق أن يُعْبَد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذُّنوب وأقبحها، ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلُّها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء، ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه، ثم إذا تابوا وأنابوا إليه كفَّر عنهم السيئاتِ والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيويَّة والأخرويَّة.

﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقًّا يقينًا، ﴿ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، أي: لا يستحقُّ من الدعوة إليه، والحثّ على اللجأ إليه في الدنيا ولا في الآخرة؛ لعجزه ونقصه، وأنَّه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا

حياةً ولا نشورًا، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى فسيجازي كلَّ عامل بعمله، ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرُّؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذَّرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبَّة عدم قبولها حين يحلُّ بكم العقاب، وتُحْرَمون جزيل الثواب، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: ألجأ إليه وأعتصمُ، وأُلقي أموري كلَّها لديه، وأتوكَّل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، يعلمُ أحوالهم وما يستحقُّون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شرَّكم، ويعلم أحوالكم، فلا تتصرَّفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلَّطكم عليَّ فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾، أي: وقى الله القويُّ الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموفَّق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له؛ من إرادة إهلاكه وإتلافه؛ لأنه بَادَأَهُم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامَّة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمرٌ لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتدَّ حنقُهم عليه، فأرادوا به كيدًا، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم، وفي البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فهذه العقوبات الشنيعة التي تَحُلُّ بالمكذِّبين لرسل الله المعاندين لأمره[1].

---

(١) **فوائد من قصة مؤمن آل فرعون:**

- فضل الإيمان، وفضل صاحبه.

=

- فصاحة مؤمن آل فرعون هي ثمرة إيمانه وبركته العاجلة؛ فإن لكلماته وقعًا كبيرًا في النفوس.
- التنديد بالإسراف في كل شيء، والكذب والافتراء في كل شيء، وعلى أي شيء.
- من عجيب أمر فرعون ادّعاؤه أن يهدي إلى الرشد والسداد والصواب في القول والعمل، حتى ضُرِب به المثل، فقيل: فرعون يهدي إلى الرشد.
- قوة الإيمان تفجّر قلب المؤمن بأنواع من المعرفة والحكمة في قوله إذا قال.
- التذكير بالأمم الهالكة؛ إذْ العاقل مَن اعتبر بغيره.
- التخويف من عذاب الآخرة وأهوال القيامة.
- التنديد بالإسراف والارتياب وعدم اليقين.
- حرمة الجدال بغير علم، وأن صاحبه عُرضة لـمَقْت المؤمنين بعد مَقْت الله تعالى.
- عرضة المتكبّر الجبار للطبع على قلبه، ويومها يُحرَم الهداية فلا يُهدَى أبدًا.
- التحذير من تزيين الأعمال القبيحة نتيجة الإدمان عليها، والاستمرار على فعلها، فإن مَن زُيِّنَت له أعماله السيئة فأصبح يراها حسنةً هلك، والعياذ بالله.
- التحذير من الاغترار بالدنيا، والغفلة عن الآخرة؛ إذ الأُولَى زائلة، والآخرة باقية، واختيار الباقي على الفاني من شأن العقلاء.
- مشروعية التذكير بالحساب والجزاء، وما يتم في الدار الآخرة من سعادة وشقاء.
- بيان الفرق الكبير بين مَن يدعو إلى النجاة وبين مَن يدعو إلى النار، بين مَن يدعو إلى العزيز الغفار ليُؤمَن به ويُعبَد، وبين من يدعو إلى أوثان لا تسمع ولا تبصر، وهي أحقر شيء وأذلُّه في الحياة، وبين من يدعو مَن لا يستجيب له في الدنيا والآخرة، وبين مَن يدعو من يستجيب له في الدنيا والآخرة.
- التنديد بالإسراف في كل شيء.
- نِعْمَ ما ختم به مؤمن آل فرعون وَعْظَه ونُصْحُه لقومه، وهو قوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.
- إثبات عذاب القبر ونعيمه؛ إذ آلُ فرعون تُعرَض أرواحهم على النار صباحَ مساء.



قصة قارون

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٢].

يخبر تعالى عن حالة قارون وما فعل وفُعِلَ به ونُصِحَ ووُعِظَ، فقال: ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾، أي: من بني إسرائيل، الذين فُضّلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتنَّ الله عليهم بما امتنَّ به، فكانت حالهم

مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا بغى على قومه وطغى بما أُوتيه من الأموال العظيمة المُطْغِية، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، أي: كنوز الأموال شيئًا كثيرًا، ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُولِى ٱلْقُوَّةِ﴾، والعُصْبة: من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك، أي: حتى أن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها هذه المفاتيح، فما ظنُّك بالخزائن؟!

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ ناصحين له محذِّرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة؛ فإن الله لا يحب الفَرِحين بها، المُكِبِّين على محبَّتها.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغِ بها ما عند الله، وتصدَّقْ، ولا تقتصر على مجرَّد نَيْل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: لا نأمرك أن تتصدَّق بجميع مالك وتبقى ضائعًا، بل أَنْفِقْ لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثْلُم دينك، ولا يضرُّ بآخرتك، ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله، ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالتكبُّر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنِّعم عن المُنعم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، بل يعاقِبهم على ذلك أشدَّ العقوبة.

فقال قارون رادًّا لنصيحتهم، كافرًا بنعمة ربه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، أي: إنَّما أدركت هذه الأموال بكَسْبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحِذْقي، أو على علم من الله بحالي؛ يعلم أني أهلٌ لذلك، فلِمَ تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟

قال تعالى مبيِّنًا أن عطاءه ليس دليلًا على حُسْن حالة المُعْطَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾، فما

المانع من إهلاك قارون مع مُضِيِّ عادتنا وسـنَّتنا بإهلاك مَن هو مثله وأعظم منه إذا فعل ما يوجِب الهلاك؟

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾، بـل يعاقبهـم الله، ويعذِّبهـم علـى ما يعلمه مِنهم؛ فهم وإن أثبتوا لأنفسـهم حالة حسنة، وشـهدوا لها بالنجاة؛ فليس قولهم مقبولًا، وليس ذلك دافعًا عنهم من العذاب شـيئًا؛ لأن ذنوبهم غيرُ خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يَزَل قارون مسـتمرًّا على عناده وبَغْيِه، وعدم قبول نصيحة قومـه، فَرِحًا بَطِرًا، قد أعجبته نفسـه، وغرَّه ما أوتيه من الأمـوال، ﴿ فَخَرَجَ ﴾ ذات يـوم ﴿فِي زِينَتِهِۦ ﴾، أي: بحالة أرفـع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان لـه من الأموال مـا كان، وقد اسـتعدَّ وتجمَّل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينـة في العادة من مثله تكون هائلـة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرَمَقَتْه في تلك الحالة العيون، وملأت بِزَّتُهُ[1] القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسـم فيه الناظرون قسمين، كلٌّ تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾، أي: الذين تعلَّقـتْ إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادةٌ في سـواها، ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾، وصَدَقوا إنَّه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهيًا إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرى؛ فإنَّه قد أُعطِي منها ما به غاية التنعم بنعيـم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظُّ العظيم بحسـب همَّتهم، وإنَّ همَّة جعلت هذا غايةَ مرادها ومنتهى مطلبها لَمِنْ أدنى الهمم وأسـفلها وأدناهـا، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية.

---

(١) أي: هيئته.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ متوجِّعين مما تمنَّوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم، ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ العاجل؛ من لذَّة العبادة ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والآجل من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين ﴿خَيْرٌ﴾ من هذا الذي تمنَّيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كلُّ مَن يعلم ذلك يُؤْثِر الأعلى على الأدنى، فما يُلَقَّى ذلك ويوفَّقُ له ﴿إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشْغلهم عن ربهم، وأن تحُول بينهم وبين ما خُلِقوا له؛ فهؤلاء الذين يُؤْثِرُون ثواب الله على الدنيا الفانية.

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازَّيَّنَتْ الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه؛ بَغتَهُ العذاب، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله؛ فكما رفع نفسه على عباد الله أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغترَّ به من داره وأثاثه ومتاعه، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾، أي: جماعة، وعُصْبة، وخدم، وجنود، ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، أي: جاءه العذاب، فما نُصِر ولا انْتصر.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾، أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجِّعين ومعتبِرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يُضيِّق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذٍ أن بَسْطَه لقارون ليس دليلًا على خير فيه، وأنَّنا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ و﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومِنَّته ﴿لَخَسَفَ

بِنَا﴾، فصار هلاك قارون عقوبةً لــه، وعبرةً وموعظةً لغيــره، حتى إنَّ الذين غبطوه، ســمعت كيف ندِموا، وتغيَّر فِكْرُهم الأول، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا في الدنيا، ولا في الآخرة[1].

❋ ❋ ❋

---

(١) فوائد من قصة قارون:
- المال والمنصب العالي عُرضة لإفساد المرء إلا مَن رحم الله ﷻ، وقليل ما هم.
- الفرح في الإســلام فرَحان: فرح مباح بل مطلوب مرغوب، وهو سرور المؤمن بنِعَم الله عليه، ورِضَاه بها، وشُــكْره لله عليها، وفــرحٌ محرَّم، وهو الــذي يقود إلى الغــرور والفخر والبغي والجحود.
- حرمة الفرح بالمال والإمارة إذا كان الفرح فرحَ بطرٍ وفخرٍ واعتزازٍ وكِبْرٍ وخُيَلاء.
- مِن فَضْل الله على الأمة أن يوجد فيها عالِمُون ينصحون، ويُرشدون، ويُوَجِّهون.
- من الحزم للمرء أن يطلب من المال والجاه والمنصب أعلى الدرجات في الجنة.
- إباحة الأكل من الطَّيِّب، والشرب من الطَّيِّب، واللبس والركوب والسكن من غير إسراف، ولا خُيَلاء، ولا كِبْر.
- العافية والمال وعز السلطان يُصاب صاحبها بالاغترار، إلا مَن رَحِمَ الله.
- بيان أن الفتنة أسرع إلى قلوب الماديين أبناء الدنيا، والعياذ بالله تعالى.
- بيان موقف أهل العلم الديني، وأنهم راشدون، يأمرون بالمعروف، وينهَوْن عن المنكر.
- بيان أن البغي يُؤخَذ به البُغاة في الدنيا، ويُعَذَّبون به في الآخرة.
- بيان أن وجود الإيمان خير من عدمه وإن قلَّ، وأن ذا الإيمان أقرب إلى التوبة ممن لا إيمان له.



قصة أصحاب السبت

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٦].

﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾، أي: اسأل بني إسرائيل، ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾، أي: على ساحله في حال تَعدِّيهم، وعقاب الله إياهم، ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، وكان الله تعالى قد أمرهم أن يُعَظِّموه ويحترموه، ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله وامتحنهم، فكانت الحيتان تأتيهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، أي: كثيرة طافية على وجه البحر، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾، أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾، أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئًا، ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، ففِسْقُهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا لعافاهم الله، ولما عرَّضهم

للبلاء والشـر، فتحيَّلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حُفَرًا، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشِّباك لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسـموا **ثلاث فِرَق: معظمهم** اعتدوا وتجرَّؤوا، وأعلنوا بذلك، **وفرقةٌ** أعلنت بنَهْيِهم والإنكار عليهم، **وفرقةٌ** اكتفـتْ بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهـم، وقالوا لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، كأنَّهـم يقولـون: لا فائدة في وعظ مـن اقتحم محـارم الله، ولم يُصْـغِ للنَّصيح، بل اسـتمرَّ على اعتدائه وطغيانه؛ فإنَّه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد.

فقال الواعظـون: نعظهم وننهاهـم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي: لنُعْذر فيهم، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نيأس من هدايتهم، فربما نَجَعَ فيهم الوعظ، وأثَّر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظـم من إنكار المنكر؛ ليكون معـذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾، أي: تركوا ما ذُكِّروا به، واستمرُّوا على غيِّهم واعتدائهم، ﴿أَنجَيْنَا﴾ من العذاب ﴿ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، وهكذا سـنة الله في عباده أن العقوبة إذا نـزلـت نجا منها الآمِرون بالمعـروف والناهون عن المنكـر، ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم الذيـن اعتدوا في السـبت، ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾، أي: شـديد، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهيـن: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، فاختلـف المفسـرون فـي نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجيـن؛ لأنَّ الله خصَّ الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدلَّ على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين؛ فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ

قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فأبْـدَوْا من غضبهم عليهم ما يقتضي أنهم كارهون أشدَّ الكراهة لفعلهم، وأنَّ الله سيعاقبهم أشدَّ العقوبة.

﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾، أي: قسـوا فلم يلينوا، ولا اتَّعظوا، ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ﴾ قولًا قَدَريًّا: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، فانقلبوا بإذن الله قردةً، وأبعدهم الله من رحمته(١).

* * *

(١) فوائد من قصة أصحاب السبت:

- تقرير الوحي والنبوة لرسـول الله محمد ﷺ؛ إذ مثل هذا القَصَص الذي يُذكَر لبني إسرائيل لن يتم إلا عن طريق الوحي، وإلا فكيف عَلِمَه، وذكَّر به اليهودَ، وأخبر به أصحابه وقد مضى عليه زمن طويل.
- إن تلك القرية مثال لأي قريـة في موقف أهلها من أوامر الله تعالى؛ حيث ينقسـمون أمامها، فيعتدي عليها فريق، ويقف في وجوههم فريق، ويسكت عن الإنكار والنصح فريق.
- إذا أنعم الله على أمة نعمةً، ثم أعرضت عن شكرها؛ تعرَّضَتْ للبلاء أولًا، ثم العذاب ثانيًا.
- أن الأسماك والحيتان التي توجَّهَت لمراودة وإغراء أهل القرية كانت جُنْدًا من جنود الله، أمرها أن تقترب منهم يوم السبت، وأن تبتعد في باقي الأيام، فالتزمت ونفَّذت.
- جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فقد نجَّـى الله تعالى الناهِينَ عن المنكر، وأهْلَكَ الذين باشَرُوه ولم ينتهوا عنه دون غيرهم.
- إطلاق لفظ «السـوء» على المعصية مُؤْذِنٌ بأن المعصية مهما كانت صغيرة تُحْدِث السوء في نفس فاعلها.
- ارتكاب المنكر وفِعْل المحظور نذيرُ شؤم، وطريقٌ لغضب الله، واستقدام لعذابه وسخطه.
- أن نسيان الأحكام الشـرعية مصيبة عظمى قد تَفُوق مخالفتها، وإن هذا النسيان مقدِّمة لوقوع العذاب.
- كان مسـخ المعتدين من أهل القرية حقيقةً، ولم يعيشوا بعدها ولم يتناسلوا، وهذه آية للعصاة ليتَّعِظوا.
- وجوب الوقوف عند حدود الله، وعدم مخالفتها، أو تحريفها.
- الساكتون عن الحق يستحِقُّون الإهمال والإغفال والنسيان؛ لهوانهم على الله وعلى الناس.
- طريق الذِّكْر الحَسَن لا بد فيه من نية صالحة، وعمل واجتهاد ومجاهدة، فالناس لا يتذكَّرون إلا المخلِصين العاملين.



قصة أصحاب القرية

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۞ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۞ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۞ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۞ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۞ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ۞ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۞ ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۞ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ١٣ ـ ٢٩].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾، أي: واضرب لهؤلاء المكذِّبين برسالتك، الرادِّين لدعوتك، مثلًا يعتبرون به، ويكون لهم موعظةً إن وُفِّقوا للخير، وذلك المثل هم أصحاب القرية، وما جرى منهم من التّكذيب لرسل الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله.

وتعيين تلك القرية لو كان فيه فائدةٌ لعيَّنها الله، فالتعرُّض لذلك وما أشبهه من باب التكلُّف والتكلُّم بلا علم، ولهذا إذا تكلَّم أحدٌ في مثل هذا تجد عنده من الخبْط والخلْط والاختلاف الذي لا يستقرُّ له قرارٌ، ما تعرِف به أنَّ طريق العلم الصحيح الوقوف مع الحقائق، وتَرْك التعرُّض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظنُّ الجاهل أنَّ زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حُجَّة عليها، ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن، واعتياد الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أنَّ هذه القرية جعلها الله مثلًا للمخاطبين، ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من الله تعالى؛ يأمرونهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، أي: قوَّيْناهما بثالث، فصاروا ثلاثة رسل؛ اعتناءً من الله بهم، وإقامةً للحجة بتوالي الرسل إليهم، ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لهم: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهورًا عند مَن ردَّ دعوة الرُّسل، فقالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، أي: فما الذي فضَّلكم علينا وخَصَّكُم من دوننا؟ قالت الرسل لأممهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾، أي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضًا المخاطبين لهم، فقالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾، فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، فلو كنَّا كاذبين لأظهر الله خِزْيَنا، ولبادَرَنا بالعقوبة، ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: البلاغ المُبِين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عَدَا هذا من آيات الاقتراح، ومن سرعة العذاب؛ فليس إلينا، وإنما وظيفتنا التي هي البلاغ المُبِين قمنا بها،

وبَيَّنَّاها لكم، فإن اهتديتم فهو حظُّكم وتوفيقكم، وإن ضللتم فليس لنا من الأمر شيء.

فقال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾، أي: لم نرَ على قدومكم علينا واتِّصالكم بنا إلا الشرَّ، وهذا من أعجب العجائب؛ أن يُجعل مَن قَدِم عليهم بأجلِّ نعمةٍ يُنعم الله بها على العباد، وأَجَلِّ كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كلِّ ضرورة، قد قدِم بحالة شرٍّ زادت على الشر الذي هم عليه، واستشأموا بها، ولكنَّ الخذلان وعدم التوفيق، يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوُّه.

ثم توعَّدوهم فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾، أي: لنقْتلنَّكم رجمًا بالحجارة أشنع القتلات، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقالت لهم رسلهم: ﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، وهو ما معهم من الشرك والشر المقتضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة، ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾، أي: بسبب أنَّا ذكَّرناكم ما فيه صلاحكم وحظُّكم قلتم لنا ما قلتم، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون للحد، متجرِّئون في قولكم، فلم يَزِدهم دعاؤهم إلا نفورًا واستكبارًا.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ حرصًا على نُصْح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما ردَّ به قومه عليهم، فقال لهم: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، فأمرهم باتباعهم، ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة، ثم ذكر تأييدًا لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾، أي: اتَّبعوا من نصحكم نُصحًا يعود إليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم ولا أجرًا على نُصْحِه لكم وإرشاده إياكم، فهذا موجبٌ لاتباع مَن هذا وَصْفُه.

بقي أن يُقال: فلعلَّه يدعو ولا يأخذ أُجرةً، ولكنَّه ليس على الحق، فدفع

هذا الاحتراز بقوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحُسْنه، ولا ينهون إلا بما يشهد العقل الصحيح بقُبْحه.

فكأنَّ قومه لم يقبلوا نُصحه، بل عادوا لائمين له على اتباع الرسل، وإخلاص الدين لله وحده، فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: وما المانع لي من عبادة مَن هو المستحقُّ للعبادة؛ لأنَّه الذي فطرني، وخلقني، ورزقني، وإليه مآل جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم، فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد في الدنيا والآخرة؛ هو الذي يستحِقُّ أن يُعبَد، ويُثنَى عليه ويُمجَّد دون من لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا عطاءً ولا منعًا، ولا حياةً ولا موتًا ولا نشورًا، ولهذا قال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾؛ لأنَّه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه؛ فلا تُغني شفاعتهم عني شيئًا، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من الضُّرِّ الذي أراده الله بي، ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أي: إن عبدتُ آلهةً هذا وصفها ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، فجمع في هذا الكلام بين نُصْحِهم، والشهادة للرسل بالرسالة، والاهتداء والإخبار بِتعيُّن عبادة الله وحده، وذكر الأدلَّة عليها، وأنَّ عبادة غيره باطلةٌ، وذكر البراهين عليها، والإخبار بضلال مَن عبدها، والإعلان بإيمانه جهرًا، مع خوفه الشديد مِن قَتْلِهم، فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾، فقتله قومه لما سمِعوا منه، وراجعهم بما راجعهم به.

﴿قِيلَ﴾ له في الحال: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾، فقال مخبرًا بما وصل إليه من الكرامة على توحيده وإخلاصه، وناصحًا لقومه بعد وفاته، كما نصح لهم في حياته: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾، أي: بأي شيءٍ غفر لي، فأزال عني أنواع العقوبات، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ بأنواع المثوبات والمسرَّات، أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم لم يقيموا على شركهم.

قال الله في عقوبة قومه: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

أي: ما احتجنا أن نتكلَّف في عقوبتهم، فننزل جندًا من السماء لإتلافهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾؛ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشــدَّة ضعف بني آدم، وأنَّهم أدنى شــيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم، ﴿إِن كَانَتْ﴾، أي: ما كانت عقوبتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾، أي: صوتًا واحدًا، تكلَّم به بعض ملائكة الله؛ ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ قد تقطَّعــت قلوبهم في أجوافهــم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركــة، ولا حياة بعد ذلك العتوّ والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبُّرهم عليهم[1].

---

(١) فوائد من قصة أصحاب القرية:
- استحسان ضرب المثل، وهو تصوير حالة غريبة بحالة أخرى مثلها، كما هنا في قصة حبيب بن النجار.
- بيان أن الله ﷻ لن يَدَع الخَلْق بلا رُسُل.
- بيان رحمة الله ﷻ في تعزيز الرسالة بالصيغة والعدد.
- جواز تعدُّد الرسل مع اتحاد الـمُرسَل إليهم؛ لأن الله أرسل إلى هذه القرية اثنين ثم عزَّزَهُما بثالث.
- تشابُه حال الكفار في التكذيب والإصرار في كل زمان ومكان.
- لجوء أهل الكفر بعد إقامة الحجة عليهم إلى التهديد والوعيد.
- حُرْمة التطيُّر والتشاؤم في الإسلام.
- أن الإنسان شؤمه بعمله، وليس بدعوته إلى الحق.
- أن الذنوب والتكذيب للرسل يكون سببًا للمِحَن والبلاء.
- أن هؤلاء القوم كانوا مُسْرِفين على أنفسهم متجاوِزين للحد.
- بيان أن مِن أَبْيَن الضَّلال وأَشَدِّه تِيهًا أن يتخذ الإنسانُ مع الله آلهةً.
- أن كل مَنْ ضَلَّ عن الحق، أو كل مَن خالَف الحق أصابه من الضلال بقَدْر ما خالَف الحق.
- بيان كرامة حبيب بن النجار الذي نصح قومه حيًا وميتًا.
- بيان ما يُلاقي دعاة التوحيد والدين الحق في كل زمان ومكان من شدائد وأهوال.
- وجوب إبلاغ دعوة الحق، والتنديد بالشرك مهما كان العذاب قاسيًا.
- بُشرى المؤمن عند الموت، لا سيَّما الشهيد؛ فإنه يرى الجنة رَأْيَ العين.
- أنه لا يتم النعيم إلا بزوال المكروه.
- مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك أهل القرية بصيحة واحدة.
- إبداء التحسُّر على العباد من أنفسهم؛ إذ هم الظالمون المكذِّبون، فالحسرة منهم وعليهم.
- أن الاستهزاء بالرسل كُفْر مُوجِب للعقوبة.



قصة سبأ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ٢١].

سبأ قبيلةٌ معروفةٌ في أداني اليمن، ومسكنهم بلدةٌ يُقال لها: «مأرب»، ومِن نِعَم الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا؛ أنه قصَّ في القرآن أخبار المهلَكين والمعاقَبين ممنْ كان يجاوِر العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾، أي: محلِّهم الذي يسكنون فيه، ﴿ءَايَةٌ﴾، والآيةُ هنا: ما أَدَرَّ الله عليهم من النِّعَم، وصرف عنهم من النِّقَم، الذي يقتضي ذلك منهم

أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسَّر الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، وكان لهم وادٍ عظيمٌ تأتيه ســيولٌ كثيرةٌ، وكانوا بنوا ســدًّا مُحْكَمًــا، يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماءٌ عظيمٌ، فيفرِّقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشــماله، وتُغِلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحْصل لهم به الغبطة والســرور، فأمرهم الله بشكر نِعَمِه التي أَدَرَّها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنَّتان اللتان غالب أقواتهم منهما.

ومنها: أنَّ الله جعــل بلدهــم بلدةً طيبةً؛ لحســن هوائها، وقلَّــة وَخَمِها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أنَّ الله تعالى وعدهم إن شكروه أن يغفر لهم ويرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أنَّ الله لمَّا علــم احتياجهم في تجارتهم ومكاســبهم إلى الأرض المباركة، ـ الظاهرُ أنَّها قُرى صنعاء كما قاله غيرُ واحد من السلف، وقيل: إنَّها الشــامُ ـ هيَّأ لهم من الأسباب ما به يتيسَّــر وصولهم إليها بغاية السُّهولة من الأمن وعدم الخوف، وتواصُل القرى بينهم وبينهــا؛ بحيث لا يكون عليهم مشقَّةٌ بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قــال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، أي: سيرًا مقدَّرًا يعرفونه، ويحكمون عليه، بحيث لا يَتِيهُون عنه ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾، أي: مطمئنين في الســير في تلك الليالي والأيام غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم أنْ أمَّنهم من الخوف.

فأعْرضوا عن المُنعِم وعــن عبادته، وبطروا النعمــة وملُّوها، حتى إنَّهم طلبوا وتمنَّوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسرًا،

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطْغتهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾، أي: السيل المتوعِّر الذي خرَّب سـدَّهم، وأتلف جناتهم، وخرَّب بساتينهم، فتبدَّلت تلك الجناتُ ذات الحدائق المُعجِبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجارٌ لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ﴾، أي: شـيئًا قليلًا من الأكل الذي لا يقع منهـم موقعًـا، ﴿خَمۡطٍ وَأَثۡلٍ وَشَيۡءٍ مِّن سِدۡرٍ قَلِيلٍ﴾، وهذا كله شـجرٌ معروفٌ، وهذا من جنس عملهم؛ فكما بدَّلوا الشـكر الحسن بالكفر القبيح بُدِّلُوا تلك النعمةَ بما ذُكِـر، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾، أي: وهل نُجازي جزاء العقوبة ـ بدليل السـياق ـ إلا مَنْ كفر بالله وبَطِر النعمة؟!

فلمَّا أصابهم ما أصابهم تفرَّقوا وتمزَّقـوا بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يُتحدَّث بهم، وأسـمارًا للناس، وكان يُضْـرب بهم المثل، فيقالُ: «تفرَّقوا أيدي سـبأ»، فكلُّ أحدٍ يتحدَّث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا منْ قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾: صبَّارٍ على المكاره والشدائد، يتحمَّلُها لوجه الله، ولا يتسخَّطُها، بل يصبر عليها، شكورٍ لنعمة الله تعالى، يُقِرُّ بها، ويعترف، ويُثْنِي على مَن أولاها، ويصرِفُها في طاعته.

فهذا إذا سـمع بقصَّتِهم، وما جرى منهم وعليهـم؛ عرف بذلك أنَّ تلك العقوبة جزاءٌ لكفرهم نعمةَ الله، وأنَّ مَن فعل مثلهم فُعِلَ به كما فُعِلَ بهم، وأنَّ شُكْر الله تعالى حافظٌ للنعمة، دافعٌ للنقمة، وأنَّ رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأنَّ الجزاء حقٌّ كما رأى أُنموذجه في دار الدنيا.

ثم ذكر أنَّ قوم سـبأ من الذين صدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه؛ حيث قال لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، وهذا ظنٌّ من إبليس

لا يقينٌ؛ لأنَّه لا يعلم الغيب، ولم يأتِهِ خبرٌ من الله أنَّه سيُغْويهم أجمعين؛ إلا من استثنى، فهؤلاء وأمثالهم ممنْ صدَّق عليه إبليسُ ظنَّه، ودعاهم وأغواهم، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ممنْ لم يكفرْ بنعمة الله؛ فإنَّه لم يدخُلْ تحت ظنِّ إبليس، ويُحتمَل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: على جنس الناس، فتكون الآيةُ عامةً في كلِّ من اتَّبعه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾، أي: لإبليس، ﴿عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، أي: تسلُّطٍ وقهرٍ، وقسرٍ على ما يريده منهم، ولكنَّ حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم؛ ﴿لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾، أي: ليقوم سوقُ الامتحان، ويُعلَم به الصادقُ من الكاذب، ويُعرَف مَن كان إيمانه صحيحًا يثبتُ عند الامتحان والاختبار، وإلقاء الشُّبه الشيطانيَّة، ممنْ إيمانه غيرُ ثابتٍ، يتزلزل بأدنى شبهةٍ، ويزول بأقلِّ داعٍ يدعوه إلى ضدِّه، فالله تعالى جعله امتحانًا، يمتحن به عباده، ويُظْهِر الخبيث من الطيب، ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ يحفظُ العباد، ويحفظُ عليهم أعمالهم، ويحفظُ تعالى جزاءها؛ فيوفِّيهم إيَّاها كاملة موفرةً [1].

---

(١) **فوائد من قصة سبأ:**

- التحذير من الإعراض عن دين الله؛ فإنه متى حصل لأمةٍ نزلت بها النِّقَم وسلبها الله النعم، وكم هذه الحال مشاهدة هنا وهناك لا بين الأمم والشعوب فحسب بل حتى بين الأفراد.
- أن بلاد الله تنقسم إلى طَيِّب وخبيث.
- إثبات ربوبية الله ﷻ ومغفرته.
- التحذير من كفر النِّعَم بالإسراف فيها وصَرْفِها في غير مرضاة الله واهبِها ﷻ.
- عقوبة الـمُعرِضين بما تقتضيه حكمة الله، فالعقوبات دائمًا تكون من جنس العمل، فهؤلاء لما بَطِرُوا نعمة الله، وكفروا به بسبب هذه الجَنَّات أُبْدِلُوا بجناتٍ سيئة بالنسبة لما نُعِّمُوا به من قبل.
- إثبات الأسباب؛ حيث جعل الله تعالى سبب الإرسال إعراضهم.
- أن المطر الذي هو نعمة ورحمة قد يكون نِقْمَةً وعذابًا.

= ـ الحكمة في أن الله ﷻ جعل بـدل الجنتين جنتين أُخْرَيَيْـنِ؛ لأن الطاعة نور وصلاح وفلاح، فيناسـبها الجزاء بالعطاء، والمعصية ظُلمة وفسـاد، فناسَـبَها أن يكون فيها هذا البَدَل السيئ بالنسبة لما قبله.
ـ خطر الحسد، وأنه داء لا دواء له ـ والعياذ بالله ـ يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.
ـ أن هؤلاء القوم صاروا أحاديث للناس مِن بعدهم، وهذا نوع من الخزي والعار ـ والعياذ بالله ـ أن يشتهر أمر الإنسان حتى يكون أُحدوثةً لمن بعده.
ـ فضيلة الصبر والشكر؛ الصبر على الضَّرَّاء، والشكر على الرَّخَاء، والإنسان دائمًا مصاب بهاتين الآفتَيْن؛ إما ضرَّاء وإما سرَّاء، ففي الضرَّاء يجب عليه الصبر وانتظار الفرج، وفي السرَّاء يجب عليه الشكر.
ـ بيان أن إبليس صدق ظَنَّه في بني آدم، وأنهم سيتبعونه ويغويهم.



قصة أصحاب الأخدود

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [البروج: ٤ ـ ١١].

قوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾، وهـذا دعاءٌ عليهـم بالهلاك، و﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾: الحُفَر التي تُحْفَر في الأرض.

وكان أصحـاب الأخدود هـؤلاء قومًا كافريـن، ولديهم قـومٌ مؤمنون، فراودوهم للدخول في دينهـم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشـقَّ الكافرون أخدودًا فـي الأرض، وقذفوا فيها النـار، وقعدوا حولها، وفتنـوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمرَّ على الإيمان قذفوه في النار، وهذا فـي غاية المحاربـة لله ولحزبه المؤمنين، ولهـذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعَّدهم، فقـال: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾، ثم فسَّـر الأخدود بقوله: ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾، وهـذا مـن أعظم ما يكون من التجبُّر وقساوة القلب؛ لأنَّهم جمعوا بين الكفر بآيات الله

ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العــذاب الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها، والحال أنهــم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة يُمدَحُون عليها، وبها ســعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون ﴿بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، أي: الذي له العزَّة، التي قهر بها كلَّ شــيء، وهو حميدٌ في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا، يتصــرَّف فيهم تصرُّف المالك بملكه، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا؛ أفلا خاف هؤلاء المتمردون على الله أن يبطش بهــم العزيز المقتدر، أوَما علموا أنهم جميعهم مماليك لله، ليس لأحدٍ على أحدٍ سلطةٌ من دون إذن المالك؟ أوَخفِي عليهم أنَّ الله محيطٌ بأعمالهــم، مُجازٍ لهم على فعالهــم؟ كلَّا إنَّ الكافر في غرورٍ، والظالم في جهل وعمى عن سواء السبيل.

ثم وعدهم، وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: العــذاب الشــديد المحرِق، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: انظُروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه وأهل طاعته وهو يدعوهم إلى التوبة.

ولما ذكر عقوبة الظالمين ذكر ثــواب المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ بجوارحهم، ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي حصل به الفوز برضا الله ودار كرامته[1].

(١) فوائد من قصة أصحاب الأخدود:
- الإيمان بأنه لا إله إلا الله، ولا معبود إلا هو.
- الثبات على الإيمان مهما اشتدت الابتلاءات.
- كل ابتلاء في سبيل الله يهون.

—

= - الدعوة إلى الصبر في سبيل الله.
- رَدُّ كلِّ فضلٍ إلى الله؛ فهو صاحب الفضل في كل شـيء، كما قال الغلام: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله.
- جوازُ الكذب على الكافرين تحقيقًا للمصلحة الدينية.
- الله يحفظ عباده في البَرِّ والبحر، ويُنَجِّيهم من كل كرب.
- التضحية بالنفس في سبيل الدعوة إلى الله.
- حدوث خوارق العادات للصالحين من غير الأنبياء، كما حدث مع الغلام الذي شفى الله على يده الأكمه، ورَدُّ بصر الأعمى.
- إذا أراد الله أمرًا كان، ولا رَادَّ لأمره.
- العار والخزي على الذين حاربوا الله في الدنيا، والعذاب الأليم لهم في الآخرة.
- الثناء الحسن يبقى مقترنًا بسيرة المؤمنين في الدنيا، والجنة لهم يوم القيامة.
- إنعام الله على بعض خَلْقِهِ بالنعم ليس دليلًا على حُبِّه إياهم.
- صراع الحق والباطل منذ خلق الله الخَلْقَ وحتى يوم القيامة.
- انتصار الحق في النهاية وإن بَدَا الباطل قويًا.



قصة صاحب الجنتين

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٤].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مَثَلَ هذَين الرجلين: الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب؛ ليعتبروا بحالهما، ويتّعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة؛ فالنتيجة تحصُل من قصتهما فقط، والتعرُّض لما سوى ذلك من التكلُّف.

فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة جعل الله له جنتين، أي: بستانَين حسَنَيْن، ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾، أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصًا أشرف الأشجار العنب والنخل؛ فالعنب في وسطها، والنخل قد حفَّ بذلك، ودار به، فحصل فيه من حُسْن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمُلُ بها الثمار، وتنضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعًا، فلم يَبْقَ عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماءٌ يكفيهما؟

فأخبر تعالى أنَّ كلًّا من ﴿ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفًا، وأنها لم ﴿تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾، أي: لم تنقص من أُكُلِها أدنى شيء، ومع ذلك فالأنهار في جوانبها سارحة كثيرة غزيرة.

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾، أي: لذلك الرجل ﴿ثَمَرٌ﴾، أي: عظيم، كما يفيده التنكير، أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحنَّت[1] أشجارهما، ولم تعرِض لهما آفةٌ أو نقصٌ، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغترَّ هذا الرجل، وتبجَّح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٤ ـ ٣٦].

أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماجريات المعتادة، مفتخرًا عليه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فَخَرَ بكثرة ماله، وعزَّة أنصاره؛ من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأيُّ افتخار بأمر خارجيٍّ ليس فيه فضيلةٌ نفسيَّة، ولا صفةٌ معنويَّة، وإنما هو بمنزله فخر الصبيِّ بالأماني التي لا حقائق تحتها؟!

ثم لم يَكْفِهِ هذا الافتخار على صاحبه حتى حكم بجهله وظلمه، وظنَّ لمَّا دخل جنته فقال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾، أي: تنقطع وتضمحلَّ ﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾، فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾، على ضرب المثل، ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، أي: ليعطيني خيرًا من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين؛ إمَّا أن يكون عالِمًا بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكُّم والاستهزاء، فيكون

---

(١) أي: ثقلت.

زيادة كفرٍ إلى كفره، وإمَّا أن يكون هذا ظنَّه فــي الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظًّا من العقل، فأيُّ تلازُم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظنَّ بجهله أن من أُعطِي في الدنيا أُعطِي في الآخرة، بل الغالب أنَّ الله تعالى يَزْوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسّعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيــبٌ، والظاهر أنَّه يعلم حقيقة الحــال، ولكنَّه قال هذا الكلام على وجه التهكُّم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، فإثبات أن وَصْفَه الظلم في حال دخوله الذي جــرى منه من القول ما جرى يدلُّ على تمرُّده وعناده.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٧ ـ ٣٩].

أي: قال لــه صاحبه المؤمن ناصحًا لــه، ومذكِّرًا له حالــه الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؛ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصَل عليك النعــم، ونقلك من طَوْر إلى طَوْر، حتى ســوَّاك رجلًا، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسَّر لك الأســباب، وهيَّأ لك ما هيَّأ من نعم الدنيا، فلم تحصُل لك الدنيا بحولك وقوَّتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يَلِيق بك أن تكفُر بالله الذي خلقك من ترابٍ، ثم من نطفةٍ، ثم ســوَّاك رجلًا، وتجحد نعمته، وتزعم أنَّه لا يبعثــك، وإن بعثك أنَّــه يعطيك خيرًا من جنتــك؟! هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

ولهذا لمَّا رأى صاحبُه المؤمن حالَه واســتمراره على كفره وطغيانه قال مُخْبِرًا عن نفســه، علــى وجه الشــكر لربه، والإعــلان بدينــه، عند ورود المجادلات والشُّــبه: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، فأقرَّ بالربوبية

لربه، وانفراده فيها، والتزم طاعته وعبادته، وأنَّه لا يشرك به أحدًا من المخلوقين، ثم أخبره أنَّ نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلَّة ماله وولده؛ أنَّها هي النعمة الحقيقية، وأنَّ ما عداها معرَّضٌ للزوال والعقوبة عليه والنَّكال، فقال:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٣٩ - ٤٤].

أي: قال للكافر صاحبُه المؤمن: أنت وإن فخرتَ عليَّ بكثرة مالك وولدك، ورأيتني ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾؛ فإنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، وما يُرجَى من خيره وإحسانه أفضلُ من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾، أي: على جنَّتك التي طغيت بها وغرَّتْك، ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: عذابًا بمطر عظيم أو غيره، ﴿فَتُصْبِحَ﴾ بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾، أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرِقَ زرعُها، وزال نفعُها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا﴾ الذي مادتُها منه ﴿غَوْرًا﴾، أي: غائرًا في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾، أي: غائرًا لا يُستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنَّما دعا على جَنَّتِه المؤمن، غضبًا لربه؛ لكونها غرَّته وأطغتْه، واطمأنَّ إليها؛ لعلَّه يُنِيب، ويراجع رُشده، ويبصر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾، أي: أصابه عذابٌ أحاط به، واستهلكه فلم يَبْقَ منه شيءٌ، والإحاطة بالثمر يستلزمُ تَلَفَ جميع أشجاره،

وثماره، وزرعه، فندم كلَّ الندامة، واشتدَّ لذلك أسفه، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾، أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلَّت وتلاشت، فلم يَبْقَ لها عِوضٌ، ونَدِمَ أيضًا على شركِه وشرِّه، ولهذا قال: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾، أي: لمَّا نزل العذاب بجنَّته ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئًا أشدَّ ما كان إليهم حاجةً، وما كان بنفسٍ منتصرًا، وكيف ينتصر أو يكون له أنصارٌ على قضاء الله وقَدَرِه الذي إذا أمضاه وقدَّره لو اجتمع أهلُ السماء والأرض على إزالة شيءٍ منه لم يقدروا؟!

ولا يُستَبْعَد من رحمة الله ولطفه أنَّ صاحب هذه الجنة التي أُحيط بها تحسَّنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرُّدُه وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأنَّ الله أذهب عنه ما يُطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا عجَّل له العقوبة في الدنيا، وفضلُ الله لا تحيطُ به الأوهام والعقول، ولا يُنكِرُه إلا ظالمٌ جهولٌ.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على مَن طغى وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحًا، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تَبَيَّن وتوضَّح أن الولاية لله الحق وحده، فمن كان مؤمنًا به تقيًّا كان له وليًّا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والـمَثُلات[1]، ـ ومن لم يؤمن بربه ويتولَّاه خسِر دينه ودنياه ـ فثوابه الدنيوي والأخروي خيرُ ثواب يُرجى ويُؤمَّل.

❋ ❋ ❋

---

(١) أي: العقوبات.

فوائد من هذه القصة

ففي هذه القصة العظيمة: اعتبارٌ بحال الذي أنعم الله عليه نِعَمًا دنيوية، فألهتْه عن آخرته وأطغتْه، وعصى الله فيها، فإنَّ مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنَّه وإنْ تمتَّع بها قليلًا فإنَّه يُحْرَمها طويلًا، وأنَّ العبد ينبغي له إذا أعجبه شيءٌ من ماله أو ولده أن يضيفَ النعمة إلى مُولِيها ومُسْدِيها، وأن يقولَ: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ ليكون شاكرًا لله متسبِّبًا لبقاء نعمته عليه؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

وفيها: الإرشاد إلى التسلِّي عن لذَّات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير؛ لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾.

وفيها: أنَّ المال والولد لا ينفعانِ إن لم يُعِينَا على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

وفيه: الدُّعاء بِتلفِ مالِ مَنْ كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إنْ فضَّل نفسه بسببه على المؤمنين وفخر عليهم.

وفيها: أنَّ ولاية الله وعدمها إنما تتَّضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحقَّ الجزاء، ووجد العاملون أجرهم، فهنالك ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، أي: عاقبةً ومآلًا [1].

---

(١) **ومن فوائد قصة صاحب الجنتين:**
- استحسان ضَرْب الأمثال؛ للوصول بالمعاني الخفية إلى الأذهان.
- بيان صورة مثالية لغَرْس بساتين النخل والكروم.
- تقرير عقيدة التوحيد والبعث والجزاء.

= - التنديد بالكِبْر والغرور؛ حيث يُفْضِيَان بصاحبهما إلى الشرك والكفر.
- بيان مآل المؤمنين؛ كصُهَيْب وسلمان وبلال، وهو الجنة، ومآل الكافرين كأبي جهل وعقبة بن أبي مُعَيْط، وهو النار.
- استحباب قول من أعجبه شيء: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ فإنه لا يرى فيه مكروهًا إن شاء الله.
- استجابة الله تعالى لعباده المؤمنين، وتحقيق رجائهم فيه سبحانه وتعالى.
- عذاب الله واقِعٌ بالمغرورين الكافرين، حيث يَمْحَق ما هم فيه من نعيم، وهو جزاء ما قاموا به.
- المخذول مَن خذله الله تعالى؛ فإنه لا يُنصَر أبدًا.
- عندما تَزُول النِّعمة وتَحُلُّ النِّقْمة يظهر للمغرور المتكبِّر صِدْقُ ما حذَّره منه الصالحون والناصحون.
- الولاية بمعنى الموالاة النافعة للعبد هي موالاة الله تعالى لا موالاة غيره.
- الولاية بمعنى الملك والسلطان لله يوم القيامة ليست لغيره؛ إذ الملك والأمر كلاهما لله تعالى.



قصة أصحاب الفيل

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ١ ـ ٥].

أي: أما رأيتَ من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلَّة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعلَه اللهُ بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيتَه الحرام، وأرادوا إخرابه؛ فتجهَّزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفِيَلة لهدمه، وجاؤوا بجمعٍ لا قِبَل للعرب به من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قُربِ مكَّة، ولم يكن بالعرب مدافعةٌ، وخرج أهل مكَّة من مكَّة خوفًا على أنفسهم منهم؛ أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، أي: متفرِّقة، تحمل حجارة محمَّاة من سِجِّيلٍ[١]، فرمتْهم بها، وتتبَّعتْ قاصِيَهم ودانِيَهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعَصْفٍ[٢] مأكولٍ، وكفى الله شرَّهم، وردَّ كيدهم في نحورهم، وقصَّتُهم معروفةٌ مشهورةٌ[٣]، وكانت تلك السنة التي وُلِدَ فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاصات دعوته، ومقدمات رسالته، ولله الحمد والشكر.

---

(١) أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة.

(٢) العصف: ورقَ الزَّرع.

(٣) هذه قصة أصحاب الفيل بإيجاز: أرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء... سمَّتْهَا العرب القُلَّيس؛ =

= لارتفاعها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حجَّ العرب إليها كما يحجُّ إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا، حتى قصدها بعضهم فأَحْدَثَ فيها وكَرَّ راجعًا، فأقسم أبرهة ليَسِيرَنَّ إلى بيت مكة، وليخرِّبَنَّه حجرًا حجرًا، فتأهَّب أبرهة لذلك، وصار في جيش عَرَمْرَم، واستصحب معه فيلًا عظيمًا يقال له: محمود، فلما انتهى أبرهة إلى قريب من مكة أغار جيشه على سَرْحِ أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة إلى مكة مَن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدُّوه عن البيت، فذهب إليه عبد المطلب، فلما رآه أبرهة أَجَلَّهُ، وكان عبد المطلب رجلًا جميلًا، ونزل أبرهة عن سريره، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلَّمْتَنِي، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رَبُّ الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني! قال: أنت وذاك. فلما أصبح أبرهة تهيَّأ لدخول مكة، وهيَّأ فيله وعَبَّأ جيشه، فلما وجَّهوا الفيل نحو مكة أقبل نُفَيْل بن حبيب حتى قام إلى جنبه، ثم أخذ بأذنه وقال: ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبَرَك الفيل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه فأبى، فوجَّهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمُّص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، والعرب على رأس الجبل ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة. تفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٣ ـ ٤٨٥) باختصار وتصرُّف يسير.



قصة مسجد الضرار

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۞ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۞ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠].

كان أناس من المنافقين من أهل قُباء اتَّخذوا مسجدًا إلى جنب مسجد قُباء، يريدون به المُضارَّة والمُشاقَّة بين المؤمنين، ويُعِدُّونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله يكون لهم حصنًا عند الاحتياج إليه، فبيَّن تعالى خِزْيَهم، وأظهر سِرَّهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾، أي: مضارَّة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه، ﴿وَكُفْرًا﴾، أي: مقصدهم فيه الكفر إذا قصد غيرهم الإيمان، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ليتشعَّبوا ويتفرَّقوا ويختلفوا، ﴿وَإِرْصَادًا﴾، أي: إعدادًا ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾، أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدَّم حرابهم واشتدَّت عداوتهم، وذلك

كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قَدِم النبيُّ ﷺ وهاجَر إلى المدينة كفر به، وكان متعبِّدًا في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ، فلمَّا لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر بزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعدٍ وممالأة هو والمنافقون، فكان مما أعدُّوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهُدِم وحُرِّق، وصار بعد ذلك مزبلةً.

قال تعالى بعدما بيَّن من مقاصدهم الفاسدة في ذلك المسجد: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ في بنائنا إيَّاه ﴿إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير، ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، فشهادة الله عليهم أصدق من حَلِفِهم، ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدًا﴾، أي: لا تُصَلِّ في ذلك المسجد الذي بُنِي ضرارًا أبدًا؛ فالله يُغْنِيك عنه، ولست بمضطرٍّ إليه. ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في قُباء، وهو مسجد قُباء أُسِّس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذِكْره وشعائر دينه، وكان قديمًا في هذا عريقًا فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ وتتعبَّد، وتذكر الله تعالى، فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ من الذُّنوب، ويتطهَّروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث، ومن المعلوم أنَّ مَن أحبَّ شيئًا لا بدَّ أن يسعى له ويجتهد فيما يحبُّ، فلا بدَّ أنهم كانوا حريصين على التطهُّر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرَّزون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يُتْبِعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم[١].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٥)، والحاكم (٥٥٦).

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ الطهارةَ المعنوية؛ كالتنزُّه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسيَّة؛ كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضَل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه، فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: على نيَّة صالحة وإخلاص، ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ بأن كان موافقًا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾، أي: على طرف ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾، أي: بالٍ قد تداعى للانهدام، ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لِما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أي: شكًّا وريبًا ماكثًا في قلوبهم، ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانُهم لا يزيدهم إلا ريبًا إلى ريبهم، ونفاقًا إلى نفاقهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء؛ ظاهرها وباطنها، خفيِّها وجليِّها، وبما أسرَّه العباد وأعلنوه، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يخلُقُ، ولا يأمر ولا ينهى؛ إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به، فللَّه الحمد.



في هذه الآيات فوائد عدة

منها: أنَّ اتِّخاذ المسجد الذي يُقصد به الضّرار لمسجدٍ آخر بقربه أنه محرَّم، وأنه يجب هدمُ مسجد الضرار الذي اطُّلِع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل، وإن كان فاضلًا، تُغيِّره النية، فينقلب منهيًا عنه، كما قلبتْ نية أصحاب مسجد الضرار عملَهم إلى ما ترى.

ومنها: أنَّ كل حالة يحصُلُ بها التفريق بين المؤمنين فإنَّها من المعاصي التي يتعيَّن تركُها وإزالتها؛ كما أنَّ كل حالة يحصل بها جمعُ المؤمنين وائتلافهم يتعيَّن اتِّباعها والأمر بها، والحثُّ عليها؛ لأنَّ الله عَلَّل اتِّخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجِب للنهي عنه، كما يُوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبُعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تُؤثِّر في البقاع، كما أثَّرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونُهِي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تُؤثِّر في الأماكن كما أثَّرت في مسجد قُباء، حتى قال الله فيه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قُباء كلَّ سبتٍ يصلي فيه، وحثَّ على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يُستفادُ من هذه التعاليل المذكورة في الآية أربع قواعد مهمَّة، وهي: كل عمل فيه مضارَّة لمسلم، أو فيه معصيةٌ لله ـ فإن المعاصي من فروع الكفر ـ أو فيه تفريقٌ بين المؤمنين، أو فيه معاونةٌ لمن عادى الله ورسوله؛ فإنه محرَّم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشـــئة عن معصية الله لا تزال مُبْعِدة لفاعلها عن الله، بمنزلة الإصـــرار على المعصية حتى يزيلها ويتـــوب منها توبةً تامَّةً؛ بحيث يتقطع قلبُه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مســجدُ قُباء مســجدًا أُسِّــس على التقوى، فمســجد النبيِّ ﷺ الذي أَسَّسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمـــل المبنيَّ على الإخلاص والمتابعة هو العمل المؤسَّـــس على التَّقـــوى، الموصِل لعامله إلى جنات النعيم. والعمل المبني على ســـوء القصد وعلى البدع والضَّلال هو العمل المؤسَّس على شفا جُرُفٍ هارٍ، فانهار به في نار جهنَّم، والله لا يهدي القوم الظالمين(١).

---

(١) ومن فوائد قصة مسجد الضِّرَار:
- بيان أكبر مؤامرة ضد الإسلام قام بها المنافقون بإرشاد الفاسق أبي عامر الراهب.
- بيان أن تنازُع الشرف ســـبب البلاء كل البلاء؛ فابن أُبَيٍّ حارَبَ الإســـلام؛ لأنه كان يُؤمِّلُ في السُّلطة على أهل المدينة، فحُرِمَها بالإسلام، وأبو عامر الراهب تَرَهَّب لأجل الشرف على أهل المدينة والسلطان الروحي، فلذا لما فقدها حارَبَ مَن كان سبب حرمانه وهو الرسول ﷺ حتى قال له مواجهةً: ما قاتَلَكَ قوم إلا قاتلتُكَ معهم [ذكره الثعلبي، والواحدي، والبغوي، وغيرهم] بل ذهب إلى الـــروم يُؤَلِّبهم على رســـول الله ﷺ، واليهـــود ما حارَبُوا الإســـلام إلا مِن أجل المحافظة على أملهم في ملكهم.
- لا يصح الاغترار بأقوال أهل النفاق؛ فإنها كذب كلها.
- أيُّما مسجد بُنِي للإضرار والتفرقة بين المسلمين وجب هدمه، وتحرُم الصلاة فيه.
- استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسَّسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى اســـتحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعُبَّاد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزُّه عن ملابسة القاذورات.
- فضل التطهُّر والمبالغة في الطهارتَيْن الروحية والبدنية.
- التحذير من الظلم والإسراف فيه؛ فإنه يَحْرِم صاحِبَه هدايةَ الله، فيهلك وهو ظالم، فيخسر دنيا وأُخرى.



قصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وكذلك لقد تاب الله على ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: كعب بن مالك وصاحباه، وقصَّتُهم مشهورةٌ معروفة، في الصحاح والسنن(١).

(١) قال كعب بن مالك ﷺ: كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلَّفت عنه في تلك الغزاة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهَّبوا أهبة غزوهم، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، فما رجل يريد أن يتغيَّب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهَّز معهم، فأرجع ولم أقضِ شيئًا، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئًا، فقلت أتجهَّز بعده بيوم أو يومَين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهَّز، فرجعت ولم أقضِ شيئًا، فلم يَزَل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يُقدَّر لي ذلك، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال: «ما فعل كعب؟»، فقال رجل: حبسه بُرْدَاه، ونظرُه في عِطْفِه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ، فلما بلغني أنه توجَّه قافلًا حضرني همي، وأقول: =

= بماذا أخرج من ســخطه غدًا؟ فلما قيل: إن رســول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشــيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رســول الله ﷺ قادمًا، وجاءه المخلَّفــون، فطفقوا يعتذرون إليــه ويحلفون له، فقَبِل منهم رســول الله ﷺ علانِيَتَهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل ســرائرهم إلى الله، فجئته، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسُّم الـمُغضَب، فقال لي: «ما خلَّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟»، فقلت: بلى، إني والله لو جلســت عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن ســأخرج من ســخطه بعذر، ولقد أُعْطِيتُ جدلًا، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يســخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إنــي لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلَّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»، فقمت، وثار رجال من بني سَلِمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، قد كان كافيك ذنبَك استغفار رسول الله ﷺ لك، فو الله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذِّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالــوا: نعم، رجلان، قالَا مثل ما قلت؛ مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلَين صالحَين، قد شهدَا بدرًا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة، فاجتنبَنا الناس، وتغيَّروا لنا حتى تنكَّرت في نفســي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدَا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأســواق ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتَيه برد السلام عليَّ أم لا؟ حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليَّ، فســلمت عليه، فو الله ما ردَّ عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أُحِب الله ورسوله؟ فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تســوَّرت الجدار، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطَلِّقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقرَبْها، وأرسل إلى صاحِبَيَّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية رســولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شــيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك». قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ حزنوا حزنًا عظيمًا، و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: على سعتها ورحبها، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ التي هي أحبُّ إليهم من كلِّ شيءٍ، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تَجْرِ العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدَّة والمشقَّة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدَّموا رضا الله ورضا رسوله على كلِّ شيءٍ.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ أي: تيقَّنوا وعرفوا بحالهم أنه لا يُنْجِّي من الشدائد ويُلْجأ إليه إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلُّقهم بالمخلوقين، وتعلَّقوا بالله ربهم، وفرُّوا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلةً.

= كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صُبْحَ خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس سمعت صوت صارخ: يا كعب بن مالك، أَبْشِر، قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذَن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبَيّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا، يهنوني بالتوبة، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فلما سلَّمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ، وهو يبرق وجهه من السرور: «أَبْشِرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك»، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحَدِّث إلا صدقًا ما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. صحيح البخاري (٦/ ٣ ـ ٧) رقم (٤٤١٨) باختصار.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: أذن فـــي توبتهم ووفَّقهم لهــا، ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، أي: لتقع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾، أي: كثير التوبة والعفو والغفران عن الزلَّات والنُّقصان، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: وصْفُــهُ الرحمة العظيمة التي لا تــزال تنْزِلُ على العباد في كلِّ وقت وحين في جميع اللحظات ما تقوم به أمورهم الدينيَّة والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليلٌ علـــى أن توبة الله على العبد أجلُّ الغايات، وأعلى النهايات، فـــإنَّ الله جعلها نهاية خواصِّ عباده، وامتـــنَّ عليهم بها حين عملوا الأعمال التي يحبُّها ويرضاها.

ومنها: لُطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أنَّ العبادة الشاقَّة على النفس لها فضلٌ ومزيَّة ليست لغيرها، وكلَّما عظُمت المشقة عظم الأجر.

ومنهـــا: أن توبة الله على عبده بحســـب ندمِهِ وأســـفِهِ الشـــديد، وأنَّ من لا يبالي بالذنب ولا يُحْرج إذا فعله؛ فإنَّ توبته مدخولةٌ، وإنْ زعم أنَّها مقبولةٌ.

ومنها: أنَّ علامة الخير وزوال الشدَّة إذا تعلَّق القلب بالله تعالى تعلُّقًا تامًّا، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أنَّ مِن لُطف الله بالثلاثة أنْ وَسَـــمَهم بِوَسْـــمٍ ليس بعـــارٍ عليهم، فقال: ﴿خُلِّفُواْ﴾؛ إشارةً إلى أن المؤمنين خلَّفوهم، أو خُلِّفوا عن منْ بُتَّ في قبول عذرهم، أو في ردِّه، وأنهم لم يكن تخلُّفهم رغبةً عن الخير، ولهذا لم يقلْ: «تخلَّفوا».

ومنها: أن الله تعالى منَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم[1].

---

(١) **فوائد من قصة الثلاثة الذي خُلِّفُوا:**

- جواز طلب أموال الكفار من ذوي الحرب.
- جواز الغزو في الشهر الحرام.
- التصريح بجهة الغزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره.

= ـ أن الإمام إذا استنفر الجيش عمومًا لزمهم النفير، ولحق اللومُ كلَّ فردٍ إذا تخلَّف.
ـ أن العاجز عن الخروج بنفسه أو بماله لا لوم عليه.
ـ استخلاف من يقوم مقام الإمام على أهله والضَّعَفة.
ـ تَرْك قَتْل المنافقين، ويُستنبَط منه تَرْك قَتْل الزنديق إذا أظهر التوبة.
ـ فيها عِظَمُ أمرِ المعصية.
ـ فيها أن القوي في الدين يؤاخَذ بأشد مما يؤاخَذ الضعيف في الدين.
ـ جواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمره؛ تحذيرًا ونصيحةً لغيره.
ـ جواز مَدْح المرء بما فيه من الخير إذا أَمِن الفتنة.
ـ تسلية نفسه بما لم يحصل له مما وقع لنظيره.
ـ فضل أهل بدر والعقبة.
ـ جواز الحَلِف للتأكيد من غير استحلاف.
ـ فيها التورية عن المقصد.
ـ جواز تَرْك وَطْء الزوجة مدةً.
ـ أن المرء إذا لاحت له فرصة في الطاعة فحَقُّه أن يبادر إليها ولا يُسَوِّف لئلا يُحرَمها.
ـ فيها جواز تمنِّي ما فات من الخير.
ـ أن الإمام لا يهمل مَن تخلَّف عنه في بعض الأمور، بل يذكره ليراجع التوبة.
ـ جواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن حميةً لله ورسوله.
ـ جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظنِّ الرَّادِّ وَهْمُ الطاعن أو غلطُه.
ـ فيها أن المستحب للقادم أن يكون على وضوء.
ـ أن يبدأ بالمسجد قبل بيته، فيصلي ثم يجلس لمن يسلِّم عليه.
ـ مشروعية السلام على القادم وتَلقِّيه.
ـ الحكم بالظاهر.
ـ قبول المعاذير.
ـ استحباب بكاء العاصي أسَفًا على ما فاته من الخير.
ـ فيها إجراء الأحكام على الظاهر، وتفويض السرائر إلى الله تعالى.
ـ فيها تَرْك السلام على مَن أذنب.
ـ جواز هَجْر المذنِب أكثر من ثلاث، وأما النهي عن الهجر فوق الثلاث فمحمول على مَن لم يكن هجرانه شرعيًا.
ـ أن التبسُّم قد يكون عن غضب كما يكون عن تعجُّب، ولا يختص بالسرور.
ـ معاتبة الكبير أصحابَه ومن يعز عليه دون غيره.
ـ فيها فائدة الصدق، وشؤم عاقبة الكذب.

= - فيها العمل بمفهوم اللقب إذا حَفَّتْه قرينة، لقوله ﷺ لما حَدَّثَه كعب: «أما هذا فقد صدق» متفق عليه؛ فإنه يُشْعِر بأن مَن سواه كذب، لكن ليس على عمومه في حق كل أحد سواه؛ لأن مُرارة وهلالًا أيضًا قد صدقًا، فيختص الكذب بمن حلف واعتذرَ، لا بمن اعترف، ولهذا عاقَب مَن صدق بالتأديب الذي ظهرت فائدته عن قُرْب، وأخَّر من كذب للعقاب الطويل.
- فيها تبريد حَرِّ المصيبة بالتأسِّي بالنظير.
- وفيها عِظَم مقدار الصدق في القول والفعل، وتعليق سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شَرِّهما به.
- أن مَن عُوقِب بالهجر يُعذَر في التخلُّف عن صــلاة الجماعة؛ لأن مُرارة وهلالًا لم يخرجَا من بيوتهما تلك المدة.
- فيها سقوط رَدِّ السلام على المهجور عمن سلَّم عليه؛ إذ لو كان واجبًا لم يقل كعب: هل حرَّك شفتيه برَدِّ السلام؟
- فيها جواز دخول المرء دار جارِه وصديقه بغير إذنه، ومن غير الباب إذا عَلِم رضاه.
- فيها أن قول المرء: «الله ورسوله أعلم» ليس بخطاب، ولا كلام، ولا يحنث به مَن حلف أن لا يكلِّم الآخر إذا لم يَنْوِ به مكالمته.
- فيها أن مسارقة النظر في الصلاة لا تقدح في صحتها.
- إيثار طاعة الرسول على مودة القريب.
- خدمة المرأة زوجها.
- الاحتياط لمجانبة ما يُخشَى الوقوع فيه.
- جواز تحريق ما فيه اسم الله للمصلحة.
- فيها مشروعية سجود الشكر.
- الاستباق إلى البشارة بالخير.
- إعطاء البشير مَن يأتيه بالبشارة أنْفَسَ ما يحضر.
- تهنئة من تجدَّدَتْ له نعمة.
- القيام إليه إذا أقبل.
- اجتماع الناس عند الإمام في الأمور المهمة.
- سرور الإمام بما يَسُرُّ أتباعه.
- مشروعية العارية.
- مصافحة القادم والقيام له.
- التزام المداومة على الخير الذي يُنتفَع به.
- استحباب الصدقة عند التوبة.
- أن مَن نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه.

المراجع

مراجع التخريج

١ ـ صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (المتوفى: ٢٥٦هـ).

٢ ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ).

٣ ـ سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ).

٤ ـ سنن ابن ماجه، ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (المتوفى: ٢٧٣هـ).

٥ ـ سنن النسائي، أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ).

٦ ـ المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ).

٧ ـ صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ).

٨ ـ دلائل النبوة للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ).

٩ ـ تفسير الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).

مراجع الغريب والفرق والبلدان

١٠ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ).

١١ ـ الفائق في غريب الحديث، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ).

١٢ ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ).

١٣ ـ القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي (المتوفى: ٨١٧هـ).

١٤ ـ تاج العروس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ).

١٥ ـ التبيان في تفسير غريب القرآن، أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم (المتوفى: ٨١٥هـ).

١٦ ـ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ).

١٧ ـ معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ).

١٨ ـ غريب القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ).

١٩ ـ المِلَل والنِّحَل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ).

٢٠ ـ معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ).

الفهرس

✻ ✻ ✻